

إعجاز القرآن

للإمام القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني
المتوفى عام ٤٠٣هـ

شرح وتعليق
د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

إعجاز القرآن

تصدير

هذا هو كتاب « إعجاز القرآن » للإمام الكبير القاضي أبي بكر محمد ابن الطيب الباقلاني المتوفي عام ٤٠٣ هـ.

وهو كتاب جليل، في دراسات النقد والبيان والإعجاز، بل هو من أنفع وأجل ما كتب في دراسة نواحي إعجاز القرآن الكريم، والكشف عن أسراره.

ويمتاز الكتاب بجدة منهجه في البحث، وعُمْق تذوُّقه للأدب، ودقة فَهْمه لأُصول البيان، وسعة اطلاع مؤلفه على ثقافات الدين والعربية، كما يمتاز بجمال أسلوبه وطلاوته، وبغلبة ثقافة المتكلمين عليه.

وهذا هو شرح وتعليق على الكتاب، ننشره خدمة للباحثين والدارسين. والله وليُّ التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

محمد عبد المنعم خفاجي



دراسة للمحقق
حول
كتاب الباقلاني

ـ ١ ـ
ترجمة المؤلف

١ ـ قال عنه الحافظ البغدادي في تاريخ بغداد[١] :

محمد بن الطيب بن محمد، أبو بكر القاضي، المعروف بابن الباقلاني، المتكلم على مذهب الأشعري.

من أهل البصرة، سكن بغداد، وسمع بها الحديث، وكان ثقة.

فأما الكلام : فكان أعرف الناس به، وأحسنهم خاطراً، وأجودهم لساناً، وأوضحهم بياناً، وأصحَّهم عبارةً.

وله التصانيف الكثيرة المنتشرة في الرد على المخالفين : من الرافضة والمعتزلة والجهمية والخوارج وغيرهم.

وحدثنا ابن الدقاق وغيره : أن الملك الملقب بعضد الدولة كان قد بعث القاضي أبا بكر بن الباقلاني في رسالة إلى ملك الروم، فلما ورد مدينته عرف الملك خبره، وبيَّن له محله من العلم وموضعه، فأفكر الملك في أمره، وعلم أنه لا يكفر له[٢]، ثم نتجت له الفكرة أن يضع سريره الذي

---

(١) ٥/٢٧٩ تاريخ بغداد.

(٢) التكفير : أن يخضع الانسان لغيره.

يجلس وراء باب لطيف لا يمكن أحداً أن يدخل منه إلا راكعاً، ليدخل القاضي منه على تلك الحال، فيكون عوضاً عن تكفيره بين يديه، فسار القاضي حتى وصل إلى المكان، فلما رآه تفكَّر فيه ثم فطن بالقصة، فأدار ظهره، وحنا رأسه راكعاً، ودخل من الباب وهو يمشي إلى خلفه، قد استقبل الملك بدبره حتى صار بين يديه، ثم رفع رأسه ونصب ظهره، وأدار وجهه حينئذ إلى الملك، فعجب من فطنته، ووقعت له الهيبة في نفسه.

وللسكري يمدح القاضي أبا بكر :

اليعربـــي فصاحـــة وبلاغـــة	والأشعري إذا اعتزى للمذهب
وصلته همتـــه بأبعـــد غايـــة	أعيى المريد لها سبيل المطلب
ما زال ينصر دين أحمد صادعاً	بالحق، يهدي للطريق الأصوب
شرفاً أبا بكر وقدراً صاعداً	يختب في شرق العلى والمغرب
حييت بك الآمال بعد مماتها	والغيث خصب للمكان المجدب
فاسلم سلمت من الزمان وصرفه	فلأنت أمرع من ربيع المخصب
فإذا سلمت لنا فأية نعمـــة	لم نعطها ؛ وبلية لم تسلم ؟

ومات القاضي أبو بكر محمد بن الطيب في يوم السبت لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة.

٢ — وقال ابن خلكان[١] :

القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، المعروف بالباقلاني البصري المتكلم المشهور.

كان على مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، ومؤيِّداً اعتقاده، وناصراً طريقته. وسكن بغداد، وصنَّف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره وكان في علمه أوحد زمانه، وانتهت إليه الرياسة في مذهبه. وكان

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان طبعة ١٢٩٩ هـ ج ٢ — ص ٢٧٨.

موصوفاً بحبِّ الاستنباط، وسرعة الجواب، وسمع الحديث : وكان كثير التطويل في المناظرة، مشهوراً بذلك عند الجماعة. وجرى يوماً بينه وبين « أبي سعيد الهاروني » مناظرة، وأكثر القاضي أبو بكر المذكور فيها الكلام، ووسع العبارة، وزاد في الإسهاب، ثم التفت إلى الحاضرين وقال : اشهدوا على أنه إن أعاد ما قلت لا غير لم أطالبه بالجواب، فقال الهاروني : اشهدوا على أنه إن أعاد الكلام نفسه سلمت له ما قال.

وتوفي القاضي أبو بكر آخر يوم السبت، ودفن يوم الأحد، لسبع بقين من ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ ببغداد، رحمه الله تعالى.

ورثاه بعض شعراء عصره بقوله :

انظر إلى جبل تمشي الرجال به ... وانظر إلى القبر ما يحوي من الصَّلَف

وانظر إلى صارم الإسلام مغتمداً ... وانظر إلى درَّة الإسلام في الصدف

وصلَّى عليه ابنه الحسن، ودفنه في داره بدرب المجوس، ثم نقل بعد ذلك فدفن في مقبرة باب حرب.

— ٢ —
صور من تاريخ الباقلاني

١ — من شيوخ الباقلاني : ابن مجاهد الطائي وعنه أخذ علم الكلام والفقه المالكي وأصوله، والشيخ الصالح أبو الحسن الباهلي الذي كان من أخصِّ الناس بأبي الحسن الأشعري، ومحمد الأبهري المالكي، والحسين النيسابوري، وأبو بكر بن مالك، وأبو محمد بن ماسي، والقطيعي م ٣٩٨ هـ، وغيرهم من أعلام القرن الرابع الهجري في الدين والشريعة.

٢ — وكان أوَّل شيءٍ في حياته رفع منزلته عند العلماء، هو شخوصه إلى شيراز لمناظرة المعتزلة في مجلس عضد الدولة فناخسرو.

وكانت شوكة المعتزلة شديدة في العراق إلى أن كان زمن هذا الملك، وكان قاضي القضاة في وقته معتزلياً، فقال له فناخسرو يوماً : هذا المجلس عامر بالعلماء إلا أني لا أرى أحداً من أهل السنَّة والإثبات ينصر مذهبه... فقال له قاضي القضاة : إن أهل السنَّة والإثبات عامَّة رعاع أصحاب تقليد وأخبار وروايات، يروون الخبر وضده ويعتقدونهما وأحدهما ناسخ للثاني أو متأوَّل، ولا أعرف منهم أحداً يقوم بهذا الأمر... فقال الملك : محال أن يخلو مذهب طبق الأرض من ناصر ينصره، فانظروا أي موضع يكون مناظر ليكتب فيه ويحضر مجلسنا... فلما عزم في ذلك قال له قاضي القضاة المعتزلي : أصلح الله الملك أخبروني أن بالبصرة رجلين — شيخاً وشاباً — أحدهما يُعرف بأبي الحسن الباهلي، والشاب يعرف بابن الباقلاني.

وكانت حضرة الملك يومئذٍ بشيراز، فكتب الملك إلى العامل ليبعثهما إليه، وأطلق مالاً لنفقتهما من طيب المال... قال القاضي أبو بكر الباقلاني : فلما وصل الكتاب إلينا قال الشيخ (يعني أبا الحسن الباهلي) وبعض أصحابنا : هؤلاء القوم فسقة لا يحل لنا أن نطأ بساطهم، وليس غرض الملك من هذا إلا أن يقال إن مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر كلهم، ولو كان ذلك لله عزّ وجلّ خالصاً لنهضت، فأنا لا أحضر عند قوم هذه صفتهم.

فقال القاضي : كذا قال ابن كلاب والمحاسبي ومَنْ كان في عصرهما من المتكلمين : إن المأمون لا نحضر مجلسه ! حتى ساق أحمد إلى طرسوس ثم مات المأمون وردوه إلى المعتصم، فامتحنه وضربه، وهؤلاء أسلموه، ولو ذهبوا إليه وناظروه لكفوه عن هذا الأمر، فانه كان يزعم أن القوم ليست لهم حجة على دعاويهم... وأنت أيها الشيخ تسلك سبيلهم حتى يجري على الفقهاء ما جرى على أحمد بن حنبل، ويقولون بخلق القرآن ونَفْي رؤية الله تعالى، وها أنا ذا خارج إن لم تخرج.

قال : فخرجت مع الرسول نحو شيراز في البحر حتى وصلنا إليها. ثم ذكر دخوله على الملك ومناظرته مع المعتزلة وقطعه إياهم.

وقد بلغ من احترام الملك عضد الدولة فناخسرو له بعد ذلك أن دفع إليه ابنه يعلمه مذهب أهل السنة، وألف له كتاب « التمهيد ».

٣ ـــ ومن أقران الباقلاني : إبراهيم بن محمد الاسفراييني المتوفي عام ٤١٨ هـ، وأبو بكر محمد بن الحسن فورك المتوفي عام ٤٠٦ هـ. ووصفهم الصاحب بن عباد فقال : « ابن الباقلاني بحر مغرق، وابن فورك صل[1]مطرق، والاسفراييني نار تحرق ».

ومن تلامذة الباقلاني : أبو عبد الله الأزدي، وأبو طاهر البغدادي الصوفي، وقد هاجرا إلى القيروان.

وكان له حلقة كبيرة بجامع المنصور ببغداد، وكان الطلبة يتزاحمون على منزله في « نهر طابق ببغداد ».

وكانت حياته نسكاً وتصوُّفاً وعبادة وسَعْياً في الخير، ودفاعاً عن الدين، وتأليفاً في علوم أصول الدين وفروعه.

٤ ـــ وكانت سفارته على ملك الروم عام ٣٧١ هـ حيث أرسله عضد الدولة في سفارة رسمية.. وأدخلوه مرة وهو في عاصمة الروم على بعض القسس، فقال القاضي للبابا : كيف أنت وكيف الأهل والأولاد ؟ فتعجب الرومي وقال له : ذكر من أرسلك في كتاب الرسالة أنك لسان الأمة ومتقدم على علماء الملة، أما علمت أن المطارنة والرهبان منزهون عن الأهل والأولاد ؟ فأجابه القاضي أبو بكر : رأيناكم لا تنزهون الله سبحانه عن الأهل والأولاد، فهل المطارنة عندكم أقدس وأجل وأعلى من الله سبحانه ؟

---

(١) الصل : الحية العظيمة.

وأراد كبير الروم أن يخزي القاضي فقال له : أخبرني عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها ؟ فأجابه : هما اثنتان قيل فيهما ما قيل : زوج نبينا ومريم أم المسيح. فأما زوج نبينا فلم تلد، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها، وقد برأهما الله مما رميتا به. فانقطع الرومي ولم يحر جواباً.

٥ ــ هذا وقد نشأ الباقلاني في البصرة، ولما بلغ سن الشباب هاجر منها إلى بغداد وأقام فيها، وكان من كبار فقهاء المذهب المالكي.

وكان الذي جعله يتجه إلى علم الكلام هو كثرة الملحدين في العراق في القرن الرابع وظهور أبي الحسن الأشعري ودفاعه عن آرائه وجداله الشديد للمعتزلة وأنصارهم.

وله في كتب الكلام آراء منسوبة إليه. من ذلك أنه كان يقول بالواسطة بين الموجود والمعدوم، لأنه ذهب إلى أن المعلوم إن لم يتحقَّق أصلاً فهو المعدوم وإن تحقق بوجهٍ فان لم يكن باعتبار ذاته فهو الحال وعرفوه بأنه صفة لموجود لا موجودة ولا معدومة، وان كان فهو الموجود في الخارج[١].

ونسب إليه صاحب روضات الجنات[٢] القول بعدم استعمال المصطلحات الشرعية في خلاف معانيها اللغوية أبداً ولو مجازاً، يزعم أن الخصوصيات المؤثرة من جانب الشارع المقدس شروط صحة لها خارجة عن أصول تلك المسميات، نظير ما يقوله الذاهبون إلى وضع الحقائق الشرعية للأعم من الصحيحة منها والفاسدة نظراً إلى صحة الاطلاق عليه، فلا نقل عنده إلى أحد من تلك المعاني المجهولات، وإنْ قيل إنَّ المشهور اختياره للمذهب الثاني في الحقائق الشرعية، وهو كونها مجازات لغوية.

---

(١) انظر أول رسالة البصائر من علم الكلام للشيخ عبد الصمد بن محمود الكردي.

(٢) أنظر ص ٦١٦ (٤ جـ ١١٧ منه).

ويذكر ابن تيمية عن القاضي الباقلاني أنه أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعري، وليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده[١].

وكان من أنصار مذهب الأشعري الذين عملوا على نصرة المذهب، وصار إماماً له بعد أن تناوله بالتهذيب.

وضع لمسائل العلم المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة، وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد والخلاء، وأن العرض لا يقوم بالعرض، وأن العرض لا يبقى زمانين.

وجعل القاضي هذه القواعد تبعاً للعقائد الدينية في وجوب اعتقادها : لتوقف تلك الأدلة في رأيه عليها، ولأن بطلان الدليل يؤذن فيما يقول ببطلان المدلول[٢].. وهكذا ضيق القاضي ومَنْ معه على الناس[٣].

وبعد فالباقلاني من أعلام الأشاعرة في القرن الرابع الهجري.

فلقد أسس أبو الحسن الأشعري (٢٧٠ ـــ ٣٣٠ هـ) مدرسة كبيرة من مدارس علم الكلام وخالف أستاذه الجبائي المعتزلي.

وكان الباقلاني من أشهر تلاميذ هذه المدرسة، وكان نصير مذهب الجوهر الفرد. وكان يثبت الصفات معاني قائمة به تعالى لا أحوالاً، وقال : الحال الذي أثبته أبو هاشم المعتزلي هو الذي يسميه صفة خصوصاً إذا أثبت حالة أوجبت تلك الصفات[٤]. ومن مدرسة الأشاعرة : إمام الحرمين الجويني م ٤٧٨ هـ، ومن أنصارهم : الغزالي م ٥٠٥ هـ وسواهم[٥].

---

(١) ٣/١٦٩ شذرات الذهب لابن العماد طبع القدسي. ١٣٥ هـ.

(٢) ٣٦٩ المقدمة طبع مطبعة التقدم بالقاهرة ١٣٢٢.

(٣) راجع ١/٤ كتاب التوحيد للشيخ حسين والي طبع القاهرة ١٩٠٩.

(٤) ١٢٩ جـ ٢ الملل والنحل للشهر ستاني م ٥٤٨ هـ نشر أحمد فهمي محمد.

(٥) راجع ترجمة الباقلاني أيضا في المراجع الآتية :

ابن خلكان رقم ٢٦٣ جـ ١ ص ٦٠٩ ـــ والديباج لابن فرحون رقم ٨٦٠ ص ٢٦٧ ـــ =

— ٣ —

مؤلفات الباقلاني

فقدت أكثر مؤلفات هذا الإمام الكبير، رغم أنه، كما يُروى، صنَّف سبعين ألف ورقة في الدفاع عن الدين، وكان يؤلف كل ليلة خمساً وثلاثين ورقة.

ويُروى أن له كتاباً، في الملل والنحل، وكتاباً آخر ذكره صاحب كشف الظنون واسمه « هداية المسترشدين في الكلام » وله كتاب « الانتصار » وكتاب « التمهيد ».

وقد نشر السيد عزت العطار عام ١٩٥٠ بالقاهرة كتاباً للباقلاني اسمه « الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به » بتعليق الشيخ زاهد الكوثري، ونحن نشك في صحة نسبة هذا الكتاب إلى الباقلاني لاختلاف الأسلوب والحجج. وقد ذكر إعجاز القرآن عرضاً في هذا الكتاب[١]، وتكلم عنه في نصف صفحة ولم يشر إلى كتابه « إعجاز القرآن ». وفي الكتاب إسفاف في المناظرة تشهد بأنه ليس له.

وفي كتاب إعجاز القرآن يشير الباقلاني إلى أن له كتاباً في الأصول[٢].

هذا وقد نشر الأستاذان محمود محمد الخضيري ومحمد عبد الهادي أبو ريدة كتابه : « التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج ». وهو من تآليف الإمام الباقلاني.

= وشذرات الذهب رقم ٢٠٣١ ص ٥٧ جـ ٢ — وروضات الجنات رقم ١٠١٣ ص ٦١٦ جـ ٤ وعيون التواريخ لابن شاكر رقم ١٢٧٦ ص ٢٦٣ جـ ١٢ وراجع مذهبه في طبقات السبكي رقم ٥٤٦ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ جـ ٢ وفي ص ٢٥٧ بعض شيوخه.

(١) ص ٥٤ الانصاف.

(٢) ص ٢٦ الاعجاز طبعة ١٣١٥ هـ ، وص ٥١ الاعجاز طبعة ١٣٤٩ هـ. في آخر فصل « جملة وجوه الاعجاز ».

وقد طبع كتاب إعجاز القرآن الكريم بالقاهرة عام ١٣١٥ هـ. طبعة كثيرة الأخطاء والتحريفات التي لم تنج منها آيات القرآن.

كما طبع بالقاهرة عام ١٩٤٩ م طبعة أجود ورقاً وأحسن طبعاً ولكنها كسابقتها لم تخل من الخطأ والتحريف. وطبع على هامش الإتقان عام ١٩٣٥ م.

ولا يوجد في الطبعة الأولى والأخيرة تعليقات أو شروح، وفي الطبعة الثانية تعليقات صغيرة لا تغني في البحث شيئاً.. وقد نفدت نسخ الطبعات كلها منذ زمن بعيد.

وهذه هي الطبعة الرابعة للكتاب مقابلة بنسخة خطية بدار الكتب الملكية، معلقاً عليها تعليقات موجزة وافية، مع تصحيح أخطاء الكتاب وما لحقه من تحريف، ومع العناية والجهد في الإخراج والنشر.

— ٤ —
القرآن الكريم وإعجازه

القرآن كتاب الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا، وانتظمت سعادة الأولى والآخرة، ونزلت هدىً ونوراً للبشر كافة، فقضت على الأوهام الباطلة والأساطير الكاذبة والعبادات الضالّة والأديان المنحرفة، وأحالت الظلام ضياء والشقاء سعادة واليأس أملاً والضلال هدىً والهمجية مدنيةً، والجهل علماً ومعرفة وفنّاً وأدباً وثقافة، نبع من معينها الزاخر كل مَنْ رغب في الخير وطمح إلى السلام والنور، ونقلت الانسانية من عصر تسوده الفوضى، وتذيع فيه مبادئ الطغيان والعبودية وسَفْك الدماء ونَهْب الأموال والأعراض، إلى حياة

فيها رضى وأمن وطمأنينة وسلام، وحرية وعدل وإخاء، وعمران وحضارة، وحدود محدودة وضعت لسعادة الناس والجماعات والشعوب والإنسانية قاطبة.

قبس من الهدى والنور نزل به جبريل من السماء إلى الأرض على سيد الخلق وأكرم الرسل وأشرف مَنْ في الوجود محمد صلوات الله عليه. فبلغه الناس، وبشر بدعوته العرب والبشر كافة، وأذاع مبادئه في كل مكان، فحملت إلى العالم السلام والعدل والحرية، وفتحت صفحة جديدة في تاريخ الإنسانية، وأنقذت الناس من ضلال الجاهلية الأولى : فتبارك الله رب العالمين.

« ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، ومعان بيِّنة هي عذوبة ترويك من ماء البيان، ورقة تستروح منها نسيم الجنان، إذا هي بعد ذلك إطباق السحاب. توهموا السحر ما توهموا فلما أنزل الله كتابه قالوا هو السحر المبين »[1]. وتصوروا الشعر ما تصوروه فلما سمعوا آياته البينة وبلاغته المتدفقة، ورأوا هدايته النادرة وفصاحته الباهرة، وما فيه من روعة التصوير ودقة التعبير وشدة التأثير، قالوا : إي والله إنه لشعر شاعر وسحر ساحر، إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر، كلا والقمر، والليل إذا أدبر، والصبح إذا أسفر، إنها لأحدى الكبر، وما هو بقول بشر، إن هو إلا وحي يوحى، ومعجزة تتحدى، وبلاغة تُتلى وتُروى، أشرقت بنوره السماء والأرض، واهتدت بهديه الملائكة والبشر أجمعون.

أسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة وجلالة الروح وإشراق البيان وجمال الديباجة وقوة المنطق وعبقرية التصوير والتعبير.

---

(١) ٢٨ و ٢٩ إعجاز القرآن للرافعي ط ١٩٢٨.

أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة والقوة والعذوبة وحرارة الايمان وتدفق البلاغة، فهو السحر الساحر، والنور الباهر، والحق الساطع، والصدق المبين.

نعم، نزل الذكر الحكيم في أسلوب لا يضارعه أسلوب، فلا هو شعر ولا هو سجع ولا هو مزاوجة ولا هو نثر مرسل ولا خطابة، إنما هو نظم رائع وألفاظ عذبة ومعان سامية، وجلال وروعة. جمع بلاغة جميع أساليب البيان، وفصاحة شتى خصائص النظم، واستوفى كل عناصر الإعجاز.

تحدى الله به العرب فعجزوا، فتحداهم بسورة منه فبهروا، فتحداهم بأقصر سورة، فخرسوا. ولما سمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم وأرباب البيان فيهم سجدوا له خاشعين، وما إيمان عمر حين سمع « طه »، وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله : « والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر »[1] حين سمع « فصلت »، وما تردد بلغاء العرب على الأماكن التي يتعبد فيها محمد ليلاً ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية، وما عجزهم بعد التحدي، ما كل ذلك إلا دليل الإعجاز وعظمة البيان وجلال الأسلوب.

— ٥ —

آراء في إعجاز القرآن الكريم

كان الجعد بن درهم في عصر بني أمية يقول : فصاحة القرآن غير معجزة، وهو رأي مدخول.

وجاء بعده أبو إسحاق النظام المشهور فذهب إلى أن سبب الإعجاز هو الصرفة، ومعنى هذا أن القرآن لا يرتفع من الناحية البيانية عن طاقة البشر

---

(١) ٣٨٧ جـ ٣ الكشاف للزمخشري ط ١٢٥٤ هـ.

وقدرتهم، لولا صرف الله لهم أن يأتوا بمثله.. ويُروى عنه رأي آخر وهو أن الإعجاز انما كان من حيث إخبار القرآن الكريم بأنباء الغيب الماضية والمستقبلة.

ولكن الجاحظ يثبت الإعجاز للقرآن الكريم، ويرجعه إلى بلاغته الساحرة وخصائصه البيانية الرائعة ونظمه العجيب وفصاحته الباهرة : فالقرآن في الذروة من البلاغة، وفي القمة من الإعجاز، وقد تحدّوا به فلم يقدروا، وسجل عليهم العجز عن معارضته، واعترف أساطين البلاغة منهم ببلاغته، حتى قال الوليد بن المغيرة بعد أن سمع القرآن من الرسول : « والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي نقول شيئاً من هذا. ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه ».

وعلى نهج الجاحظ سار عبد القاهر الجرجاني صاحب دلائل الإعجاز الذي دافع عن إعجاز القرآن الكريم، ورجعه إلى خصائص النظم العربي ودقائقه، وما تجدد[1] بالقرآن من عظيم المزية، وباهر الفضل، والعجيب من الرصف، حتى أعجز الخلق قاطبة، وحتى لم يجر لسان، ولم يبن بيان، ولم يساعد إمكان. وكما يقول عبد القاهر أيضاً : « أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل ومساق كل خبر، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة وعشراً عشراً وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو مكانها بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور »[2].

أما القاضي الباقلاني فقد أحصى جملة وجوه إعجاز القرآن في ثلاثة :

---

(١) ص ٦ المدخل إلى دلائل الاعجاز من الطبقة الثانية.

(٢) ٣٢ دلائل الاعجاز.

ما في القرآن من الأخبار عن الغيب مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه. وما فيه من أخبار الأمم القديمة، مع أمية الرسول الظاهرة. ونظم القران الكريم وعجيب تأليفه، وتناهيه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه. وقد شرح الباقلاني وجوه الإعجاز في نظم القرآن الكريم.. وتحدث عن التحدي والإعجاز وكل ما يتصل بهذا الباب، في كتابه « إعجاز القرآن الكريم » الذي قال فيه ابن العربي، لم يصنف كتاب مثله.

وتحدث القاضي عياض في كتابه « الشفاء » عن إعجاز القرآن الكريم ورجعه إلى وجوه إربعة : **أولها** : حسن تأليفه والتئام كلمه، وفصاحته، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة. **وثانيها** : صورة نَظْمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها. **وثالثها** : ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات. **ورابعها** : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة والشرائع الداثرة[1].

ومن العلماء مَنْ يذكر من وجوه الإعجاز : جدة القرآن على التلاوة، وجَمْعه لعلوم ومعارف لم يحط بها أحد من علماء الأمم، وما حواه من أخبار الأولى والآخرة، ومشاكلة بعض أجزائه بعضاً، وحسن ائتلاف أنواعها والتئام أقسامها وحسن التخلص من قصة إلى أخرى، والخروج من باب إلى غيره.. ومنهم مَنْ يرجع الإعجاز إلى خلو القرآن الكريم من التناقض واشتماله على المعاني الدقيقة.. ومنهم مَنْ يقول : إن وجه الإعجاز ما تضمَّنه القرآن من المزايا الظاهرة والبدائع الرائقة في الفواتح والمقاصد والخواتيم في كل سورة وفي مبادئ الآيات وفواصلها.

وقد عرض السيوطي في كتابه « الإتقان » لإعجاز القرآن الكريم، وذكر بعضاً من آراء العلماء فيه[2].

---

(١) ص ١٧ الشفاء طبعة ١٣١١ هـ.

(٢) ص ١١٨ جـ ٢ الاتقان طبعة القاهرة ١٩٣٥، وما بعدها.

ورجع الإمام الرازي الإعجاز إلى : الفصاحة، وغرابة الأسلوب، والسلامة من جميع العيوب... ورجعه الإمام الزملكاني إلى تأليفه الخاص به.

وقال ابن حازم في « منهاج البلغاء » : وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمراراً لا يوجد له فترة، ولا يقدر عليه أحد من البشر.

وقال الإمام الخطابي : ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه إعجاز القرآن من جهة البلاغة، لكن صعب عليهم تفصيلها، وصغوا فيه إلى حكم التذوق. ثم قال : حتى لا نرى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا نرى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما معانيه فكل ذي لبّ يشهد له بالتقدم في أبوابه، والترقي إلى أعلى درجاته.

إلى ما سوى ذلك من الآراء في إعجاز القرآن الكريم، والتي تشعبت كلها، ثم تلاقت في موجة، في بحر لجي زاخر، هو دون القرآن الكريم في روعته وجلاله، ودون إعجازه العظيم في سره وسحره وعظمته، ولقد مضى القدماء في بحثهم عن الإعجاز، ثم لم يستطيعوا الوصول إلى غايات الإعجاز، وأعاد المحدثون الكلام فيه، وإن كانوا لم يرجعوا بطائل : فبعض جعل وجوه الإعجاز في ما يشتمل عليه القرآن من قوة روحية خارقة، ومن أحداث التاريخ المجهولة، ومن الأسلوب المنطقي والأسلوب العلمي. وآخرون يرددون الآراء القديمة : شارحين أو ناقدين.

وهذا كله على أي حال صورة من ثقافات العلماء، وعقلياتهم، وملكاتهم، ونزعاتهم في فهم أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه.

ونحن نعود بالقارئ إلى فطرته الأدبية وحدها، فنطالبها بالفهم والنقد والحكم في قضية الإعجاز.

فقد نزل على محمد صلوات الله عليه كتاب من عند الله، هو أعظم دستور عرف في شرائع الانسانية، وأروع كتاب أثر في تاريخ البلاغة الأدبية، ودعا العرب إلى الإيمان برسالته، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباح مساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً، ولو بسورة واحدة. وكلما ازداد تحدياً لهم ازدادوا عجزاً وخزياً، مع طول باعهم في فن البيان، ومع أنهم كانوا أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وبليغاً. ثم مضت الأجيال، والعلماء والأدباء والبلغاء والنقاد والمؤلفون في كل عصر يعترفون بإعجازه، ويقرُون بقصورهم عن بلوغ منزلته في البلاغة والفصاحة والبيان. ولا تزال الفطر الأدبية الخالصة تهتز اهتزاز الإعجاب والإكبار كلما سمعت آية من آياته، أو سورة من سوره. ولا تزال الموازنة بينه وبين ما سواه من الآثار الأدبية والدينية والعقلية مستحيلة ممتنعة، لبعد ما بينه وبين سواه من الآثار كبعد ما بين السماء والأرض. فهل ذلك إلا لأنه كتاب الله الحكيم، ومعجزة محمد الباهرة، والآية الناطقة على صدق رسالته ؟ وهل ذلك إلا مظهر لبلاغة القرآن الباهرة، ودليل على إعجازه وأنه من عند الله ؟

وبعد فاننا قبل أن نختم هذا البحث نقول : إن أظهر أسرار إعجاز القرآن الكريم تتجلى فيما يلي :

١ ـــ بلاغة القرآن النادرة، التي لا يحيط بها وصف، ولا يستطيع أن يكشف عن خصائصها باحث. ويكفيك أن علوم البلاغة والنقد والاعجاز قد وضعت للكشف عن مظاهر هذه البلاغة وأسرارها، ثم هي للآن وبعد مضي أكثر من عشرة قرون من الزمان، لا تزال في أول الغاية... على أن بلاغة القرآن أوسع مدى من البحث عن استعاراته وكناياته وتشبيهاته وأمثاله، وحكمته وإيجازه ومجازه، فهي تشمل كل خصائص الفن الأدبي والبياني في القرآن الكريم.

٢ ـــ روعة القرآن وجدته، وأخذه بالأفئدة والاسماع والمشاعر والعواطف والنفوس.

٣ ــ عظمة تصويره للحياة الإنسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها والنفس البشرية في سلمها وحربها، ولهوها وجدها، وأملها وألمها، وكفرها وأيمانها، وللمثل العليا في الحياة المهذبة الكريمة التي يعمل لها الانسان وتسير لشاطئها الأمين الانسانية.

٤ ــ سمو الروح في القرآن الكريم : فهو ليس كتاب قصص أو تسلية، أو أدب أو حكمة أو فلسفة أو تاريخ أو اجتماع. وإنما هو خلاصة لكل ما في الحياة من ثقافة وحقائق. ويزيد على ذلك بأنه منهج كامل للحياة الروحية والاجتماعية الكاملة الصحيحة السلمية، وما أجدرنا أن نقول : إنه كتاب الانسانية كافة.

٥ ــ جلال أثره الأدبي في لغة العرب وأدبهم. وفي حياتهم، وفي حياة المسلمين والعالم.

٦ ــ خلوده على مر الأيام والأمكنة والعصور، وعجز الناس عن معارضته مع أنه تحدَّى ولا يزال يتحدَّى الناس كافة، ومع ما يشتمل عليه تاريخ العالم من أفذاذ المفكرين والأدباء والبلغاء.

٧ ــ بساطة أسلوب القرآن الكريم ووضوحه وجماله وقوته وجزالته وعذوبته.

٨ ــ شرف معانيه، وسمو حكمه، وجلال دعوته، وصدق حجته وعمق منزعه، وعلو تصويره.

٩ ــ والدليل الأخير على الإعجاز هو عظمة أغراضه ومقاصده، ورفعة مراميه ومناحيه، وعبقرية غاياته ورسالته، وتوجيهه البشرية كافة إلى حياة جديدة فيها الأمل والسعادة، والأمن والسلام، والخير المطلق، والإخاء والحق والعدالة والحرية والمساواة بين الناس. وصدق الله العظيم حين يقول : ﴿ **تبارك الذي نزل الفرقان على عبده، ليكون للعالمين نذيرا** ﴾[1].

---

(١) سورة الفرقان الآية الأولى.

— ٦ —

أشهر مَنْ كتبوا في الإعجاز

ألف في إعجاز القرآن الكريم كثير من العلماء مؤلفات من أشهرها :

١ ـــ إعجاز القرآن لأبي عبيدة م ٢٠٨ هـ.

٢ ـــ وألف الجاحظ م ٢٥٥ هـ كتاب نظم القرآن، وهو أول كتاب ألف في هذا الباب كما يقول الرافعي، وقد غضّ منه الباقلاني بأنه لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى[١]. قال الرافعي : وقد ذهب عن الباقلاني أن ما دعا الجاحظ إلى وضع كتابه في أوائل القرن الثالث غير الذي دعاه هو إلى التصنيف في أواخر القرن الرابع[٢].

٣ ـــ إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي م ٣٠٦ هـ وهو كتاب شرحه عبد القاهر الجرجاني م ٤٧١ هـ شرحاً كبيراً سماه المعتضد وشرحاً آخر أصغر منه.

٤ ـــ نظم القرآن لابن الإخشيد[٣] وكذلك لابن أبي داود م ٣١٦ هـ[٤].

٥ ـــ وألف أبو عيسى الرماني م ٣٨٣ هـ كتاب إعجاز القرآن.

٦ ـــ وكذلك الإمام الخطابي م ٣٨٨ هـ.

٧ ـــ وكذلك أبو بكر الباقلاني م ٤٠٣ هـ مؤلف كتاب إعجاز القرآن الذي ننشره اليوم.

---

(١) أي الإبانة عن وجه للمعجزة ـــ مقدمة الإعجاز للباقلاني.

(٢) ١٩٧ الرافعي.

(٣) ٥٧ و ٥٨ فهرست ابن النديم.

(٤) ٣٢٤ المرجع.

وكان الباعث للكثير منهم على ذلك هو الرد على بعض المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن إعجاز القرآن سببه الصرفة. ومذهب الصرفة ينسب إلى النظام المعتزلي، وقد جرى الكلام به على ألسنة قوم قبله من أشهرهم عيسى بن صبيح المزدار المعتزلي البغدادي، وكان الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين يقول قولاً قريباً من ذلك. وممن ذهب هذا المذهب أيضاً ابن سنان الخفاجي م ٤٦٦ هـ صاحب كتاب « سر الفصاحة ».

* * *

ثم ألف في الإعجاز بعد الباقلاني :

١ ــ عبد القاهر الجرجاني م ٤٧١ هـ صاحب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

٢ ــ فخر الدين الرازي م ٦٠٦ هـ.

٣ ــ ابن أبي الأصبع م ٦٥٤ هـ.

٤ ــ الزملكاني م ٧٢٧ هـ.

٥ ــ إعجاز القرآن للرافعي المتوفي عام ١٩٣٧ م.

ــ ٧ ــ
قضية الإعجاز القرآني في رأينا

وصف الله عز وجل الذكر الحكيم في كتابه الكريم فقال : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً** ﴾[١]. البرهان دلائل صدق الرسول من المعجزات النيرات والنور المبين هو القرآن المعجز

---

(١) سورة النساء آية ١٧٤.

الهادي إلى سواء السبيل، وهو أظهر معجزات محمد صلوات الله عليه وأوضح البراهين على صدق رسالته.

وليس هناك أجمع ولا أشمل في وصف كتاب الله من حديث رسول الله ﷺ : « إن الله أنزل هذا القرآن آمراً وزاجراً، وسنة خالية، ومثلاً مضروباً، ففيه نبؤكم وخبر ما كان قبلكم، ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم، لا يخلقه طول الرد، ولا تنقضي عجائبه. هو الحق ليس بالهزل، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فلج، ومن قسم به أقسط، ومن عمل به أجر، ومن تمسك به هُدي إلى صراط مستقيم، ومن عمل الهدى من غيره أضله الله، ومن حكم بغيره قصمه الله، هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا عوج فيقوّم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد » وصدق رسول الله ﷺ، صدق في كل ما جاء به وفيما وصف به كتاب الله الحكيم. فليس هناك كتاب تفخر به الحياة، وتعتزُّ به الإنسانية، وتهتدي بهداه الدول والشعوب والجماعات والأفراد، غير كتاب الله الحكيم.

ولقد نزل القرآن المبين، والكتاب المحكم العظيم، على الرسول الأكرم محمد بن عبدالله ﷺ، فبهر العرب بلاغته، وأعجزتهم فصاحته وحكمته، ورأوا النور مشرقاً وضاء، وسمعوا السحر يهز القلوب ويملأ الصدور، وعجبوا أيما عجب لأسلوبه الفذ الفريد، أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة والقوة والعذوبة، وتدفق البلاغة وحرارةَ الإيمان، وكأنه السحر الساحر والنور المبين. أسلوب لا هو سجع ولا هو مزاوجة ولا هو نثر مرسل، وليس من أساليب الكهانة ولا الخطابة، ليس رجزاً، ولا قصيداً، ولا وصفاً، ولا غزلاً، ولا مدحاً، ولا فخراً، ولا رثاءً. أسلوب صيغ من حكمة ومزج بالهداية. وأداء خارج عن المعهود من نظام كلام العرب، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، فليس لهم كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع، والمعاني

المطبقة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر، إنما تنسب إلى حكيمهم كلمات موروودة وألفاظ محدودة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها أحياناً الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف والتجوز والتعسف، على حين جاء القرآن على كثرته وطوله متناسباً في الفصاحة، على ما وصفه الله تعالى به فقال : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾[1] وقال جلت حكمته : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾[2].

وماذا يقول القائلون في كتاب الله الذي تجد فيه الحكمة وفصل الخطب مجلوة عليك في منظر بهيج، ومعرض رشيق، ونظم غير متعاص على الأسماع، ولا ملتوٍ على الأفهام، ولا مستكره من اللفظ، يمر كما يمر السهم، ويضيء كما يضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، طموح العباب، جموح على المطرق المنتاب، كالروح في البدن، والنور المسيطر في الأفق والغيث الشامل والضياء الباهر، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وصدق الله العظيم : ﴿ **تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾[3].

نزل القرآن دليلاً على صدق رسالة محمد صلوات الله عليه، وصفحاته جامعة لأصول رسالته ودعوته، ومع ذلك فقد كذب المشركون وكفروا وجحدوا. وحين تحداهم الله بآياته البينات أخذوا يهذون ويستهزئون ويضحكون ويقولون ما لا يعلمون، ويهرفون بما لا يعرفون. ملكتهم الحيرة واستبدّ بهم العجب وأخذوا يفكرون ماذا يقولون. رُوي أن أبا جهل قال لملأ

---

(١) سورة الزمر آية ٢٣.
(٢) سورة النساء آية ٨٢.
(٣) سورة الفرقان آية ١.

من قريش : قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره ؟ فقال عتبة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى علي. فأتاه فأسمعه رسول الله أوائل سورة « فصلت » فلما بلغ قوله : ﴿ **إن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾[1]. أمسك عتبة على فيه وناشد الرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا قد صبأ. فانطلقوا إليه وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت. فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً، ثم قال : والله لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر. ولما بلغ ﴿ **صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾[2] أمسكت بفيه وناشدته بالرحم. وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

ويُروى أن الوليد بن المغيرة قال لبني صخر وقد سمع آيات من القرآن يتلوها الرسول الأعظم صلوات الله عليه : والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر. وبلغ قريشاً مقال الوليد فقالت : صبأ والله الوليد، والله لتصبأن قريش كلهم. فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه. فذهب إليه وقعد حزيناً لديه وكلمة بما أحماه. فغضب الوليد وخرج فأتى قريشاً في مجلسها فقال : تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يهذي ؟ وتقولون أنه كاهن، فهل رأيتموه قط يتكهَّن ؟ وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ وتزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك : اللهم لا، ثم قالوا : فما هو ؟ ففكَّر فقال : ما هو ألا ساحر. أما ما رأيتموه يفرق بين

---

(١) سورة فصلت آية ١٣.

(٢) سورة فصلت آية ١٣.

الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ وما الذي يقوله إلا سحر بأثره عن مسلمة وعن أهل بابل. فارتج النادي فرحاً وتفرقوا معجبين بقوله.

ويروى أنه لما اجتمعت قريش عند حضور الموسم قال لهم الوليد : إن وفود العرب ترد فأجمعوا في محمد رأياً لا يكذب بعضكم بعضاً. فقالوا : نقول كاهن. قال : والله ما هو بكاهن ولا هو بزمزمته ولا سجعه. قالوا : مجنون. قال : ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا بوسوسته. قالوا : شاعر. قال : ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضة ومبسوطه ومقبوضه.. ما هو بشعر. قالوا : فنقول : ساحر. قال : ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده. قالوا : فما نقول ؟ قال : ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق. وإن أقرب القول إنه ساحر، وإن القرآن سحر يفرق به بين المرء وابنه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجته، والمرء وعشيرته. فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون منه الناس، فأنزل الله تعالى فيه من سورة المدثر ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالاً ممدوداً * وبنين شهوداً * ومهدت له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً * سأرهقه صعوداً * إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر** ﴾[1] الآيات.

ومع هذا الإنكار والإصرار والجحود والبهتان، كانوا يذعنون لبلاغة القرآن ويعترفون بها ولا ينكرونها أو يجحدونها. سمع أعرابي رجلاً يقرأ : ﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾[2] فسجد وقال : سجدت لفصاحته. وسمع آخر رجلاً يقرأ ﴿ **فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا** ﴾[3]. فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

---

(١) سورة المدثر الآيات ١١ — ٢٦.

(٢) سورة الحجر آية ٩٤.

(٣) سورة يوسف آية ٨٠.

ويُروى عن الوليد بن المغيرة هذا أنه جاء إلى النبي فقرأ عليه شيئاً من القرآن فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوك إياه لئلا تأتي محمداً لتعرض لما قاله. قال الوليد : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً. فقال : قل فيه قولاً يبلغ أنك كاره له. قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلمُ بالشعر مني ولا بزجره ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله مـا يشبه الذي يقول شيئاً من هذا. والله إن لقوله الذي يقول لحلاوةً، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وإن ليحطم ما تحته. قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال : فدعني أفكر. ثم قال : هذا سحر يؤثر..

يقول السيوطي في الإتقان : كان العرب مرة بجهلهم يقولون أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً، مع علمهم أن صاحبهم أُميٌّ وليس بحضرته من يُملي أو يكتب في نحو ذلك من الأمور التي أوجبها الجهل والعناء والعجز.

ويُروى أن القصائد الجاهلية كانت معلقة على الكعبة، فأنزلتها العرب لفصاحة القرآن.

وفي حديث إسلام إبي ذر وصف أخاه أنيساً فقال : والله ما سمعت بأشعرَ من أخي أنيس، لقد ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية أنا أحدهم. وأنه ذهب إلى مكة وجاء لي بخبر النبي. قلت له : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ساحر كاهن، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على قصائد الشعر فلم يلتئم على لسان أحد يدَّعي أنه شاعر، إنه لصادق وإنهم لكاذبون.

وقد أسلم جماعة من العرب عند سماع آيات من القرآن كما وقع لجبير ابن مطعم. سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، قال جبير : فلما بلغ

هذه الآيات ﴿ **فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون * أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون * قل تربصوا فإني معكم من المتربصين * أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون * أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين * أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون * أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون** ﴾[1]. قال جبير : فكاد قلبي حينذاك أن يطير، وذلك أول ما وقر الإسلام قلبه.

وأخرج ابن هشام عن ابن شهاب الزهري أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكلٌّ لا يعلم بكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً. ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود. فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يُراد بها. قال الأخنس : وأنا والذي حلفت. قال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا،

(١) سورة الطور الآيات ٢٩ الى ٣٧.

وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبيّ يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به ولا نصدقه.. فقام عنه الأخنس وتركه.

جحود وإنكار، كفر وإصرار، فكان لا بد من أن يخذل الله قريشاً ويخزيهم ليؤمنوا صاغرين. حينئذ كان لا بد من إقامة البرهان على صدق رسالة نبيه، وحينئذ وقع التحدي بالقرآن هذا التحدي الذي دل على الإعجاز وأنه فوق قدرة البشر أن يأتوا بمثله.

تحدى الله ورسوله العرب بهذه المعجزة الخالدة والكتاب المبين، تحداهم أول الأمر أن يأتوا بمثله فقال تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عهدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾[2] وقال : ﴿ **قال لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾[3] ولم يفعلوا. فكيف عجزوا وتراجعوا حين تحداهم الله بآياته البينات وهم أمة مفطورة على البلاغة والأدب والشعر، وكانوا أكثر ما يكون خطيباً وأديباً ؟ كيف عجزوا أمام التحدي وباءوا بالخزي والهوان والذلة، وصغرت أنفسهم وأقدارهم فلم يستطيعوا محاكاة القرآن ومعارضته ؟

والأمر أغرب من ذلك فقد تحداهم الله عز وجل بعد ذلك أن يأتوا بعشر سور من أمثال سور القرآن الكريم فقال : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا مَن استطعتم من دون الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون** ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣.

(٢) سورة الطور الآيتان ٣٣ و ٣٤.

(٣) سورة الإسراء آية ٨٨.

(٤) سورة هود الآيتان ١٣ و ١٤.

وعجزت قريش وعجز العرب وعاد محمد يتحداهم بسورة مثل سور القرآن الكريم.. سورة واحدة يأتون بها تضارع في نظمها وبلاغتها وجودتها سورة من سور كتاب الله، فتلا عليهم قوله تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله** ﴾[1]. وقال : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾[2]... ومع ذلك التحدي لم يفعلوا، لم يجمعوا شعراءهم وخطباءهم وحكماءهم وكهانهم ورجازهم ليقبلوا التحدي.. لم يأت أحد منهم بما يقف أمام القرآن الكريم وسيلة الحذق لينفي عن نفسه وعن قومه عار الخذلان في معركة التحدي، بل في معركتهم مع محمد صلوات الله عليه، وسجلوا على أنفسهم العجز، بل لقد سجل القرآن الكريم ذلك على البشر عامة فقال : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾[3] فبيَّن أن البشر عامة بل الإنس والجن لا يستطيعون ولو عاوَنَ بعضهم بعضاً أن يقفوا أمام هذا التحدي، ولا يقدرون على مثل هذه البلاغة التي هي فوق طاقتهم لأنها بلاغة الخالق الأعظم، ففوق الإنس والجن، الملك القادر والمدبر الحكيم الله جل جلاله وعلت قدرته وعظمت حكمته..

ونفى الله عز وجل عن كتابه كل ما كان يصفه به المكذبون فقال : ﴿ **والنجم إذا هوى... إن هو إلا وحي يُوحى** ﴾[4] وقال : ﴿ **إنه لقول رسول كريم ◦ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ◦ ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ◦ تنزيل من رب العالمين◦ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ◦ لأخذنا منه باليمين ◦ ثم لقطعنا منه الوتين ◦ فما منكم من أحد عنه**

---

(١) سورة يونس آية ٣٨.

(٢) سورة البقرة آية ٢٣.

(٣) سورة الإسراء آية ٨٨.

(٤) سورة النجم الآيات من ١ إلى ٤.

حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وأنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين ﴾[1].

وهذا مسيلمة أخذ يهذي ويزعم أنه نزل عليه قرآن فبان ضعفه وصغاره وخزيُه وعاره، وظهرت عليه الذلة والمسكنة والهوان، وعرف الناس كذبه وبهتانه، وباء بغضب من الله. ويُروى أن أبا بكر سأل قوماً قدموا عليه من بني حنيفة عن كلام مسيلمة وما كان يدّعيه قرآناً، فقصوا عليه بعض كلامه، فقال أبو بكر : سبحان الله ويحكم أن هذا الكلام لم يخرج عن ربوبية فأين كان يذهب بكم ؟.

ويصف حسان بن ثابت شاعر الرسول في شعره نزول القرآن فيقول فيما يقول :

الله أكرمَنَــــا بنصر نبيـــــه	وبنـــا أقـــام دعائـــم الإسلامِ
يتتابنـــا جبريـــل في أبياتنـــــا	بفـــرائض الإسلام والأحكـــــامِ
يتلو علينا النـور فيهـا محكمـا	قسمـا لعمـــرك ليس كالأقسامِ
فنكـون أول مستحـــلٍّ حلالَـــهُ	ومحـــــــــرم لله كل حرامِ

ثم مضت الأيام ولم يُرو أن أديباً أو كاتباً أو شاعراً أو مفكراً أو حكيماً أو مصلحاً أو زعيماً أتى بكتاب قال إنه قد عارض به القرآن الكريم، بل لقد وقف المفكرون في مختلف العصور من كل جنس ولون وأمة حيال القرآن صاغرين عاجزين، إلا مَنْ أعماه الحقد والحسد والبغي وأضلته الشياطين والعصبية الحمقاء..

كتب المنصفون عن القرآن في كل عصر مبجلين مكرمين، وكتب المنصفون من المستشرقين عنه معظمين مكبرين. قال الدكتور موريس الفرنسي : إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الإلهية لبني البشر.. وقال

(١) سورة الحاقة الآيات من ٤٠ الى ٥١.

جوستاف لوبون : إن القرآن وما اشتق منه هو إلى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعوب.. وقال آخر : يحتوي القرآن على أسمى المبادئ وأكثرها فائدة وإخلاصاً. إلى غير ذلك مما قالوه في القرآن ومما لا يمكن استيعابه وحصره.

فالإعجاز القرآني إذاً حقيقة ثابتة ثبوت السماء لا ريب فيها، العرب في كل عصر، وغير العرب في كل جيل، لم يعارضوا القرآن الكريم. لم يقدروا على هذه المعارضة. لم يأتِ أحد منهم بشيء قليل أو كثير يقف في بلاغته أمام بلاغة القرآن الحكيم.

هذا في اللغة العربية. ولست أقصر أنا الإعجاز عليها وحدها فأقول : اقرأ إن شئت باللغة العربية بلاغات البلغاء وفصاحات الفصحاء، ثم انظر بسكون قلب وخفض جناح وفراغ لب وجمع عقل وإمعانه في ذلك، فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وكلام رب العالمين، وستعلم أن القرآن يخالف كلام الآدميين.

وأين مثل كلام مسيلمة من الكتاب المبين، ومن كلام رب العالمين ؟.. أين مثل قوله : « والمبديات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمنا، وما سبقكم أهل المدر ». ومثل قوله : « والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس ».

أين مثل هذا من آيات القرآن وفصاحته، ومن سحره وبلاغته، ومن عظمته وروعته، ومن سموِّه وحكمته ؟ أين هو من ذلك النظم العجيب، والسحر الغريب، والأسلوب القرآني المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ؟

ولا أجعل الموازنة قاصرة على الآداب العربية وعلى ما كتب بلغة العرب وحدها، ولكننا نقول :

إن في الأمم الكبيرة فلاسفة ومفكرين ومشرعين وأدباء وكتاباً وشعراء وخطباء، ولكل منهم كتب وآثار مدونة مطبوعة أو مخطوطة، وإني لأتساءل : هل هناك من هذه الآثار ما يعادل في أثره وخطره ومنزلته القرآن الكريم بما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة، وتحديد واضح للمثل الإنسانية العليا، ومن رسم لأهداف الأفراد والجماعات والشعوب، ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والمساواة والإخاء والمدنية والعلم ؟

وهل من بينها أثر قامت به شريعة ودين، ونشأت عليه دولة وحضارة استظل العالم بظلها أجيالاً طوالاً مثل القرآن الكريم ؟

وهل وجدتَ بربك للقرآن شبيهاً من الكتب وحَّد لغةً وحفظها وأذاعها في العالم، ورفع شأنها وهذب ألفاظها وأساليبها وأحيا فنوناً جديدة من الأدب وتأثر الناس ببلاغته، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والأدب والبلاغة، يقتبس الأدباء والعلماء والمفكرون منه ثروتهم الأدبية والفكرية ؟

هل تجد في أدب ما يسمونهم الأدباء العالميين ما تجد في القرآن الكريم من سموٍّ ورفعةٍ ونبل دعوة وجلال غاية، وعظمة هدف ورسالة، ومن دقة تحليل للعواطف والمشاعر والنفوس، ومن توجيهٍ رفيعٍ للإنسانية كافة ودعم قوي لمبادئ الحرية والمساواة في الحياة ؟..

كلا وربك.

بل إن خصائص هذا الفن الأدبي الرائع الكامل لن تجد ما يشبهها باللغات الأخرى في كتاب غير كتاب الله.. بل إن الكتب السماوية المقدسة : التوراة والإنجيل والزبور لا يمكن أن نوازن بينها وبين القرآن الكريم. فلو كانت قد نزلت معجزة للأنبياء الذين نزلت عليهم، لما جعل الله لهم معجزات أخرى تدل على صدق رسالتهم وترشد قومهم إلى أنهم مرسلون من الله.. وهي إنما نزلت للحكمة والهداية والنصح فلم تقم عليها أديان هؤلاء الأنبياء كاملة، ولم يقصد كذلك بها إعجازاً بيانياً خاصاً.

وهاك أروع ما في الكتب السماوية المقدسة بياناً وهو مزامير داود، خذ أية قطعة منها، وليكن المزمور الأول، واقرأه بنصه كما في الكتاب المقدس : « طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار، وفي طريق الخطاة لم يقف، وفي مجلس المستهزئين لم يجلس، ولكن في ناموس الرب ومشورته وفي ناموسه يلوح نهاراً وليلاً فيكون كشجرة مغروسة عند مجاري المياه والتي تعطي ثمرها في آونة، ورقها لا يذبل وكل ما يضعه ينجع ».. ونحن مع تقديرنا لهذا النص الديني ومع علمنا بأنه مترجم، نقول إنه ينحو بالسلوك الإنساني مسلك الخير، ولكنا نعود بك إلى ناحية أخرى في الموازنة وهي أنه شتان ما بين هذه الروح وروح القرآن الحكيم ؛ فمن المحال الموازنة بين ذلك وبين مثل قوله تعالى : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾[1]، أو مثل قوله تعالى : ﴿ **ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا** ﴾[2]، أو مثل قوله : ﴿ **قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾[3] إلى غير ذلك من روائع بلاغات القرآن الكريم.

إنك حين تحلل أثراً أدبياً أو فكرياً أو دينياً يجب أن تعرف خصائصه وقيمته وأثره، وما يوجه إليه من أهداف وغايات، وتضعه بعد الدراسة في منزلته الصحيحة من البيان والأدب والتفكير الإنساني، والقرآن كلما تناولناه بالدراسة كان جديداً بكراً يعطيك كل ما تطلبه منه من غذاء روحي وهداية دينية وحكمة إنسانية وتفكير إصلاحي جليل، مثمر كل الثمار الطيبة في الأرض والوجود والحياة.

وقد اختلف العلماء والباحثون والناقدون في سر إعجاز القرآن الكريم :

---

(١) سورة الأنعام الآيتان ١٦٢ و ١٦٣.

(٢) سورة الإسراء آية ٣٧.

(٣) سورة المؤمنون الآيتان ١ و ٢.

١ ــ فذهب النظّام إلى أن الإعجاز حقيقة واقعة، وأن الله جلّت قدرته هو الذي صرف العرب عن معارضته وسلبهم القدرة علىٰ مضاهاته.. ولو كان ذلك كذلك لم يكن هناك فائدة للتحدّي ولا معنى للإعجاز.

٢ ــ وقال آخرون : إن الإعجاز سببه ما اشتمل عليه القرآن من الأخبار بالمغيبات، من مثل قوله تعالى : ﴿ **لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين** ﴾[1]، وقوله : ﴿ **غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين** ﴾[2]، وقوله : ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾[3]، وقوله : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض** ﴾[4]، وقوله : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾[5] فكان جميع هذا كما ذكر القرآن الكريم..

ومن هذا أيضاً قوله تعالى : ﴿ **سيهزم الجمع ويُولُّون الدُّبُر** ﴾[6]، وقوله : ﴿ **قاتلوهم يعذِّبهم الله بأيديكم ويُخزهم وينصركم عليهم ويشفِ صدورَ قومٍ مؤمنين** ﴾[7]، وقوله تعالى : ﴿ **لن يضرُّوكم إلا أذىً وإن يقاتلوكم يولُّوكم الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾[8].

ومن ذلك أيضاً ما اشتمل عليه القرآن من كشف أسرار المنافقين واليهود وكذبهم ودسائسهم ومكرهم.. ومنه قوله تعالى : ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم** ﴾[9]، وقوله : ﴿ **إنا كفيناك المستهزئين** ﴾[10] ولما

(١) سورة الفتح آية ٢٧.
(٢) سورة الروم الآيتان ٢ و ٣.
(٣) سورة التوبة آية ٣٣؛ والفتح ٢٨؛ والصف ٩.
(٤) سورة النور آية ٥٥.
(٥) سورة النصر الآية الأولى.
(٦) سورة القمر آية ٤٥.
(٧) سورة التوبة آية ١٤.
(٨) سورة آل عمران آية ١١١.
(٩) سورة الانفال آية ٧.
(١٠) سورة الحجر آية ٩٥.

نزلت بشَّر النبي ﷺ بذلك أصحابه، وكان المستهزئون نفراً بمكة ينفرون الناس عنه ويؤذونه فهلكوا، وقوله تعالى : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾[1] فكان ذلك على كثرة مَنْ رام ضرَّه.

ومن الإخبار بالمغيبات في رأينا ما ذكره القرآن الكريم من الأمور الكونية والعلمية الدقيقة التي أدى إليها وإلى صدقها العلم الحديث، ومن مثل ذلك هذه الأمثلة :

(أ) قال تعالى : ﴿ **فلا أقسم بالشفق * والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق * لتركبن طبقاً عن طبق** ﴾[2] فهذا يشير إلى صعود الإنسان إلى الفضاء وركوبه طبقات الجو، وقد وقع ذلك أخيراً كما أخبر القرآن الكريم.

(ب) وقال تعالى : ﴿ **سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض** ﴾[3]. وقد أثبت العلم الحديث أن النبات فيه ذكر وأنثى، يتم بينهما التلاقح.

(جـ) وقال تعالى : ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدَّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾[4] وقد أثبت العلم الحديث أن الإحساس في منطقة الجلد، فإذا ذهب الجلد بعذاب النار في الآخرة أعاد الله إلى المعذَّبين جلودهم ليعودوا مرة أخرى إلى الإحساس بالعذاب.

وغير ذلك كثير من أشياء أمر الله بها أو نَهَى عنها، ثم جاء العلم الحديث فأثبت صدق القرآن وحكمته من ذلك.

٣ ــ ويَروي آخرون أن سبب إعجاز القرآن ما اشتمل عليه من قَصِّ تاريخ العالم والشعوب والأمم والأنبياء والمرسلين، والقرون السالفة والشرائع

---

(١) سورة المائدة آية ٦٧.

(٢) سورة الانشقاق الآيات ١٦ ــ ١٩.

(٣) سورة يس آية ٣٦.

(٤) سورة النساء آية ٥٦.

الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصَّةَ الواحدة إلا الفذُّ من أحبار أهل الكتاب وممن قطع عمره في علم ذلك. فأورد القرآن جميع هذه القصص والتواريخ كلا على وجهه، وأتى به على نصه، مما اعترف العلماء والباحثون بصدقه، ومما أيدته الكتب السماوية الأخرى وكذلك بحوث العلماء وكشوف الأثريين. فكيف وصل إلى محمد علم ذلك وهو الأميُّ البدوي الذي لم يتعلم في مدرسة ولم يختلف إلى أستاذ ولم يقرأ كتاباً ؟ وقد كان كثير من أهل الكتاب يسألونه عن أخبار النبيين والمرسلين فينزل عليه من الذكر الحكيم ما يتلو عليهم منه ذكراً، كقصة موسى والخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف وذي القرنين، ولقمان وابنه، ومثل حكم الرجم، وما حرم إسرائيل على نفسه، ومثل سؤالهم عن الروح وأشباه ذلك من الأنباء، وتدبير الكون وخلقه، وما في التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى مما صدقه فيه البحث والعلم.

٤ ــ ويذهب القاضي أبو بكر الباقلاني صاحب كتاب « إعجاز القرآن » إلى أن وجه الإعجاز ما في القرآن من النظم والتأليف مما هو خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، فهو يجعل سر الإعجاز فنّاً في البلاغة والبيان في القرآن الكريم.

وذهب الزركشي وبعض المؤلفين إلى أن كل ما ذكره العلماء من أسرار في ذلك هو وجوه للإعجاز وأسباب له.

وقد ألف في الإعجاز الكثيرون من مثل : أبي عبيدة، والجاحظ، والواسطي، والرمَّاني، والخطابي، والباقلاني، والرازي، وعبد القاهر، وابن أبي الأصبع، وسواهم. وألف فيه كذلك في العصر الحديث : مصطفى صادق الرافعي وغيره.

ولا شك أننا حين نريد أن نتعرف إلى أسرار الإعجاز، ينبغي ألا نغفل الجانب الأدبي في قضية الإعجاز، ولا الجانب العلمي الدقيق الذي ورد في

القرآن منذ أربعة عشر قرناً وأيده العلم الحديث في كل ما ذكره، ولا الجانب الفكري والإنساني الذي يرتفع بمنزلة القرآن الكريم على كل كتاب وكل أثر ولا الجانب الروحي الذي انفرد به القرآن في هداية الناس وإرشادهم وإنقاذهم من الحيرة والضلال.

ويجب أن نضيف إلى ذلك أن إعجاز القرآن في هذه الشريعة الكاملة التي نزل بها، والتي تصلح دائماً وأبداً في كل زمان ومكان، والتي وقف المفكرون والمشرِّعون والمصلحون حيال مبادئها السامية النبيلة موقف الإعجاب والتقدير..

إن إعجاز القرآن ببلاغته وروعته وجدَّته، وفي شرف معانيه ومقاصده ومراميه وأغراضه، وفي جلال دعوته وصدق شريعته وسموِّ حكمته، وفي عظمة تصويره للحياة الإنسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وفي سموِّ وجلال أثره وخلوده على مرِّ الأيام.

وإن إعجازه لهو كذلك سرٌّ من الأسرار التي استأثر الله عز وجل بعلمها ولم نعلم منه إلا القليل، وكلما مرَّت الأيام ابتدى لنا وجه جديد من وجوه الإعجاز وأسراره.

وإذا كان البحث في إعجاز القرآن قد أدى بالعلماء العرب قديماً إلى الكشف عن علمين جليلين، هما علم البلاغة العربية، وعلم النقد الأدبي.. فأولى بنا اليوم أن ننطلق في ميادين البحث عن الإعجاز من جديد، وأن يقودنا ذلك مرة أخرى إلى الكثير من الكشوف العلمية والأدبية.

ونرى أن توافر العلماء والمختصين على البحوث القرآنية كلٌّ في ناحية اختصاصه، قد يؤدِّي بنا إلى جديد من القول ومن أسرار الإعجاز.

وإذا كانت البلاغة العربية قد وقفت في أول طريق البحث عن الإعجاز.

ثم لم تمض بعد ذلك خطوة أخرى، فأولى بنا أن نسير في الطريق لنصل إلى غاياته البعيدة.

ومن الجلي في الأمر أن القرآن قد أيد مرورُ الأجيال إعجازه، وهو لا كتاب سماويّاً بعده، وسوف يستمر القرآن وتستمر قضية إعجازه ما بقيت الأرض والسماء..

ـ ٨ ـ
خلاصة لبحوث الكتاب

بدأ الباقلاني الكتاب بمقدمة تهدي إلى الكتاب وبحوثه، ثم تكلم على نبوة الرسول وأن معجزتها القرآن، ودلَّل على أن القرآن معجز، وأحصى جملة وجوه إعجازه وهي :

١ ـ الأخبار عن المغيبات.
٢ ـ ما فيه من أخبار الأمم القديمة مع أُمِّيَّةِ الرسول.
٣ ـ نظم القرآن، وقد شرح الباقلاني جمال نظم القرآن الكريم في عشرة وجوه، ثم تحدث عن نَفْي الشعر من القرآن الكريم وعن نفي السجع عنه أيضاً.

وذكر كيفية الوقوف على إعجاز القرآن. والعجز عن معارضة القرآن في كل عصر، والتحدي، وقدر المعجز من القرآن، وما يتعلق به الإعجاز... ووصف وجوه البلاغة وأنها عشرة أقسام :

الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان.

ويقول : ومن الناس مَنْ يريد أخذ إعجاز القرآن من وجوه البلاغة التي

ذكرنا أنها تسمَّى البديع، ومن الناس مَنْ زعم أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه العشرة التي ذكرناها هنا.

واعلم أن الذي بيناه قبل هذا، وذهبنا إليه، هو سديد. وهو أن الأمور تنقسم : فمنها ما يمكن الوقوع عليه، والتعمُّل له، ويُدرَك بالتعليم، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة الإعجاز به. وأما ما لا سبيل إليه بالتعليم والتعمُّل من البلاغات فذلك هو الذي يدل على إعجازه.

ويتكلم بعد ذلك الباقلاني في حقيقة المعجز، وفي أمور تتصل بالإعجاز، ويذكر لمحة في وصف القرآن.

وبذلك تنتهي بحوث الكتاب.

ـــ ٩ ـــ

دراسات للكتاب وآرائه في الإعجاز

١ ـــ قال المرحوم الرافعي في كتابه إعجاز القرآن[١] :

كتاب الباقلاني وان كان فيه الجيد الكثير ـــ وكان الرجل قد هذَّبه وصفاه وتصنع له ـــ إلا أنه لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره، ولم يتحاش وجهاً من التأليف لم يرضه من سواه، وخرج كتابه كما قال هو في كتاب الجاحظ : « لم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى ». فان مرجع الإعجاز فيه إلى الكلام وإلى شيء من المعارضة البيانية بين جنس وجنس من القول ونوع وآخر من فنونه، وقد حشر إليه أمثلة من كل قبيل من النظم والنثر ذهبت بأكثره، وغمرت جملته، وعدها في محاسنه وهي من عيوبه، وكان الباقلاني واسع الحيلة في العبارة مبسوط اللسان إلى مدى

(١) ١٩٨ و ١٩٩ إعجاز القرآن للرافعي.

بعيد. يذهب في ذلك مذهب الجاحظ وابن العميد على بصر وتمكُّن وحُسْن تصرُّف، فجاء كتابه كأنه في غير ما وُضع له لما فيه من الإغراق في الحشد، والمبالغة في الاستعانة، والاستراحة إلى النقل، اذ كان أكبر غرضه في هذا الكتاب أن « ينبه على الطريقة، ويدل على الوجه، ويهدي إلى الحجة » وهذه ثلاثة لو بسطت لها كل علوم البلاغة وفنون الأدب لوسعتها، وهي مع ذلك حشو ووصل.

على أن كتابه قد استبد بهذا الفرع من التصنيف في الإعجاز، واحتمل المؤونة فيه بجملتها من الكلام والعربية والنقد. ووفى بكثير مما قصد إليه من أمهات المسائل والأصول التي أوقع الكلام عليها، حتى عدوه الكتاب وحده، لا يشرك العلماء معه كتاباً آخر في خطره ومنزلته وبُعْد غوره وإحكام ترتيبه وقوة حجته وبسط عبارته وتوثيق سرده[1].

٢ — وتحدث عنه الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني فقال فيما قال[2] :

ولد بالبصرة، وسكن بغداد، وتوفي بها سنة ٤٠٣ هـ. وهو من كبار أهل السنَّة، ولم يصل إلينا من آثار أبي بكر الباقلاني إلا إعجاز القرآن.

والكتاب في نظرنا صورة للحياة الأدبية في أنفس الناقدين من رجال القرن الرابع الهجري، وليس حجة في تقدير القرآن الكريم !! وهناك جانب آخر، هو جمع المحاولات الأدبية التي حاولها خصوم القرآن، ففيها صورة من صور النقد، لها قيمة في أنفس من يعنون بتاريخ الآداب، فقد نقل الباقلاني أن بعض النقاد وازنوا بين القرآن وبعض الأشعار، وقد صنع الباقلاني ذلك، ففيه نقد لمعلقة امرئ القيس.

وهكذا يمضي الدكتور زكي مبارك في كلامه، مصيباً حيناً ومخطئاً أحياناً أخرى : فينقد رأي الباقلاني في جعله « الترادف » من ميزات اللغة

---

(١) ص ٢٠٠ المرجع نفسه.

(٢) ٦٥ — ٢/٨١ النثر الفني لزكي مبارك.

العربية على سواها من اللغات، مستدلاً برأي للمسيو مرسيه الفرنسي في ذلك، إذ طعن على اللغة العربية بأنها لغة مائعة لا تعرف تحديد الألفاظ ولا الصفات لما فيها من كثرة المترادفات.

وينقد رأيه أيضاً في أن الشعر لا يتأتى في اللغات الأخرى على ما قد اتفق في العربية، وكذلك لا يتأتَّى في اللغة الفارسية جميع الوجوه التي تتبين بها الفصاحة على ما يتأتى في العربية. يقول الدكتور : وهذه التهمة التي كان يوجهها القدماء إلى اللغات الأجنبية يوجهها الأجانب اليوم إلى اللغة العربية، على أن الباقلاني واعتزازه بالعربية قد سبقه الجاحظ إلى ذلك، ونحن اليوم نؤمن بأن اللغة العربية كسائر اللغات لا يتفق فيها الإعجاز لذاتها، وإنما يقع الإعجاز حيث تكون العبقرية في القلوب والعقول.

ويذكر الدكتور رأي الباقلاني من أن القرآن ليس من جنس كلام العرب، وينقده في ذلك.

ثم نقد مذهب من رأى أن البلاغة لا ترجع إلى المعاني بل إلى الألفاظ، ذاهباً إلى أنها ليست راجعة إلا إلى المعاني والأغراض، وأن الأسلوب ما هو إلا الصورة الظاهرة لعقل الكاتب وروحه وفكرته ومرماه، وقال : وأنا مع هذا كله من أعرف الناس بقدر الألفاظ والأساليب، فلست أنكر تفاوت الشعراء والكتاب والخطباء في الصياغة الفنية، ولكني أؤمن قبل كل شيء بالمعنى.

ونقد رأي الباقلاني في نَفْي السجع عن القرآن، فأما قولهم إن السجع ما كان يألفه الكهان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة، فهذا لعب، واختصاص السجع بالكهان حديث خرافة، فان السجع كان عند الجاهليين لوناً من الزخرف ولم يغلب على الكهان إلا لأنهم كانوا أكثر من غيرهم ثقافة وأدباً، إذ كانوا قادة الجماهير، والسجع في القرآن لا يمنع من إعجازه.. ويرى أيضاً أن نَفْي الشعر عن القرآن ليس معناه أن الشعر غير

صالح للإعجاز كما ذهب إليه الباقلاني، ولكن لأن الشعر على عهد النبوة لم يكن من تقاليده الاهتمام بالشئون الجدية وخاصة المسائل الروحية والدينية، وهو في أسلوبه أضيق من أن يتسع لشرح المشكلات الدينية والاجتماعية.. ويخطئ الباقلاني في نَفْيه السجع عن القرآن بحجة أن السجع يقع فيه المعنى تابعاً للفظ والقرآن بعكس هذا.

ولا داعي لنقد الدكتور في كثير من هذه الآراء. فان الرد عليها واضح معروف.

— ١٠ —
أثر الكتاب في النقد الأدبي

بلغ النقد الأدبي في القرن الرابع حداً كبيراً من النضوج والقوة، شأنه في ذلك شأن الأدب والبيان وسائر ألوان العلوم والثقافات، وذلك برغم ما كان يغشى الحياة الإسلامية إبان ذاك من ضعف سياسي بعيد الأثر في مستقبل العالم الإسلامي.

والنقد الأدبي بدأ بحوثه علماء اللغة والأدب. واتجه أولاً — في عهود كانت فيها الملكات العربية ما تزال على سلامتها وصحتها — إلى البحث عن الأسلوب وسلامته من الخطأ في اللغة أو الإعراب أو التصريف، للحفاظ على العربية وكتابها الحكيم ودفع عادية الفساد الذي نجم على يد المستعربين من الموالي، ثم على يد مَن اختلط بهم من العرب. ولما فرغ النقد من هذه البحوث عاد إلى بحث الأسلوب نفسه وما يتصل به مما يمسّ صميم البيان والأداء، تلافياً لأخطاء الملكات التي بدأ يدبُّ إليها العيُّ والقصور والعجز بسبب المستعربين والاختلاط بهم، وأخذ علماء الأدب والنقد : كابن سلام (م سنة ٢٣١ هـ.) والجاحظ (م سنة ٢٥٥ هـ.)، وابن

قتيبة (م سنة ٢٧٦ م سنة ٢٧٦ هـ.)، وأضرابهم كأبي عبيدة (م سنة ٢٠٨ هـ.)، وسواه، في عرض المشكلات الأدبية والتعليق عليها وإبداء آرائهم فيها.

ثم كان القرن الرابع فاتجه علماء الأدب في مشرقه إلى الكتابة في الأدب والنقد، ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان، ثم أفادوا من دراسات النقد فائدة جلّى انتقلت بهم إلى البحث في مظاهر البيان ومشكلات البلاغة، فاتجه تأليفهم في آخر هذا القرن إلى بحوث البيان نفسه.

هذا هو شأن النقد الأدبي في القرن الرابع. ولقد كان للباقلاني مذهب مستقل في النقد، يرجع إلى فَهْمِ الأثر الأدبي جملة، وتحليل خصائص الأدب والشاعرية فيه، والموازنة بينه وبين غيره من الآثار الأدبية، والكلام على منزلته في البلاغة والبيان، حين تكلم على إعجاز القرآن وانفراده وحده بسموٍّ المنزلة في البلاغة والإعجاز.

ولكتاب « إعجاز القرآن للباقلاني » أثر كبير في النقد الأدبي، ولا زال من مصادر كتب النقد الأولى رغم ما فيه من بحوث ودراسات عن البلاغة والإعجاز.

والباقلاني يسلك في النقد مذهباً جديداً، فيعمد إلى قصيدة متفق على كبر محلها وصحة نظمها وجودة بلاغتها ومعانيها، وإبداع صاحبها فيها، مع كونه من الموصوفين بالتقدم في الصناعة، والمعروفين بالحذق والبراعة فينقدها نقد المتذوق الخبير، العليم بمواقع الخلل والقصور في الكلام.

وقد سار على هذا النهج في نَقْد شعر امرئ القيس، وشعر الأعشى، وشعر أبي نواس ؛ وفي نقده لمعلقة امرئ القيس ولامية البحتري على الخصوص.

وهذا اتجاه جديدة في النقد انفرد به القاضي في هذا الكتاب.

محمد عبد المنعم خفاجي

كتاب إعجاز القرآن للباقلاني



مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنعم على عباده بما هداهم إليه من الإيمان. والمتمِّم إحسانه بما أقام لهم من جليِّ البرهان. الذي حَمَد نفسه بما أنزل من القرآن ليكون بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وهادياً إلى ما ارتضى لهم من دينه، وسلطاناً أوضح وجه تبيينه، ودليلاً على وحدانيته، ومرشداً إلى معرفة عزته وجبروته، ومفصحاً عن صفات جلاله، وعلوِّ شأنه، وعظيم سلطانه، وحجة لرسوله الذي أرسله به، وعلماً على صدقه، وبيِّنة على أنه أمينُهُ على وحيه، وصادِعٌ بأمره... فما أشرفه من كتاب يتضمن صدق متحمله، ورسالة تشتمل على تصحيح قول مؤديها. بيَّن فيه سبحانه أن حجته كافية هادية لا يحتاج مع وضوحها إلى بينة تَعْدوها، أو حجة تتلوها، وأن الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات، والتشكك في المشاهدات. ولذلك قال عزَّ ذكره : ﴿ **ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين** ﴾[1]. وقال عز وجل : ﴿ **ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت**[2] **أبصارنا بل نحن قوم مسحورون** ﴾[3]... فله الشكر على جزيل

---

(١) سورة الانعام آية ٧.

(٢) أي حبست عن النظر وحيرت، وقيل غطيت وعشيت. وقرأ الحسن مخففة وفسرها بسحرت.

(٣) سورة الحجر الآيتان ١٤ و ١٥.

إحسانه وعظيم مننه، والصلاة على سيدنا محمد المصطفى وآله وسلم.

ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كَشْفُهُ، وأولى ما يلزم بحثه ما كان لأصل دينهم قواماً، ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاماً، وعلى صدق نبيهم ﷺ برهاناً، ولمعجزته ثبتاً وحجة. لا سيما والجهل ممدود الرواق شديد النفاق مستَوْلٍ على الآفاق، والعلم إلى عفاء ودروس، وعلى خفاء وطموس وأهلهم في جفوة الزمن البهيم، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشتيم[1] حتى صار ما يكابدونه قاطعاً عن الواجب من سلوك مناهجه، والأخذ في سبيله. فالناس بين رجلين : ذاهب عن الحق، ذاهل عن الرشد، وآخر مصدود عن نصرته، مكدود في صنعته. فقد أدّى ذلك إلى خوض الملحدين في أصول الدين. وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين. قد قلَّ أنصاره، واشتغل عنه أعوانه، وأسلمه أهله، فصار عرضةً لمَنْ شاء أن يتعرض فيه، حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره، فمن قائلٍ قال : إنه سحر، وقائلٍ يقول : إنه شعر، وآخر يقول : إنه أساطير الأولين، وقالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا... إلى الوجوه التي حكى الله عز وجل عنهم أنهم قالوا فيه، وتكلموا به، فصرفوه إليه.

وذُكر لي عن بعض جهَّالهم أنه جعل يعدله ببعض الأشعار، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه، وليس هذا ببديع من ملحدة هذا العصر.. وقد سبقهم إلى عُظم ما يقولونه إخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم، إلا أن أكثر مَنْ كان طعن فيه في أول أمره استبان رشده، وأبصر قصده، فتاب وأناب، وعرف في نفسه الحق بغريزة طبعه، وقوة إتقانه لا لتصرُّف لسانه، بل لهداية ربه، وحُسْن توفيقه. والجهل في هذا الوقت أغلب، والملحدون فيه عن الرشد أبعد، وعن الواجب أذهب... وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن، وتكلم في فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام، أن يبسطوا

(١) الكريه المنظر.

القول في الإبانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه : من القول في الجزء[1]، ودقيق الكلام في الأعراض، وكثير من بديع الأعراب وغامض النحو. فالحاجة إلى هذا أمسُّ، والاشتغال به أوجب. وقد قصر بعضهم في هذه المسئلة، حتى أدَّى ذلك إلى تحوُّلِ قَوْمٍ منهم إلى مذاهب البراهمة فيها، ورأوا أن عَجْزَ أصحابهم عن نصرة هذه المعجزة يوجب أن لا يستنصر فيها، ولا وَجْهَ لها، حين رأوهم قد برعوا في لطيف ما أبدعوا، وانتهوا إلى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا، ثم رأوا ما صنفوه في هذا المعنى غير كامل في بابه، ولا مستَوْفى في وجهه، قد أخلَّ بتهذيب طرقه، وأهمل ترتيب بيانه، وقد يعذر بعضهم في تفريطٍ يقع منه فيه، وذهابٍ عنه، لأن هذا الباب مما يمكن إحكامه بعد التقدم في أمور شريفة المحل، عظيمة المقدار، دقيقة المسلك، لطيفة المأخذ.

وإذا انتهينا إلى تفصيل القول فيها، استبان ما قلناه من الحاجة إلى هذه المقدمات، حتى يمكن بعدها إحكام القول في هذا الشأن. وقد صنف الجاحظ في « نظم القرآن »[2] كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذاالمعنى[3].

وسألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة، تسقط الشبهات، وتزيل الشكوك التي تعرج للجهال، وتنتهي إلى ما يخطر لهم، ويعرض لأفهامهم، من الطعن في وجه المعجزة... فأجبناه إلى ذلك، متقربين إلى الله عز وجل، ومتوكلين عليه، وعلى حُسْن توفيقه ومعونته.. ونحن نبيِّن ما سبق فيه البيان من غيرنا ونشير إليه، ولا نبسط القول، لئلا يكون ما ألفناه مكرراً ومقولاً، بل يكون مستفاداً من جهة هذا الكتاب خاصة... ونضيف[4] ما يجب وصفه

---

(١) في الطبعة القديمة : في الخبر.

(٢) راجع كلام الرافعي عليه (١٩٧ إعجاز القرآن للرافعي).

(٣) وهو الكشف عن وجه إعجاز القرآن الكريم وسره.

(٤) في طبعة السلفية : « ونصف » بدلا من « ونضيف ».

من القول في تنزيل متصرفات الخطاب، وترتيب وجوه الكلام، وما تختلف فيه طرق البلاغة، وتتفاوت من جهته سبل البراعة، وما يشتبه له ظاهر الفصاحة، ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية، والمعرفة بلسان العرب في أصل الوضع. ثم ما اختلفت به مذاهب مستعمليه في فنون ما ينقسم إليه الكلام من شعر ورسائل وخطب، وغير ذلك من مجاري الخطاب، وإن كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول ما يبين فيه التفاصح، وتقصد فيه البلاغة، لأن هذه أمورٌ يتعمل لها في الأغلب، ولا يتجوَّز فيها. ثم من بعد هذا الكلام الدائر في محاوراتهم، والتفاوت فيه أكثر، لأن التعمل فيه أقل، إلا من غزارة طبعٍ، أو فطانة تصنُّعٍ وتكلُّفٍ.. ونشير إلى ما يجب في كل واحد من هذه الطرق، ليعرف عظم محلِّ القرآن، وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه، وتجاوزه الحدَّ الذي يصحُّ أو يجوز أن يوازن بينه وبينها، أو يشتبه ذلك على متأمِّل... ولسنا نزعم أنه يمكننا أن نبيِّن ما رُمْنا بيانه، وأردنا شَرْحه وتفصيله، لمَنْ كان عن معرفة الأدب ذاهباً، وعن وجه اللسان غافلاً، لأن ذلك مما لا سبيل إليه، إلا أن يكون الناظر فيما نعرض عليها مما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية، قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه، وعرف جملة من طرق المتكلمين، ونظر في شيء من أصول الدين. وإنما ضمن الله عز وجل فيه البيان لمثل مَنْ وصفناه، فقال : ﴿ **كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون** ﴾[1]، وقال : ﴿ **إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** ﴾[2].

---

(١) سورة فصلت آية ٣.

(٢) سورة الزخرف آية ٣. وقد ورد قوله عز وجل وبالمعنى نفسه في الآية الثانية من سورة يوسف : ﴿ **إنا أنزلناه قرآناً عربيًا لعلكم تعقلون** ﴾.

فصل
في أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن

الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن، أن نبوة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة، وان كان قد أيِّد بعد ذلك بمعجزات كثيرة. إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصَّة، وأحوال خاصَّة وعلى أشخاص خاصَّة، ونقل بعضها نقلاً متواتراً يقع به العلم وجوداً. وبعضها مما نقل نقلاً خاصّاً، إلا أنه حُكي بمشهد من الجمع العظيم أنهم شاهدوه، فلو كان الأمر على خلاف ما حكى لأنكروه، أو لأنكره بعضهم، فحلَّ محلَّ المعنى الأول وان لم يتواتر أصل النقل فيه. وبعضها مما نقل من جهة الآحاد، وكان وقوعه بين يدي الآحاد.

فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة، عمت الثقلين[1]، وبقيت بقاء العصرين[2]، ولزوم الحجة بها في أوَّل وقت ورودها إلى يوم القيامة على حدٍّ واحد، وإن كان قد يعلم بعَجْز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله وجه دلالته، فيغني ذلك عن نَظَرٍ مجدد في عَجْز أول العصر عن مثله، وكذلك

---

(١) الجن والانس.

(٢) الليل والنهار.

قد يغني عَجْزُ أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله عن النظر في حال أهل العصر الأوّل.. وإنما ذكرنا هذا الفصل لما حُكيَ عن بعضهم انه زعم أنه وان كان قد عجز عنه أهل العصر الأوّل، فليس أهل هذا العصر بعاجزين عنه. ويكفي عجز أهل العصر الأوّل في الدلالة لأنهم خصوا بالتحدي دون غيرهم. ونحن نبيِّن خطأ هذا القول في موضعه، فأما الذي يبيِّن ما ذكرناه من أن الله تعالى حين ابتعثه[1] جعل معجزته القرآن، وبنى أمر نبوته عليه، سور كثيرة، وآيات نذكر بعضها، وننبه بالمذكور على غيره، فليس يخفى بعد التنبيه على طريقه.

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **الر، كتاب أنزلناه إليك، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، باذن ربهم، إلى صراط العزيز الحميد** ﴾[2]، فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة، ولا تكون حجة إن لم تكن معجزة.. وقال عز وجل : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره، حتى يسمع كلام الله** ﴾[3]، فلولا ان سماعه إياه حجة عليه لم يوقف أمره على سماعه، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة، وقال عز وجل : ﴿ **وانه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين** ﴾[4]. وهذا بين جداً فيما قلناه، من أنه جعله سبباً لكونه منذراً، ثم أوضح ذلك بأن قال : ﴿ **بلسان عربي مبين** ﴾[5]، فلولا أن كونه بهذا اللسان حجة لم يعقب كلامه الأوّل به، وما من سورة افتتحت بذكر الحروف المقطعة[6] إلا وقد أشبع فيها بيان ما قلناه، ونحن نذكر بعضها

---

(١) ابتعثه : أي بعث الله الرسول صلوات الله عليه.

(٢) أول سورة إبراهيم عليه السلام.

(٣) سورة التوبة آية ٦.

(٤) سورة الشعراء الآيات ١٩٢ و ١٩٣ و ١٩٤.

(٥) سورة الشعراء آية ١٩٥.

(٦) مثل : طسم، والر، حمعسق، وكهيعص، وحم الخ.

لتستدل بذلك على ما بعده.. وكثير من هذه السور اذا تأملته، فهو من أوله إلى آخره مبنيٌّ على لزوم حجة القرآن، والتنبيه على وجه معجزته.

فمن ذلك سورة المؤمن[١]، قوله عز وجل : ﴿ **حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم** ﴾[٢] ثم وصف نفسه بما هو أهله من قوله : ﴿ **غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب** ﴾[٣]، ثم إلى أن قال : ﴿ **ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا** ﴾[٤]، فدل على أن الجدال في تنزيله كفر وإلحاد. ثم أخبر بما وقع من تكذيب الأمم برسلهم بقوله عز وجل : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم** ﴾ إلى آخر الآية[٥]، فتوعَّدهم بأنه آخذهم في الدنيا بذنبهم في تكذيب الأنبياء، ورد براهينهم، فقال : ﴿ **فأخذتهم فكيف كان عقاب** ﴾[٥]، ثم توعَّدهم بالنار فقال : ﴿ **وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار** ﴾[٦]. ثم عظَّم شأن المؤمنين بهذه الحجة بما أخبر من استغفار الملائكة لهم. وما وعدهم عليه من المغفرة فقال : ﴿ **الذين يحملون العرش ومَنْ حوله، يسبِّحون بحمدِ ربهم، ويؤمنون به ويستغفر للذين آمنوا. ربَّنا وَسِعْتَ كلَّ شيء رحمة وعلماً، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك، وقهم عذاب الجحيم** ﴾[٧]، فلولا انه برهان قاهر لم يذم الكفار على العدول عنه، ولم يحمد المؤمنين على المصير إليه، ثم ذكر تمام الآيات في دعاء الملائكة للمؤمنين.

---

(١) هي سورة غافر، أما سورة « المؤمنون » فهي « قد أفلح المؤمنون الخ » وسميت سورة غافر سورة المؤمن لقوله تعالى في هذه السورة : ﴿ **وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه** ﴾ الخ.

(٢) سورة غافر الآيتان ١ و ٢.

(٣) سورة غافر آية ٣.

(٤) سورة غافر آية ٤.

(٥) سورة غافر آية ٥.

(٦) سورة غافر آية ٦.

(٧) سورة غافر آية ٧.

ثم عطف على وعيد الكافرين، فذكر آيات، ثم قال: ﴿ **هو الذي يريكم آياته** ﴾[1]، فأمر بالنظر في آياته وبراهينه، إلى أن قال: ﴿ **رفيع الدرجات، ذو العرش، يُلْقي الروح من أمره على مَنْ يشاء من عباده، لينذر يَوْمَ التلاق** ﴾[2]، فجعل القرآن والوحي به كالروح، لأنه يؤدِّي إلى حياة الأبد، ولأنه لا فائدة للجسد بدون الروح، فجعل هذا الروح سبباً للإنذار، وعلماً عليه، وطريقاً إليه، ولولا أن ذلك برهان بنفسه لم يصحَّ أن يقع به الإنذار والأخبار عما يقع عند مخالفته. ولم يكن الخبر عن الواقع في الآخرة عند ردهم دلالته من الوعيد حجة، ولا معلوماً صدقه. فكان لا يلزم قبوله، فلما خلص من الآيات في ذكر الوعيد على تَرْك القبول ضرب لهم المثل بمَنْ خالف الآيات، وجَحَدَ الدلالات والمعجزات، فقال: ﴿ **أَوَلَمْ يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ إلى آخر الآية[3]، ثم بيَّن أن عاقبتهم صارت إلى السوآى، بأن رسلهم كانت تأتيهم بالبيِّنات، وكانوا لا يقبلونها[4] منهم، فعلم ان ما قدم ذكره في السورة بينه رسول الله ﷺ.

ثم ذكر قصة موسى[5] ويوسف[6] عليهما السلام، ومجيئهما بالبيِّنات، ومخالفتهم حكمها، إلى أن قال: ﴿ **الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كَبُرَ مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾[7]، فأخبر أن جدالهم في هذه الآيات لا يقع بحجة، وإنما يقع عن جَهْل، وان الله يطبع على قلوبهم، ويصرفهم عن تفهُّم

---

(١) سورة غافر آية ١٣.

(٢) سورة غافر آية ١٥.

(٣) من آية ٢١ سورة غافر.

(٤) وهذا هو مغزى آية ٢٢ من سورة غافر.

(٥) من آية ٢٣ الى آية ٥٤ من السورة نفسها.

(٦) في آية ٣٤ إشارة الى قصة يوسف لأخذ العبرة منها، وليست قصة يوسف مقصودة في هذه السورة.

(٧) آية ٣٥ من السورة.

وجه البرهان، لجحودهم وعنادهم واستكبارهم. ثم ذكر كثيراً من الاحتجاج على التوحيد[1]، ثم قال: ﴿ **ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنّى يُصرَفون** ﴾[2]. ثم بين هذه الجملة، وان من آياته الكتاب، فقال: ﴿ **الذين كذَّبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون** ﴾[3]. إلى أن قال: ﴿ **وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا باذن الله** ﴾[4]، فدل على أن الآيات على ضربين: أحدهما كالمعجزات التي هي أدلة في دار التكليف، والثاني الآيات التي ينقطع عندها العذر، ويقع عندها العلم الضروري، وإنها إذا جاءت ارتفع التكليف، ووجب الإهلاك، إلى أن قال: ﴿ **فلم يَكُ ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا** ﴾[5]، فأعلمنا أنه قادرٌ على هذه الآيات، ولكنه اذا أقامها زال التكلف، وحقت العقوبة على الجاحدين.

وكذلك ذكر في حم السجدة[6]، على هذا المنهاج الذي شرحنا، فقال عز وجل: ﴿ **حم تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآناً عربيّاً لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً** ﴾[7]، فلولا أنه جعله برهاناً لم يكن بشيراً ولا نذيراً، ولم يختلف بأن يكون عربيّاً مفصلاً أو بخلاف ذلك، ثم أخبر عن جحودهم وقلة قبولهم بقوله تعالى: ﴿ **فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون** ﴾[8]، ولولا أنه حجة لم يضرَّهم الإعراض عنه.. وليس لقائل أن يقول: قد يكون حجة ويحتاج في كونه حجةً إلى دلالةٍ أخرى، كما أن

---

(١) من آية ٥٧ الى آية ٦٨ من السورة نفسها.
(٢) آية ٦٩ من السورة.
(٣) آية ٧٠ من السورة.
(٤) من آية ٧٨ من السورة.
(٥) من آية ٨٥ سورة غافر.
(٦) يريد سورة: فصلت، لا سورة السجدة التي قبل الأحزاب.
(٧) آيات ١ و ٢ و ٣ وبعض آية ٤ سورة فصلت.
(٨) من آية ٤ سورة فصلت.

الرسول حجة ولكنه يحتاج إلى دلالةٍ على صدقه، وصحة نبوته، وذلك أنه إنما احتج عليهم بنفس هذا التنزيل، ولم يذكر حجة غيره. ويبيِّن ذلك أنه قال عقيب هذا : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يُوحى إلي** ﴾[1]، فأخبر أنه مثلهم لولا الوحي. ثم عطف عليه بحمد المؤمنين به المصدقين له، فقال : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** ﴾[2]، ومعناه الذين آمنوا بهذا الوحي والتنزيل، وعرفوا هذه الحجة، ثم تصرف في (هذا) الاحتجاج على الوحدانية والقدرة[3]، إلى أن قال : ﴿ **فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾[4]، فتوعَّدهم بما أصاب مَنْ قبلهم من المكذبين بآيات الله، من قوم عاد وثمود في الدنيا[5]. ثم توعَّدهم بأمر الآخرة، فقال : ﴿ **ويوم يُحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون** ﴾[6]، إلى انتهاء ما ذكره فيه.. ثم رجع إلى ذكر القرآن فقال : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾[7]. ثم أثنى بعد ذلك على مَنْ تلقَّاه بالقبول، فقال : ﴿ **إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا** ﴾[8]. ثم قال : ﴿ **وإما ينزغنَّك من الشيطان نزْغٌ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم** ﴾[9]، وهذا ينبه على أن النبي ﷺ يعرف إعجاز القرآن، وأنه دلالة له على جهة الاستدلال، لأن الضروريات لا يقع

---

(١) من آية ٦ سورة فصلت.

(٢) آية ٨ فصلت ــ ممنون : مقطوع أو منقوص.

(٣) من الآية ٩ الى الآية ١٢ من سورة فصلت.

(٤) آية ١٣ سورة فصلت.

(٥) آية ١٤ ــ ١٨ سورة فصلت.

(٦) آية ١٩ سورة فصلت.

(٧) آية ٢٦ سورة فصلت.

(٨) آية ٣٠ سورة فصلت ــ وتتمة الآية ﴿ **وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون** ﴾

(٩) آية ٣٦ سورة فصلت.

فيها نزغ الشيطان، ونحن نبيِّن ما يتعلق بهذا الفصل في موضعه.

ثم قال : ﴿ **إن الذين يلحدون في آياتنا** ﴾[1]، إلى أن قال : ﴿ **إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾[2]. وهذا وإن كان متأوِّلاً على أنه لا يوجد فيه غير الحق مما يتضمَّنه من أقاصيص الأولين، وأخبار المرسلين، وكذلك لا يوجد خلف فيما يتضمَّنه من الأخبار عن الغيوب، وعن الحوادث التي أبنَّا أنها تقع في الثاني، فلا يخرج عن أن يكون متأوِّلاً على ما يقتضيه نظام الخطاب، من أنه لا يأتيه ما يبطله من شبهة سابقة تقدح في معجزته، أو تعارضه في طريقه، وكذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك في وجه دلالته، وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه.

ثم قال : ﴿ **ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي** ﴾[3]، فأخبر انه لو كان أعجمياً لكانوا يحتجون في رده : إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم، وكانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه، وبأنهم لا يبين لهم وجه الإعجاز فيه، لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم، أو بغير ذلك من الأمور، وانه إذا تحداهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم به، على ما نبينه في وجه هذا الفصل، إلى أن قال : ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد** ﴾[4].

والذي ذكرنا من نظم هاتين السورتين ينبِّه على غيرهما من السور، فكرهنا سَرْدَ القول فيها، فليتأمل المتأمل ما دللناه عليه يجده كذلك... ثم

---

(١) من آية ٤٠ سورة فصلت.

(٢) آية ٤١ و ٤٢ سورة فصلت.

(٣) من آية ٤٤ سورة فصلت.

(٤) آية ٥٢ سورة فصلت.

مما يدل على هذا قوله عز وجل : ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم** ﴾[1]، فأخبر أن الكتاب آية من آياته، وعلم من أعلامه، وأن ذلك يكفي في الدلالة، ويقوم مقام معجزات غيره، وآيات سواه من الأنبياء صلوات الله عليهم، ويدل عليه قوله عز وجل : ﴿ **تبارك الذي نزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً** ﴾[2] وقوله : ﴿ **أم يقولون افترى على الله كذباً فان يشأ الله يختم على قلبك، ويمحو الله الباطل، ويحق الحق بكلماته** ﴾[3]، فدل على انه جعل قلبه مستودعاً لوحيه، ومستنزلاً لكتابه، وانه لو شاء صرف ذلك إلى غيره، وكان له حكم دلالته على تحقيق الحق وإبطال الباطل مع صرفه عنه.. ولذلك أشباه كثيرة، تدل على نحو الدلالة التي وصفناها.

* * *

فبان بهذا وبنظائره ما قلناه من أن بناء نبوته ﷺ على دلالة القرآن ومعجزته، وصار له من الحكم في دلالته على نفسه وصدقه أنه يمكن أن يعلم أنه كلام الله تعالى ؛ فارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء، لأنها لا تدل على أنفسها إلا بأمر زائد، ووصف مضاف إليها، لأن نظمها ليس معجزاً، وإن كان ما يتضمنه من الأخبار عن الغيوب معجزاً، وليس كذلك القرآن، لأنه يشاركها في هذه الدلالة، ويزيد عليها في أن نظمه معجز، فيمكن أن يستدل به عليه، وحلّ في هذا من وجه محل سماع الكلام من القديم سبحانه وتعالى، لأن موسى عليه السلام لما سمع كلامه علم أنه في الحقيقة كلامه، وكذلك مَنْ يسمع القرآن يعلم أنه كلام الله. وإن اختلف الحال في ذلك من بعض الوجوه، لأن موسى عليه السلام

(١) آية ٥٠ و ٥١ العنكبوت، وفي الأصل : آية، وهو خطأ.
(٢) آية ١ من سورة الفرقان.
(٣) من آية ٢٤ سورة الشورى.

سمعه من الله عز وجل، وأسمعه نفسه متكلماً، وليس كذلك الواحد منا، وكذلك قد يختلفان في غير هذا الوجه، وليس ذلك قصدنا بالكلام في هذا الفصل، والذي نرومه الآن ما بيَّنا من اتفاقهما في المعنى الذي وصَفْنا، وهو أنه عليه السلام يعلم أن ما يسمعه كلام الله من جهة الاستدلال، وكذلك نحن نعلم ما نقرؤه من هذا على جهة الاستدلال.

فصل
في الدلالة على أن القرآن معجزة[1]

قد ثبت بما بينا في الفصل الأوّل أن نبوة نبينا ﷺ مبنية على دلالة معجزة القرآن، فيجب أن نبين وجه الدلالة من ذلك.

وقد ذكر العلماء أن الأَصل في هذا هو أن تعلم أن القرآن الذي هو متلوٌّ محفوظ مرسوم في المصاحف هو الذي جاء به النبي ﷺ، وأنه هو الذي تلاه على مَنْ في عصره ثلاثاً وعشرين سنة، والطريق إلى معرفة ذلك هو النقل المتواتر الذي يقع عنده العلم الضروري به، وذلك أنه قام به في المواقف، وكتب به إلى البلاد، وتحمله عنه إليها مَنْ تابعه، وأورده على غيره مَنْ لم يتابعه، حتى ظهر فيهم الظهور الذي لا يشتبه على أحد، ولا يحتمل[2] أنه قد خرج مَنْ أتى بقرآن يتلوه، ويأخذه على غيره ويأخذ غيره على الناس، حتى انتشر ذلك في أرض العرب كلها، وتعدَّى إلى الملوك المصاقبة لهم، كملك الروم والعجم والقبط والحبش وغيرهم من ملوك الأطراف.. ولما ورد ذلك مضادّاً لأديان أهل ذلك العصر كلهم، ومخالفاً لوجوه اعتقاداتهم المختلفة في الكفر، وقف جميع أهل الخلاف على

(١) رواية الطبعة الثانية : معجز.

(٢) رواية الطبعة الثانية : يحيل.

جملته، ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالإيمان على جملته وتفاصيله، وتظاهر بينهم حتى حفظه الرجال، وتنقلت به الرحال، وتعلمه الكبير والصغير، إذ كان عمدة دينهم، وعلماً عليه، والمفروض تلاوته في صلواتهم، والواجب استعماله في أحكامهم، ثم تناقله خَلَفٌ عن سَلَف، ثم مثلهم، في كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله، حتى انتهى إلينا ما وصفنا من حاله.

فلن يتشكك أحد، ولا يجوز أن يتشكك مع وجود هذه الأسباب، في أنه أتى بهذا القرآن من عند الله، فهذا أصل.

وإذا ثبت هذا الأصل وجوداً فإنّا نقول : إنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله، وقرعهم[1] على ترك الإتيان به طول السنين التي وصفناها، فلم يأتوا بذلك.

والذي يدل على هذا الأصل أنّا قد علمنا أن ذلك مذكور في القرآن، في المواضع الكثيرة، كقوله : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾[2] ؛ وكقوله : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون** ﴾[3]... فجعل عجزهم عن الاتيان بمثله دليلاً على أنه منه، ودليلاً على وحدانيته، وذلك يدلُّ عندنا على بطلان قَوْلِ مَنْ زعم أنه لا يمكن أن يعلم بالقرآن الوحدانية، وزعم أن ذلك مما لا سبيل إليه إلا من

(١) التقريع : التوبيخ والتعنيف.

(٢) آية ٢٣ و ٢٤ من سورة البقرة. ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ [آية ٣٨ ــ يونس] ... ومثل هذا الآيتان ٣٣ و ٣٤ من سورة الطور.

(٣) آية ١٣ و ١٤ من سورة هود.

جهة العقل، لأن القرآن كلام الله عز وجل، ولا يصحُّ أن يعلم الكلام حتى يعلم المتكلم أولاً، فقلنا إذا ثبت بما نبينه إعجازه، وأن الخلق لا يقدرون عليه، ثبت أن الذي أتى به غيرهم، وأنه صدق، وإذا كان كذلك كان ما يتضمَّنه صدقاً، وليس إذا أمكن معرفته من جهة العقل امتنع أن يعرف من الوجهين.. وليس الغرض تحقيق القول في هذا الفصل، لأنه خارج عن مقصود كلامنا، ولكنا ذكرناه من جهة دلالة الآية عليه.

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾[1]، وقوله : ﴿ **أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾[2].

فقد ثبت بما بيّناه أنه تحدَّاهم إليه، ولم يأتوا بمثله. وفي هذا أمران : أحدهما التحدِّي إليه، والآخر أنهم لم يأتوا له بمثل، والذي يدلُّ على ذلك النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري... فلا يمكن جحود واحدٍ من هذين الأمرين.

وإن قال قائل : لعله لم يقرأ عليهم الآيات التي فيها ذكر التحدِّي، وإنما قرأ عليهم ما سوى ذلك من القرآن، كان كذلك قولاً باطلاً، يعلم بطلانه، مثل ما يعلم به بطلان قَوْلِ مِنْ زعم أن القرآن أضعافُ هذا وهو يبلغ حمل جَمَلٍ وأنه كتم وسيظهره المهدي، أو يدَّعي أن هذا القرآن ليس هو الذي جاء به النبي ﷺ، وانما هو شيء وضعه عمر أو عثمان رضي الله عنهما حيث وضع المصحف، أو يدَّعي فيه زيادة أو نقصاناً، وقد ضمن الله حفظ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه[3]، ووعده الحق.

---

(١) آية ٨٨ سورة الاسراء.

(٢) آية ٣٣ و ٣٤ سورة الطور.

(٣) فقال تعالى : ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ [آية ٤٢ سورة فصلت].

وحكاية قول مَنْ قال ذلك يُغني عن الرد عليه. لأن العدد الذين أخذوا القرآن في الأمصار وفي البوادي وفي الأسفار والحضر، وضبطوه حفظاً من بين صغير وكبير، وعرفوه حتى صار لا يشتبه على أحد منهم حرف، لا يجوز عليهم السهو والنسيان، ولا التخليط فيه والكتمان، ولو زادوا ونقصوا أو غيَّروا لظهر... وقد علمت ان شعر امرئ القيس وغيره لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن، ولا أن يحفظ كحفظه، ولا أن يُضبط كضبطه، ولا أن تمس الحاجة إليه مساسَها إلى القرآن، لو زيد فيه[1] بيت أو نقص منه بيت، لا بل لو غُيِّرَ فيه لفظ، لتبرأ منه أصحابه، وأنكره أربابه، فإذا كان ذلك مما لا يمكن في شعر امرئ القيس ونظرائه مع أن الحاجة إليه تقع لحفظ العربية، فكيف يجوز أو يمكن ما ذكروه في القرآن مع شدة الحاجة إليه في أصل الدين، ثم في الأحكام والشرائع، واشتمال الهمم المختلفة على ضبطه، فمنهم مَنْ يضبطه لإحكام قراءته ومعرفة وجوهها وصحة أدائها، ومنهم مَنْ يحفظه للشرائع والفقه، ومنهم مَنْ يضبطه ليعرف تفسيره ومعانيه، ومنهم مَنْ يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة، ومن الملحدين مَنْ يحصله لينظر في عجيب شأنه.

وكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة، والآراء المتباينة، على كثرة أعدادهم، واختلاف بلادهم، وتفاوت أغراضهم، أن يجتمعوا على التغيير والتبديل والكتمان ؟.. ويبيِّن ذلك أنك إذا تأملت ما ذُكر في أكثر السور، مما بيَّنا ومن نظائره، في رَدّ قومه عليه[2] وردٍّ غيرهم، وقولهم : ﴿ **لو نشاء لقلنا مثل هذا** ﴾[3]، وقول بعضهم : ﴿ **إن هذا الا اختلاق** ﴾[4]. إلى الوجوه التي يصرف إليها قولهم في الطعن عليه : فمنهم مَنْ يستهين بها ويجعل ذلك سبباً لتركه الإتيان بمثله، ومنهم مَنْ يزعم أنه مفترى فلذلك لا

(١) أي في شعر امرئ القيس أو غيره.
(٢) أي قوم الرسول الأعظم صلوات الله عليه.
(٣) من آية ٣١ من سورة الأنفال.
(٤) من آية ٧ من سورة ص.

يأتي بمثله، ومنهم مَنْ يزعم أنه دارس وأنه أساطير الأولين... وكرهنا أن نذكر كل آية تدل على تحدّيه، لئلا يقع التطويل، ولو جاز أن يكون بعضه مكتوماً جاز على كله، ولو جاز أن يكون موضوعاً جاز ذلك في كله.. فثبت بما بيناه أنه تحدَّى إليه.. وأنهم لم يأتوا له بمثل، وفي هذا الفصل[1] قد بيَّنا أن الجميع قد ذكروه وبنوا عليه، فإذا ثبت هذا وجب أن يعلم بعده أن تركهم للإتيان بمثله كان لعجزهم عنه.

* * *

والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن أنه تحداهم إليه حتى طال التحدِّي، وجعله دلالةً على صدقه ونبوته، وتضمَّن أحكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسبي ذريتهم.. فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه، بأمر قريب هو عادتهم في لسانهم، ومألوف من خطابهم، وكان ذلك يغنيهم عن تكلُّف القتال، وإكثار المراء والجدال، وعن الجلاء عن الأوطان، وعن تسليم الأهل والذرية للسبي.. فلما لم يحصل هناك معارضة منهم، علم أنهم عاجزون عنها.. يبين ذلك أن العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما قدر عليه من المكايد، لا سيما مع استعظامه ما أبدعه بالمجيء[2] من خَلْع آلهته، وتسفيه رأيه في ديانته، وتضليل آبائه والتغريب عليه بما جاء به، واظهار أمر يوجب الانقياد لطاعته، والتصرف على حكم إرادته، والعدول عن إلفه وعادته، والانخراط في سلك الأتباع بعد ان كان متبوعاً، والتشييع بعد أن كان مشيعاً، وتحكيم الغير في ماله، وتسليطه إياه على جملة أحواله، والدخول تحت تكاليف شاقة، وعبادات متعبة، بقوله.

وقد علم أن بعض هذه الأحوال مما يدعو إلى سَلْب النفوس دونه.. هذا

---

(١) كلمة « في » ساقطة من الأصل.

(٢) المجيء : الاتيان، بفتح الميم، وأجاءه : جاء به، وأجاءه الى كذا : الجأه واضطره.

والحمية حميتهم، والهمم الكبيرة هممهم، وقد بذلوا له السيف وأخطروا بنفوسهم وأموالهم[1]، فكيف يجوز أن لا يتوصلوا إلى الردِّ عليه، والى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم، وما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيه جبين أو يشتغل به خاطر، وهو لسانهم الذي يتخاطبون به، مع بلوغهم في الفصاحة النهاية التي ليس وراءها مطلع، والرتبة التي ليس وراءها منزع[2]، ومعلوم أنهم لو عارضوه بما تحدَّاهم إليه لكان فيه توهين أمْره، وتكذيب قَوْله، وتفريق جَمْعه، وتشتيت أسبابه، وكان من صدق به يرجع على أعقابه، ويعود في مذهب أصحابه، فلما لم يفعلوا شيئاً من ذلك مع طول المدة، ووقوع الفسحة، وكان أمره يتزايد حالاً فحالاً، ويعلو شيئاً فشيئاً ؛ وهم على العجز عن القدح في آيته، والطعن في دلالته ؛ علم مما بيَّنا أنهم كانوا لا يقدرون على معارضته، ولا على توهين حجته. وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم قوم خصمون[3]، وقال : ﴿ **وتنذر به قوماً لُدّاً** ﴾[4]، وقال : ﴿ **خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين** ﴾[5].. وعلم أيضاً أن ما كانوا يقولونه من وجوه اعتراضهم على القرآن، مما حكى الله عز وجل عنهم، من قولهم : ﴿ **لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾[6]، وقولهم : ﴿ **ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين** ﴾[7]، وقالوا : ﴿ **يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون** ﴾[8]،

---

(١) أي جعلوها على هوة الخطر وهو الاشراف على الهلاك.

(٢) أي غاية.

(٣) أي شديدو الخصومة.

(٤) في الطبعة الأولى : لتنذر، وهو تحريف — ورجل ألد : من اللدد أي شديد الخصومة، وقوم لد. والآية من سورة مريم رقم ٩٧.

(٥) آية ٤ من سورة النحل.

(٦) من آية ٣١ من سورة الانفال.

(٧) من آية ٣٦ من سورة القصص.

(٨) من آية ٦ الحجر، وصدر الآية : « قالوا ».

وقالوا : ﴿ **أفتأتون السحر وأنتم تبصرون** ﴾[1]، وقالوا : ﴿ **أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون** ﴾[2]، ﴿ **وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه، وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاءوا ظلماً وزوراً، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا** ﴾[3]، ﴿ **وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً** ﴾[4]، وقوله : ﴿ **الذين جعلوا القرآن عضين** ﴾[5]، إلى آيات كثيرة في نحو هذا تدل على أنهم كانوا متحيرين في أمرهم، متعجبين من عجزهم، يفزعون إلى نحو هذه الأمور، من تعليل وتعذير، ومدافعة بما وقع التحدِّي إليه، وعرف الحثّ عليه، وقد علم منهم أنهم ناصبوه الحرب، وجاهروه ونابذوه، وقطعوا الأرحام، وأخطروا بأنفسهم، وطالبوه بالآيات والإتيان بغير ذلك من المعجزات، يريدون تعجيزه، ليظهروا عليه بوجه من الوجوه، فكيف يجوز أن يقدروا على معارضته القريبة السهلة عليهم، وذلك يدحض حجته، ويفسد دلالته، ويبطل أمره، فيعدلون عن ذلك إلى سائر ما صاروا إليه، من الأمور التي ليس عليها مزيد في المنابذة والمعاداة، ويتركون الأمر الخفيف ؟ هذا مما يمتنع وقوعه في العادات، ولا يجوز اتفاقه[6] من العقلاء.

وإلى هذا قد استقصى أهل العلم الكلام، وأكثروا في هذا المعنى وأحكموه. ويمكن أن يقال أنهم لو كانوا قادرين على معارضته، والإتيان بمثل ما أتى به، لم يَجُزْ أن يتفق منهم ترك المعارضة، وهم على ما هم عليه من الذرابة والسلامة والمعرفة بوجوه الفصاحة، وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته، وأنهم يضعفون عن مجاراته، ويكرر فيما جاء به

---

(١) من آية ٣ سورة الأنبياء.

(٢) من آية ٣٦ الصافات وصدر الآية : « ويقولون ».

(٣) آية ٤ و ٥ سورة الفرقان.

(٤) من آية ٨ سورة الفرقان.

(٥) آية ٩١ سورة الحجر، والعضة : الكذب والبهتان، وجمعه عضون.

(٦) في الأصل : إتقانه. وهو تحريف.

ذكر عجزهم عن مثل ما يأتي به ويقرعهم ويؤنبهم عليه، ويدرك آماله فيهم، وينجح ما يسعَى له بتركهم المعارضة، وهو يذكر فيما يتلوه تعظيم شأنه، وتفخيم أمره، حتى يتلو قوله تعالى : ﴿ **قل لَئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾[1]، وقوله : ﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره، على من يشاء من عباده، ان أنذروا أنه لا إله إلا أنا، فاتقون** ﴾[2]، وقوله : ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم** ﴾[3] وقوله : ﴿ **إنَّا نحن نزلنا الذكر وإنَّا له لحافظون** ﴾[4]، وقوله : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسئلون** ﴾[5]، وقوله : ﴿ **هدىً للمتقين** ﴾[6]، وقوله : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً، مثاني، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله** ﴾[7]، إلى غير ذلك من الآيات، التي تتضمن تعظيم شأن القرآن، فمنها ما يتكرر في السورة في مواضع منها، ومنها ما ينفرد فيها، وذلك مما يدعوهم إلى المباراة، ويحضُّهم على المعارضة، وإن لم يكن متحدِّياً إليه.

ألا ترى أنهم قد كان ينافر شعراؤهم بعضهم بعضاً، ولهم في ذلك مواقف معروفة، وأخبار مشهورة، وأيام منقولة، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة، ويتبجَّحون بذلك، ويتفاخرون بينهم، فلن يجوز والحالة هذه أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها، تحدّاهم إليها أو لم يتحدَّهم، ولو كان هذا القبيل مما يقدر عليه البشر لوجب في ذلك أمر

---

(١) آية ٨٨ سورة الإسراء.

(٢) آية ٢ سورة النحل.

(٣) آية ٨٧ سورة الحجر.

(٤) آية ٩ سورة الحجر.

(٥) آية ٤٤ سورة الزخرف.

(٦) من آية ٢ سورة البقرة.

(٧) من آية سورة الزمر.

آخر، وهو أنه لو كان مقدورا للعباد لكان قد اتفق الى وقت مبعثه من هذا القبيل ما كان يمكنهم أن يعارضوه به، وكانوا لا يفتقرون إلى تكلُّف وَضْعه، وتعمُّل نظمه في الحال. فلما لم نرهم احتجُّوا عليه بكلام سابق، وخطبة متقدمة، ورسالة سالفة، ونَظْم بديع، ولا عارضوه به، فقالوا هذا أفصح مما جئت به، وأغرب منه، أو هو مثله، علم أنه لم يكن إلى ذلك سبيل، وأنه لم يوجد له نظير، ولو كان وجد له مثل لكان ينقل إلينا، ولعرفناه، كما نقل إلينا أشعار أهل الجاهلية، وكلام الفصحاء والحكماء من العرب، وأدَّى إلينا كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد، وغير ذلك من أنواع بلاغاتهم، وصنوف فصاحاتهم.

فان قيل : الذي بني عليه الأمر في تثبيت معجزة القرآن أنه وقع التحدِّي إلى الإتيان بمثله، وأنهم عجزوا عنه بعد التحدِّي إليه، فاذا نظر الناظر، وعرف وجه النقل المتواتر في هذا الباب، وَجَبَ له العلم بأنهم كانوا عاجزين عنه، وما ذكرتم يوجب سقوط تأثير التحدِّي، وأنَّ ما أُتي به قد عرف العجز عنه بكل حال...

قيل : إنما احتيج إلى التحدي لإقامة الحجة، وإظهار وجه البرهان، لأن المعجزة إذا ظهرت فانما تكون حجَّة بأن يدَّعيها من ظهرت عليه، ولا تظهر على مدَّعٍ لها إلا وهي معلومة أنها من عند الله، فإذا كان يظهر وجه الإعجاز فيها للكافة بالتحدِّي وجب فيها التحدِّي، لأنه تزول بذلك الشبهة على الكل، وينكشف للجميع أن العجز واقعٌ عن المعارضة، وإلَّا فإن مُقتضى ما قدَّمناه من الفصل أن مَنْ كان يعرف وجوه الخطاب، ويتقن مصارف الكلام، وكان كاملاً في فصاحته، جامعاً للمعرفة بوجوه الصناعة، لو أنه احتجَّ عليه بالقرآن، وقيل له إن الدلالة على النبوة، والآية على الرسالة، ما أتلوه عليك منه، لكان ذلك بلاغاً في إيجاب الحجة، وتماماً في إلزامه فَرْضَ المصير إليه.

ومما يؤكد هذا أن النبي ﷺ قد دعا الآحاد إلى الإسلام، محتجّاً عليهم بالقرآن. لأنَّا نعلم أنه لم يلزمهم تصديقه تقليداً، ونعلم أن السابقين الأولين إلى الإسلام لم يقلِّدوه، وإنما دخلوا على بصيرة، ولم نعلمه قال لهم : ارجعوا إلى جميع الفصحاء، فإن عجزوا عن الإتيان بمثله فقد ثبتت حجتي، بل لمَّا رآهم يعلمون إعجازه ألزمهم حكمه فقبلوه، وتابعوا الحقّ وبادروا إليه مستسلمين، ولم يشكوا في صدقه، ولم يرتابوا في وجه دلالته، فمَنْ كانت بصيرته أقوى، ومعرفته أبلغ، كان إلى القبول منه أسبق، ومَن اشتبه عليه وجه الإعجاز، واشتبه عليه بعض شروط المعجزات، وأدلة النبوات، كان أبطأ إلى القبول، حتى تكاملت أسبابه، واجتمعت له بصيرته، وترادفت عليه مواده.

وهذا فصل يجب أن يتم القول فيه بعد، فليس هذا بموضع له... ويبيِّن ما قلناه إن هذه الآية علم، يلزم الكل قبوله، والانقياد له، وقد علمنا تفاوت الناس في إدراكه ومعرفة وجه دلالته، لأن الأعجمي لا يعلم أنه معجز إلَّا بأن يعلم عجز العرب عنه ؛ وهو يحتاج في معرفة ذلك إلى أمور لا يحتاج إليها مَنْ كان من أهل صنعة الفصاحة، فإذا عرف عَجْزَ أهل الصنعة حلَّ محلهم، وجرى مجراهم، في توجُّه الحجة عليه، وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن ما يعرفه العالي في هذه الصنعة، فربما حلّ في ذلك محلَّ الأعجمي، في أن لا تتوجه عليه الحجة حتى يعرف عجز المتناهي في الصنعة عنه. وكذلك لا يعرف المتناهي في معرفة الشعر وحده، أو الغاية في معرفة الخطب أو الرسائل وحدهما، غور هذا الشأن ما يعرف مَن استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب ووجوه الكلام، وطرق البراعة. فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحقُّقه بعجز البارع في هذه العلوم كلها عنه. فأما مَنْ كان متناهياً في معرفة وجوه الخطاب، وطرق البلاغة، والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة، فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه، وإن لم نقل ذلك أدى هذا

القول إلى أن يقال : إن النبي ﷺ لم يعرف إعجاز القرآن حين أوحى إليه حتى سبر الحال بعجز أهل اللسان عنه. وهذا خطأ من القول... فصح من هذا الوجه أن النبي ﷺ حين أوحى إليه القرآن عرف كونه معجزاً، وبأن قيل له إنه دلالة وعلم على نبوتك.. إنه كذلك من قبل أن يقرأه على غيره، أو يتحدَّى إليه سواه، ولذلك قلنا إن المتناهي في الفصاحة والعلم بالأساليب التي يقع فيها التفاصح، متى سمع عرف أنه معجز، لانه يعرف في حال نفسه انه لا يقدر عليه، ويعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه، فيعلم أن عَجْز غيره كعجزه هو، وان كان يحتاج بعد هذا إلى الاستدلال آخر على أنه علم على نبوة ودلالة على رسالة، بأن يقال له إن هذه آية لنبيه، وإنها[1] ظهرت عليه وادّعاها معجزة له وبرهاناً على صدقه.

فان قيل : فان من الفصحاء مَنْ يعلم عَجْز نفسه عن قول الشعر، ولا يعلم مع ذلك عَجْز غيره عنه، فكذلك البليغ، وإن علم عَجْز نفسه عن مثل القرآن فهو قد يخفى عليه عجز غيره...

قيل : هو مع مستقر العادة، وان عجز عن قول الشعر، وعلم أنه مفحم، فانه يعلم ان الناس لا ينفكون من وجود الشعراء فيهم، ومتى علم البليغ المتناهي في صنوف البلاغات عجزه عن القرآن علم عجز غيره. لانه كهو، لانه يعلم أن حاله وحال غيره في هذا الباب سواء، إذ ليس في العادة مثل للقرآن يجوز أن [2] يعلم قدره أحد من البلغاء عليه، فإذا لم يكن لذلك مثل في العادة، وعرف هذا الناظر جميع أساليب الكلام، وأنواع الخطاب، ووجد القرآن مبايناً لها، علم خروجه عن العادة، وجرى مُجرى ما يعلم أن إخراج اليد البيضاء من الجيب خارج عن العادات، فهو لا يجوِّزه من نفسه، وكذلك لا يجوز وقوعه من غيره إلا وجه نقض العادة، بل يرى وقوعه موقع المعجزة.

---

(١) في الأصل : وانما.

(٢) في الأصل : أو.

وهذا وان كان يفارق فلق البحر واخراج اليد البيضاء ونحو ذلك، من وجه، وهو أنه يستوي الناس في معرفة عجزهم عنه، فكونه ناقضاً للعادة من غير تأمُّلٍ شديد ولا نظرٍ بعيد، فان النظر في معرفة إعجاز القرآن يحتاج الى تأمُّل، ويفتقر إلى مراعاة مقدمات، والكشف عن أمور، نحن ذاكروها بعد هذا الموضع. فكل واحد منها يؤول إلى مثل حكم صاحبه في الجمع الذي قدَّمنا.

ومما يبين (ذلك) ما قلناه، من أن البليغ المتناهي في وجوه الفصاحة يعرف إعجاز القرآن، وتكون معرفته حجة عليه إذا تحدَّى إليه وعجز عن مثله، وإن لم ينتظر وقوع التحدِّي في غيره.

وما الذي يصنع في ذلك الغير[1] وهو ما رُوي في الحديث أن جبير بن مطعم[2] ورد على النبي ﷺ في معنى[3] حليف له أراد أن يفاديه، فدخل والنبي ﷺ يقرأ سورة : ﴿ **والطور وكتاب مسطور** ﴾ في صلاة الفجر، قال : فلما انتهى إلى قوله : ﴿ **إن عذاب ربك لواقع، ما له من دافع** ﴾[4]، قال : خشيت أن يدركني العذاب. فأسلم.

وفي حديث آخر : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع سورة « طه » فأسلم.

وقد رُوي أن قوله عز وجل في أول « حم[5] السجدة » إلى قوله : ﴿ **فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون** ﴾[6]، نزلت في شيبة وعتبة ابني ربيعة، وأبي سفيان بن حرب، وأبي جهل. وذكر أنهم بعثوا هم وغيرهم من وجوه

---

(١) يبدو أن في هذه العبارة تحريفا.

(٢) صحابي جليل عاش بعد الرسول بكثير.

(٣) المعنى : الأسير.

(٤) آية ٧ و ٨ من سورة الطور.

(٥) هي سورة « فصلت ».

(٦) من آية ٤ من سورة « فصلت ».

قريش بعتبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ ليكلمه، وكان حسن الحديث، عجيب الشأن، بليغ الكلام، وأرادوا أن يأتيهم بما عنده، فقرأ النبي ﷺ سورة « حم السجدة » من أولها، حتى انتهى إلى قوله : ﴿ **فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** »[1]، فوثب مخافة العذاب[2]، فاستحكوه ما سمع، فذكر انه لم يسمع مثله[3] كلمة واحدة، ولا اهتدى لجوابه، ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد، فقال له عثمان بن مظعون : لتعلموا أنه من عند الله ؛ إذ لم يهتد لجوابه.

وأبين من ذلك قول الله عز وجل : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه** ﴾[4]، فجعل سماعه حجة عليه بنفسه فدلَّ على أن فيهم مَنْ يكون سماعه إيَّاه حجة عليه. فإن قيل : لو كان على ما قلتم لوجب أن يكون حال الفصحاء الذين كانوا في عصر النبي ﷺ على طريقة واحدة في إسلامهم عند سماعه... قيل : لا يجب ذلك، لأن صوارفهم كانت كثيرة ؛ منها أنهم كانوا يشكُّون : منهم مَنْ يشكّ في إثبات الصانع، وفيهم مَنْ يشكُّ في التوحيد، وفيهم مَنْ يشكُّ في النبوَّة ؛ ألا ترى أن أبا سفيان بن حرب لما جاء إلى رسول الله ﷺ، ليسلم، عام الفتح، قال له النبي عليه السلام : أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله، قال : بلى، فشهد، قال : أما آن لك أن تشهد أني رسول الله ؟ قال : أما هذه ففي النفس منها شيء، فكانت وجوه شكوكهم مختلفة، وطرق شبههم متباينة، فمنهم مَنْ قلَّت شبهه، وتأمل الحجة حقَّ تأمُّلها، ولم يستكبر، فأسلم، ومنهم مَنْ كثرت شبهه، وأعرض عن تأمُّل الحجة حقَّ

---

(١) آية ١٣ من سورة « فصلت ».

(٢) راجع قصة برواية اخرى في الكشاف للزمخشري ٣٨٧ جـ ٣.

(٣) في النسخ : منه.

(٤) من آية ٦ سورة التوبة.

تأمُّلها، أو لم يكن في البلاغة على حدود النهاية، فتطاول عليه الزمان إلى أن نظر واستبصر، وراعى واعتبر، واحتاج إلى أن يتأمل عَجْزَ غيره عن الإتيان بمثله، فلذلك وقف أمره، ولو كانوا في الفصاحة على مرتبة واحدة، وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقة، لتوافوا إلى القبول جملة واحدة.

* * *

فان قيل : فكيف يعرف البليغُ الذي وصفتموه إعجازَ القرآن، وما الوجه الذي يتطرق به إليه، والمنهاج الذي يسلكه، حتى يقف به على جلية الأمر فيه ؟

قيل : هذا سبيله أن يفرد له فصل... فان قيل : فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله، مع قدرتهم على صنوف البلاغات، وتصرفهم في أجناس الفصاحات ؟ وهلا قلتم : إن مَنْ قدر على جميع هذه الوجوه البديعة، وتوجه من هذه الطرق الغريبة، كان على مثل نظم القرآن قادراً، وإنما يصرفه الله عنه ضرباً من الصرف، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضرباً من المنع، أو تقصر دواعيه دونه مع قدرته عليه، ليتكامل ما أراده الله من الدلالة، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة، لأن مَنْ قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى، وكذلك الثالثة، حتى يتكامل قدر الآية والسورة ؟

فالجواب : أنه لو صحَّ ذلك، صحَّ لكل مَنْ أمكنه نَظْم ربع بيت، أو مصراع من بيت، أن ينظم القصائد، ويقول الأشعار.. وصح لكل ناطق، قد يتفق في كلامه الكلمة البديعة، نَظْم الخطب البليغة، والرسائل العجيبة، ومعلوم أن ذلك غير سائغ، ولا ممكن... على أن ذلك لو لم يكن معجزاً على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع لكان مهما حطَّ من رتبة البلاغة فيه، ووضع من مقدار الفصاحة في نظمه، أبلغ في الأعجوبة، إذ صرفوا عن الإتيان بمثله، ومنعوا عن معارضته، وعدلت دواعيهم عنه، فكان يُستغنَى عن

إنزاله على النظم البديع، وإخراجه في المعرض الفصيح العجيب. على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادَّعاه، لم يكن مَنْ قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم، وعجيب الرصف، لأنهم لم يتحدوا إليه، ولم تلزمهم حجته.. فلما لم يوجد في كلام مَنْ قبله مثله، علم ان ما ادَّعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان.

وفيه معنى آخر : وهو أن أهل الصنعة في هذا الشأن إذا سمعوا كلاماً مطمعاً لم يخف عليهم، ولم يشتبه لديهم. ومَنْ كان متناهياً في فصاحته لم يَجُزْ أن يطمع في مثل هذا القرآن بحال. فان قال صاحب السؤال : إنه قد يطمع في ذلك. قيل له : أنت تزيد على هذا، فتزعم أن كلام الآدمي قد يضارع القرآن وقد يزيد عليه في الفصاحة، ولا يتحاشاه، ويحسب أن ما ألفه في الجزء والطفرة هو أبدع وأغرب من القرآن لفظاً ومعنى، ولكن ليس الكلام على ما يقدره مقدَّر في نفسه، ويحسبه ظانٌّ من أمره، والمرجوع في هذا إلى جملة الفصحاء، دون الآحاد.

ونحن نبين بعد هذا وجه امتناعه عن الفصيح البليغ، وتميزه في ذلك عن سائر أجناس الخطاب، ليعلم أن ما يقدره من مساواة كلام الناس به تقدير ظاهر الخطأ، بيِّنُ الغلط، وان هذا التقدير من جنس مَنْ حكى الله تعالى قوله في محكم كتابه : ﴿ **إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال ان هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر** ﴾[1]، فهم يعبرون عن دعواهم أنهم يمكنهم أن يقولوا مثله بأن ذلك من قول البشر، لأن ما كان من قولهم فليس يقع فيه التفاضل إلى الحد الذي يتجاوز إمكان معارضته.

* * *

(١) سورة المدثر آية ١٨ إلى آية ٢٥

ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة : انه لو كانت المعارضة ممكنة وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع معجزاً ؛ فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه.

وليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق منهم : أن الكل قادرون على الإتيان بمثله، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب، لو تعلموه لوصلوا إليه به.

ولا بأعجب من قول فريق منهم : إنه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله تعالى في هذا الباب، وإنه يصح من كل واحد منهما الإعجاز على حدٍّ واحد.

* * *

فان قيل : فهل تقولون بان غير القرآن من كلام الله عز وجل معجز، كالتوراة والانجيل والصحف ؟ قيل : ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف، وان كان معجزاً كالقرآن فيما يتضمن من الإخبار بالغيوب، وإنما لم يكن معجزاً لان الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن، ولأنَّا قد علمنا انه لم يقع التحدي إليه كما وقع التحدي إلى القرآن، ولمعنى آخر وهو أن ذلك اللسان لا يتأتَّى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حدِّ الإعجاز، ولكنه يتقارب. وقد رأيت أصحابنا يذكرون هذا في سائر الألسنة، ويقولون ليس يقع فيها من التفاوت ما يتضمن التقديم العجيب.

ويمكن بيان ذلك[1] بأنَّا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرف من اللغة (العربية)، وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على ما تتناوله العربية، وكذلك

(١) وهو عدم التفاوت الكبير في البلاغة في الألسنة الأجنبية.

التصرف في الاستعارات والإشارات ووجوه الاستعمالات البديعة التي يجيء تفصيلها بعد هذا[1].

ويشهد لذلك من القرآن أن الله تعالى وصفه بأنه : ﴿ **بلسان عربي مبين** ﴾[2]، وكرر ذلك في مواضع كثيرة، وبيَّن أنه رفعه عن أن يجعله أعجمياً، فلو كان يمكن في لسان العجم إيراد مثل فصاحته لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة، وأنه وإن كان يمكن أن يكون من فائدة قوله « انه عربي مبين » أنه مما يفهمونه، ولا يفتقرون فيه إلى الرجوع إلى غيرهم، ولا يحتاجون في تفسيره إلى مَنْ سواهم، فلا يمتنع أن يفيد ما قلنا أيضاً، كما أفاد بظاهره ما قدمناه.

ويبيِّن ذلك أن كثيراً من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة، وهم من أهل البراعة فيها وفي العربية، فقد وقفوا على أنه ليس يقع فيها من التفاضل والفصاحة ما يقع في العربية.

---

(١) ويقول ابن سنان في كتابه سر الفصاحة في فضل اللغة العربية على سائر اللغات: لإخفاء بميزاتها على سائر اللغات، وفضلها:

أما السعة، فالأمر فيها واضح، ومن تتبع جمع اللغات لم يجد فيها — على ما سمعته — لغة تضاهي اللغة العربية، في كثرة الأسماء للمسمى الواحد، على أن اللغة الرومية بالضد، فان الاسم الواحد يوجد فيها للمسميات المختلفة كثيراً، وقد كان بعض اللغويين حصر أسماء السيف والأسد في لغة العرب، فكانت أوراقا عدة.

وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني، وفي النقل إليها بين ذلك، فليس كلام ينقل الى لغة العرب إلا ويجيء الثاني أخصر من الأول مع سلامة المعاني، وبقائها على حالها.. وهذه بلا شك فضيلة مشهورة، وميزة كبيرة، لأن الغرض في الكلام ووضع اللغات بيان المعاني وكشفها فإذا كانت لغة تفصح عن المقصود، وتظهره، مع الاختصار والاقتصار فهي أولى بالاستعمال وأفضل مما يحتاج فيه إلى الإسهاب والإطالة وقد خبرني أبو داود المطران وهو عارف ياللغتين العربية والسريانية أنه إذا نقل الألفاظ الحسنة الى السريانية قبحت وخست وإذا نقل الكلام المختار من السرياني الى العربي ازداد طلاوة وحسناً، وهذا الذي ذكره صحيح، تخبر به أهل كل لغة عن لغتهم مع العربية.

(٢) سورة الشعراء آية ١٩٥

ومعنى آخر : وهو انا لم نجد أهل التوراة الإنجيل ادَّعوا الإعجاز لكتابهم، ولا ادَّعى لهم المسلمون، فعلم أن الإعجاز مما يختص به القرآن.. ويبيِّن هذا أن الشعر لا يتأتَّى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية، وان كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة، لم يتفق فيها من البديع ما يمكن ويتأتى في العربية، وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي يتبين فيها الفصاحة على ما يأتي في العربية.

* * *

فان قيل : فان المجوس تزعم أن كتاب زاردشت[1] وكتاب ماني معجزان.. قيل : الذي يتضمنه كتاب ماني من طريق النيرنجات وضروب من الشعوذة، ليس يقع فيها إعجاز. ويزعمون أن في الكتاب الحكم، وهي حكم منقولة متداولة على الألسن، لا تختص بها أمة دون أمة، وان كان بعضهم أكثر اهتماماً بها، وتحصيلاً لها، وجمعاً لأبوابها.

وقد ادَّعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن، وانما فزعوا إلى الدرة اليتيمة[2] وهما كتابان : أحدهما يتضمن حكماً منقولة، توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل، فليس فيها شيء بديع من لفظٍ ولا معنى، والآخر : في شيء من الديانات، وقد تهوس فيه بما لا يخفَى على متأمِّل. وكتابه الذي بيَّناه في الحكم منسوخٌ من كتاب بزرجمهر في الحكمة، فأي صنع له في ذلك، وأي فضيلة حازها فيما جاء به ؟ وبعد فليس يوجد له كتاب يدَّعي مُدَّعٍ أنه عارض فيه القرآن، بل يزعمون أنه اشتغل بذلك

---

(١) حكيم فارسي قديم صاحب آراء في الكون والحياة.

(٢) هنا بعد ذلك مباشرة سقط، والظاهر أن الكلام صحته : الدرة اليتيمة والتاج في سيرة أنو شروان، ولابن المقفع كتاب خداينامه في تاريخ الفرس، وكتاب آيين نامه في نظم الفرس.

مدة ثم مزق ما جمع واستحيا لنفسه من إظهاره، فان كان كذلك فقد أصاب، وأبصر القصد. ولا يمتنع أن يشتبه عليه الحال في الابتداء، ثم يلوح له رشده، ويبين له أمره، وينكشف له عجزه، ولو كان بقي على اشتباه الحل عليه لم يخف علينا موضع غفلته، ولم يشتبه لدينا وجه شبهته... ومتى أمكن أن تدَّعي الفرس في شيء من كتبهم أنه معجز في حسن تأليفه وعجيب نظمه ؟

فصل
في جملة وجوه إعجاز القرآن

ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز :

أحدها، يتضمن الأخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه.

فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان، بقوله عز وجل : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾[1]، ففعل ذلك.. وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله من إظهار دينه، ليثقوا بالنصر، ويستيقنوا بالنجح. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل كذلك في أيامه، حتى وقف أصحاب جيوشه عليه ؛ فكان سعد بن أبي وقاص، رحمه الله، وغيره من أمراء الجيوش من جهته يذكر ذلك لأصحابه، ويحرضهم به ويوثق لهم، وكانوا يلقون الظفر في موجهاتهم، حتى فتح إلى آخر أيام عمر رضي الله عنه إلى بلخ[2]وبلاد الهند، وفتح في أيامه

---

(١) سورة التوبة آية ٣٣ .

(٢) مدينة ــ بخراسان بالقرب من كابل عاصمة أفغانستان اليوم.

مَرْوَ والشاهجان[١] ومرو الروذ[٢]، ومنعهم من العبور بجيحون[٣].. وكذلك فتح في أيامه فارس إلى اصطخر وكرمان ومكران وسجستان[٤]، وجميع ما كان من مملكة كسرى، وكل ما كان يملكه ملوك الفرس بين البحرين[٥]، من الفرات[٦]إلى جيحون : وأزال ملك ملوك الفرس، فلم يعد إلى اليوم، ولا يعود أبداً إن شاء الله تعالى، ثم إلى حدود أرمينية[٧] وإلى باب الأبواب[٨].. وفتح ناحية الشام والأردن وفلسطين وفسطاط مصر، وأزال ملك قيصر عنها، وذلك من الفرات إلى بحر مصر، وهو ملك قيصر، وغزت الخيول في أيامه إلى عمورية[٩] فأخذ الضواحي كلها، ولم يبق دونها إلا ما حجز دونه بحر، أو حال عنه جبل منيع، أو أرض خشنة، أو بادية غير مسلوكة.

وقال الله عز وجل : ﴿ **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد** ﴾[١٠]، فصدق فيه، وقال في أهل بدر : ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم** ﴾[١١]، ووفى لهم بما وعد.

وجميع الآيات التي يتضمنها القران من الأخبار عن الغيوب يكثر جداً، وإنما أردنا أن ننبه بالبعض على الكل.

---

(١) مدينة بخراسان قريبة من خوارزم.

(٢) بين بلخ ومرو الشاهجان.

(٣) نهر كبير يصب في بحر قزوين.

(٤) كلها مدن في اقليم فارس.

(٥) اقليم من اقاليم جزيرة العرب جهة الجنوب الشرقي ويقع على بحر فارس.

(٦) هو النهر الكبير المقابل لدجلة والذي يصب معه في مصب مشترك في بحر فارس ويمر بالجزيرة الفراتية.

(٧) اقليم بين بحر قزوين والبحر الأسود.

(٨) هي مدينة القسطنطينية.

(٩) مدينة كبيرة محصنة على حدود دولة الروم الشرقية في آسيا الصغرى.

(١٠) من آية ١٢ سورة آل عمران.

(١١) من آية ٧ سورة الأنفال.

والوجه الثاني، أنه كان معلوماً من حال النبي ﷺ انه كان أميّاً لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ. وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين واقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بجملة ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير، من حين خلق الله آدم عليه السلام الى حين مبعثه، فذكر في الكتاب الذي جاء به معجزة له قصة آدم عليه السلام ابتداء خلقه وما صار اليه أمره من الخروج من الجنة، ثم جملا من أمر ولده وأحواله وتوبته، ثم ذكر قصة نوح عليه السلام وما كان بينه وبين قومه وما انتهى اليه أمره، وكذلك أمر إبراهيم عليه السلام، الى ذكر سائر الأنبياء المذكورين في القرآن، والملوك والفراعنة الذين كانوا في أيام الأنبياء صلوات الله عليهم.

ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل اليه إلا عن تعلُّم، واذا كان معروفاً انه لم يكن ملابساً لأهل الآثار وحملة الأخبار، ولا متردِّداً إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع اليه كتاب فيأخذ منه، عُلم أنه لا يصل الى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي. ولذلك قال عز وجل : ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك، اذاً لارتاب المبطلون** ﴾[1]، وقال : ﴿ **وكذلك نصرف**[2] **الآيات وليقولوا درست** ﴾[3] ... وقد بينا أن مَنْ كان يختلف الى تعلُّم علم، ويشتغل بملابسة أهل صنعة، لم يخف على الناس أمره، ولم يختلف عندهم مذهبه، وقد كان يُعرف فيهم مَنْ يحسن هذا العلم وإن كان نادراً، وكذلك كان يُعرف مَنْ يختلف اليه للتعليم، وليس يخفى في العرف عالم كل صنعة ومتعلمها، فلو كان منهم لم يخف أمره.

(١) آية ٤٨ سورة العنكبوت.

(٢) في الأصل : « نفصل » وهو تحريف.

(٣) من آية ١٥٠ سورة الأنعام ــ وباقي الآية : « ولنبينه لقوم يعلمون ».

والوجه الثالث، أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة الى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه، والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة.

ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل، ونكشف الجملة التي أطلقوها ... فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه :

ــ منها ما يرجع الى الجملة، وذلك ان نظم القرآن على تصرُّف وجوهه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم. وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرُّفه عن أساليب الكلام المعتاد. وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم الى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم الى معدل موزون غير مسجع، ثم الى ما يرسل إرسالاً فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة، على وجه بديع، وترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلاً في وزنه. وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمَّل ولا يتصنَّع له ... وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق، ويبقى علينا أن نبيِّن أنه ليس من باب السجع، ولا فيه شيء منه، وكذلك ليس من قبيل الشعر، لأن من الناس مَنْ زعم أنه كلام مسجع، ومنهم مَنْ يدَّعي أن فيه شعراً كثيراً، والكلام عليهما[1] يذكر بعد هذا الموضع .. فهذا إذا تأمله المتأمِّل، تبيَّن ــ بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم ــ أنه خارج عن العادة، وأنه معجز، وهذا خصوصية ترجع الى جملة القرآن، وتميُّز حاصل في جميعه.

* * *

(١) في الأصل : عليهم.

ـــ **ومنها:** أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول وعلى هذا القدر، وإنما تنسب الى حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة، يقع فيها ما نبيِّنه بعد هذا من الاختلال، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف، ويقع فيها ما نبديه من التعمُّل والتكلُّف والتجوُّز والتعسُّف، وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسباً في الفصاحة، على ما وصفه الله تعالى به، فقال عز من قائل : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها، مثاني، تقشعر منه قلوب الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾[1]، ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا** ﴾[2] .. فأخبر أن كلام الآدمي إن امتدَّ وقع فيه التفاوت، وبَانَ عليه الاختلال، وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذي بدأنا بذكره، فتأمله تعرف الفضل.

* * *

ـــ **وفي ذلك**[3] **معنى ثالث** : وهو أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف اليه من الوجوه التي يتصرف فيها، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وأعذار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة، وسير مأثورة وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها، ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق، والخطيب المصقع، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور.

فمن الشعراء مَنْ يجود في المدح دون الهجو، ومنهم مَنْ يبرز في الهجو

---

(١) من آية ٢٣ سورة الزمر.

(٢) من آية ٨٢ سورة النساء.

(٣) أي : بديع نَظْمِ القرآن المتضمن للإعجاز.

دون المدح، ومنهم مَنْ يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم مَنْ يجود في التأبين دون التقريظ، ومنهم مَنْ يغرب في وصف الابل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الخمر أو الغزل، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر، ويتداوله الكلام. ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب والنابغة إذا رهب وبزهير إذا رغب[1]، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام، ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فاذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه، وبَانَ الاختلاف على شعره، ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم[2]، لأنه لا خلاف في تقدُّمهم في صنعة الشعر، ولا شكَّ في تبريزهم في مذهب النظم. فاذا كان الاختلال بيِّناً في شعرهم، لاختلاف ما يتصرفون فيه، استغنينا عن ذكر مَنْ هو دونهم، وكذلك يُستغنى به عن تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها.

ثم نجد في الشعراء مَنْ يجود في الرجز ولا يمكنه نظم القصيد أصلاً، ومنهم مَنْ ينظم القصيد ولكن يقصر فيه مهما تكلَّفه أو عمله، ومن الناس مَنْ يجود في الكلام المرسل فاذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصاناً عجيباً، ومنهم مَنْ يوجد بضد ذلك.

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد، في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا

---

(١) تروى هذه الرواية بروايات مختلفة، فيضاف اليها : الأعشى اذا طرب (١١١ حلبة الكميت)، وتختلف الرواية فنجدها في صور كثيرة (راجع ٥١١ خزانة الأدب، ٩/٥٨ الأغاني، ٣٨٠ و ٤١٣/ ٣ العقد، ١٩٣ حضارة الاسلام في دار السلام).

وتروى عن كثير أو نصيب (١/٧٨ العمدة)، وعن ابن أبي طرفة مع حذف امرئ القيس وزيادة : عنترة إذا كلب (٧٨ جـ ١ العمدة)، عن الأصمعي (٢٣ الجمهرة).

(٢) وهم امرؤ القيس والنابغة وزهير.

تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفال[1] فيه إلى الرتبة الدنيا، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف اليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حدٍّ واحد لا يختلف، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة، وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر، لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير، عند التكرار، وعند تبايُن الوجوه واختلاف الأسباب.

* * *

ـــ **ومعنى رابع** : وهو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيِّناً في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم اليه الخطاب عند النظم، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع. ألا ترى أن كثيراً من الشعراء قد وُصف بالنقص عند التنقل من معنى الى غيره، والخروج من باب الى سواه، حتى ان أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري ـــ مع جودة نظمه وحسن وصفه ـــ في الخروج من النسيب الى المديح، وأطبقوا على أنه لا يحسنه ولا يأتي فيه بشيء. وإنما اتفق له في مواضع معدودة خروجٌ يُرتضى، وتنقُّل يُستحسن. وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء إلى شيء، والتحول من باب الى باب ... ونحن نفصل بعد هذا، ونفسر هذه الجملة، ونبيِّن على أن القرآن ـــ على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة ـــ يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد الى حد الآحاد. وهذا أمر عجيب تتبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة، ويخرج به الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف.

* * *

(١) في الطبعة الثانية : إسفاف.

ـــ **ومعنى خامس** : وهو أن نظم القرآن وقع موقعاً في البلاغة يخرج عن عادة كلام الإنس والجن، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا، وقد قال الله عز وجل : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾[1].

فإن قيل : هذه دعوى منكم، وذلك أنه لا سبيل لنا الى أن نعلم عجز الجن عن مثله، وقد يجوز أن يكونوا قادرين على الإتيان بمثله، وإن كنا عاجزين . كما أنهم قد يقدرون على أمور لطيفة، وأسباب غامضة دقيقة، لا نقدر نحن عليها، ولا سبيل لنا للطفها اليها. واذا كان كذلك لم يكن الى علم ما ادعيتم سبيل ...

قيل : قد يمكن أن نعرف ذلك بخبر الله عز وجل، وقد يمكن أن يقال : إن هذا الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن، وما يروون لهم من الشعر، ويحكون عنهم من الكلام، وقد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم منقول عنهم، والقدر الذي نقلوه قد تأملناه، فهو في الفصاحة لا يتجاوز حدَّ فصاحة الإنس، ولعله يقصر عنها. ولا يمتنع أن يسمع الناس كلامهم، ويقع بينهم وبينهم محاورات في عهد الأنبياء صلوات الله عليهم، وذلك الزمان مما لا يمتنع فيه وجود ما ينقض العادات، على أن القوم إلى الآن يعتقدون مخاطبة الغيلان، ولهم أشعار محفوظة، مروية في دواوينهم، قال تأبط شراً :

وأدهـــم قد جبتُ جلبابـــــه كما اجتابت الكاعب الخيعلا[2]
إلـى أن حدا الصبـــح أثنـــاءه ومـــزق جلبابَـــــه الأَلْيَـــــلا[3]

---

(١) آية ٨٨ سورة الإسراء.

(٢) الأدهم الليل المظلم. جاب واجتاب القميص : شق وقطع أو لبس. جلباب الليل : ظلامه. الكاعب : الفتاة التي كعب ثديها وظهر. والخيعل ثوب غير مخيط الفرجين.

(٣) الأليل : المظلم. أي ظهر الصبح ومزق الظلام.

علـــى شيـــم نار تنوَّرتُهـــــا فبت لهـــا مدبـــرا مقبـــــلا [1]
فأصبـــحت والغـــول لي جارةٌ فيــا جارتــا أنت ما أهـــولا [2]
وطالبتهـــا بَضْعهـــا فالتـــــوت بوجـــه تهــــوَّل واستغـــــولا [3]
فمـن سال أيـن ثَوَتْ جارتـــي فان لهـــا باللـــوى منـــــزلا [4]
وكنت إذا ما همـمت اعتـزمت وأحــــر إذا قلت أن أفعـــــلا

وقال آخر :

عشوا ناري فقـلت مَنُـون أنتـم فقالوا الجن قلتُ عمـوا ظلامـا [5]
فقمتُ الى الطعام، فقال منهم زعيـــم يحسد الإنس الطعامـــا

ويذكرون لامرئ القيس قصيدة مع عمرو الجني، وأشعاراً لهما كرهنا ذكرها لطولها ... وقال عبيد بن أيوب :

فلله دَرُّ الغـــولِ أي رفيقـــة لصاحب قفـرٍ خائـفٍ يتقفـر [6]
أرنت بلحن بعد لحن وأوقـدت حوالـي نيرانـا تبـــوخ وتزهـــر [7]

وقال ذو الرمة بعد قوله :

قد أعسَف النازحُ المجهولُ معسفَهُ في ظلِّ أخضرَ يدعـو هامَـهُ البـومُ [8]

---

(١) شام مخايل الشيء : تطلع نحوها ببصره منتظرا له. وتنور النار من بعيد : تبصرها.

(٢) أهولا : من هاله الشيء : أفزعه.

(٣) البضع بضم الباء : الجماع أو الفرج أو عقد النكاح. تهول : من الهول وهو الفزع استغول : ازداد في غوليته.

(٤) ثوت : أقامت. جارتي : هي الغول : اللوى : ما التوى من الرمل.
هذا وتأبط شراً : شاعر جاهلي : وهو مشهور بأوصافه للغول.

(٥) عشا النار : رآها ليلا من بعيد فقصدها مستضيئا : منون : جمع من للاستفهام والجملة محكية.
عموا ظلاما مثل عموا مساء وهي تحية العرب بالليل مثل قول الناس عندنا : مساء الخير. وهي دعاء بالنعيم والأهل. وظلاما ظرف.

(٦) القفر : المفازة لا ما فيها ولا نبات. المتقفر : المعتاد المشي في القفر.

(٧) أرنت : صوتت وصاحت. اللحن : الصوت. تبوخ : تسكن. تزهر : تشتعل.

(٨) العسف : الأخذ على غير الطريق، وعسف عن الطريق يعسف : مال وعدل. النازح : البعيد، يريد به =

للجنِّ بالليل في حافاتها زجلٌ   كما تناوح يومَ الرِّيحِ عَيْشُوم[1]
دوية ودجا ليلٍ كأنهما   يَمٌّ تراطَنَ في حافاتِهِ الرُّوم[2]

وقال أيضاً :

وكم عرست بعد النوى من معرس   لها من كلام الجن أصوات سامر[3]

وقال

ورمل عزيف الجن في عَقَبَاتِهِ   هزيز كتضرابِ المغنين بالطبل[4]

وإذا كان القوم يعتقدون كلام الجن ومخاطباتهم، ويحكون عنهم، وذلك القدر المحكي لا يزيد أمره على فصاحة العرب، صحَّ ما وصف عندهم من عجزهم عنه، كعجز الإنس ... ويبيِّن ذلك من القرآن أن الله تعالى حكى عن الجن ما تفاوضوا فيه من القرآن، فقال : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا أنصِتُوا، فلما قُضِيَ وَلَّوْا إلى قومهم منذرين** ﴾[5]، إلى آخر ما حكى عنهم فيما يتلوه، فاذا ثبت أنه وصف كلامهم، ووافق ما يعتقدونه من نقل خطابهم، صح أن يوصف الشيء المألوف بأنه ينحط عن درجة القرآن في الفصاحة.

= القفر الموحش الخلاء. الأخضر : الأسود، وجبل بالطائف، والمراد المعنى الأول، يريد في الليل المظلم الحالك السواد. الهامة : رأس كل شيء وطائر من طير الليل وهو الصدى وأنثى البوم. والبوم طائر.

(١) الحافات : الجوانب. الزجل : الجلبة ورفع الصوت. العيشوم : كل شجرة يابسها أكثر من رطبها أو جمع عيشومة وهي ما هاج من نبت : التناوح التمايل أو التقابل.

(٢) الدوية : الفلاة : الدجا : الظلام. اليم : تراطنوا تكلموا بالرطانة وهي الاعجمية. حافاته : جوانبه.

(٣) التعريس : النزول في آخر الليل للاستراحة والموضع معرس كمعظم. النوى : الوجه الذي يذهب فيه والبعد والدار والتحول من مكان الى آخر. وضمير عرست يعود الى ناقته. والضمير في لها يعود الى الناقة أو الى النوى المراد منه هنا المكان .. السامر : مجلس السمار. ويروى : السرى، بدل النوى.

(٤) العزيف : صوت الجن. العقبة بالتحريك : مرقى صعب من الجبال. الهزين : الصوت ودوي الريح. تضراب: المبالغة في الضرب.

(٥) آية ٢٩ سورة الأحقاف.

وهذان الجوابان أسدُّ عندي من جواب بعض المتكلمين عنه : بأن عَجْزَ الإنس عن القرآن يثبت له حكم الإعجاز، فلا يعتبر غيره، ألا ترى أنه لو عرفنا من طريق المشاهدة عَجْزَ الجن عنه، فقال لنا قائل : فدلوا على أن الملائكة تعجز عن الإتيان بمثله، لم يكن لنا في الجواب غير هذه الطريقة التي قد بيناها. وإنما ضعفنا هذا الجواب لأن الذي حكى وذكر، عجز الجن والإنس عن الإتيان بمثله، فيجب أن نعلم عجز الجن عنه، كما علمنا عجز الإنس عنه، ولو كان وصف عجز الملائكة عنه، لوجب أن نعرف ذلك أيضاً بطريقه.

فان قيل : أنتم قد انتهيتم إلى ذكر الإعجاز في التفاصيل، وهذا الفصل إنما يدل على الإعجاز في الجملة ... قيل : هذا كما أنه يدل على الجملة فإنه يدل على التفصيل أيضاً، فصحَّ أن يلحق هذا القبيل، كما كان يصحُّ أن يلحق بباب الجمل.

* * *

ـ **ومعنى سادس** : وهو أن الذي ينقسم عليه الخطاب : من البسط والاقتصاد والجمع والتفريق والاستعارة والتصريح والتجوُّز والتحقيق، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم، موجود في القرآن، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة والإبداع والبلاغة .. وقد ضمنا بيان ذلك بعد، لأن الوجه ههنا ذكر المقدمات دون البسط والتفصيل.

* * *

ـ **ومعنى سابع** : وهو أن ورود تلك المعاني التي يتضمنها[1] في أصل

---

(١) في الأصل : أن المعاني التي تتضمن. وهو تحريف .. وقد صححناها بمقابلتها بنصوص مروية في كتب الأدب فيها هذا النص.

وَضْع الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين والردّ على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ... ويمنع ذلك أنه قد عُلم ان تخيُّر الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس، أسهل وأقرب، من تخيُّر الألفاظ لمعانٍ مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة. فلو برع[1] اللفظ في المعنى البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر والأمر المتقرر المتصور، ثم إن انضاف إلى ذلك التصرف البديع، في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يُبتدأ تأسيسه، ويُراد تحقيقه، بأن التفاضل في البراعة والفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى، والمعاني وفقها، لا يفضل أحدهما على الآخر، فالبراعة أظهر، والفصاحة أتمّ.

* * *

ــ **ومعنى ثامن** : وهو أن الكلام يبين فضله، ورجحان فصاحته، بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو تقذف ما بين شعر، فتأخذه الأسماع، وتتشوَّف اليه النفوس، ويرى وجه رونقه بادياً غامراً سائر ما يقرن به، كالدرَّة التي تُرى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد. وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جميعه، وواسطة عقده، والمنادي على نفسه بتميُّزه، وتخصصه برونقه وجماله، واعتراضه في جنسه ومائه.

وهذا الفصل أيضاً مما يُحتاج فيه إلى تفصيل وشرح ونصّ، ليتحقق ما ادعيناه منه؛ ولولا هذه الوجوه التي بيَّناها لم يتحيَّر فيه أهل الفصاحة، ولكانوا يفزعون إلى التعمُّل للمقابلة، والتصنُّع للمعارضة، وكانوا ينظرون في أمرهم يراجعون أنفسهم، أو كان يراجع بعضهم بعضاً في معارضته، ويتوقفون

(١) في الأصل : أبرع. برع الرجل : فاق أصحابه. وفي الطبعة الثانية : فاذا برع.

لها. فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك، عُلم أن أهل المعرفة منهم بالصنعة إنما عدلوا عن هذه الأمور، لعلهم بعجزهم عنه، وقصور فصاحتهم دونه، ولا يمتنع أن يلتبس على مَنْ لم يكن بارعاً فيهم ولا متقدِّماً في الفصاحة منهم هذه الحال، حتى لا يعلم إلا بعد نظرٍ وتأمُّلٍ، حتى يعرف حال عَجْزِ غيره .. إلَّا أنَّا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم سلموا، ولم يشتغلوا بذلك، تحقُّقاً بظهور العجز، وتبيُّناً له.

وأما قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ **قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا** ﴾[1]، فقد يمكن أن يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم، وقد يمكن أن يكون هذا الكلام إنما خرج منهم وهو يدلّ على عجزهم، ولذلك أورده الله مورد تقريعهم، لأنه لو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم لكانوا يتجاوزون الوعد إلى الإنجاز، والضمان إلى الوفاء، فلما لم يستعملوا ذلك مع استمرار التحدي، وتطاول زمان الفسحة في إقامة الحجة عليهم بعجزهم عنه، عُلم عجزهم، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لم يقتصروا على الدعوى فقط، ومعلوم من حالهم وحميتهم أن الواحد منهم يقول في الحشرات والهوام والحيات، وفي وصف الأزمة والأنساع والأمور التي لا يؤْبَهُ لها ولا يُحتاج إليها، ويتنافسون في ذلك أشدَّ التنافس، ويتبجَّحون به أشدَّ التبجُّح، فكيف يجوز أن تمكنهم معارضته في هذه المعاني الفسيحة والعبارات الفصيحة، مع تضمُّن المعارضة تكذيبَهُ والذبَّ عن أديانهم القديمة، وإخراجهم أنفسهم من تسفيهه رأيهم وتضليله إياهم، والتخلص من منازعته، ثم من محاربته ومقارعته، ثم لا يفعلون شيئاً من ذلك، وإنما يحيلون أنفسهم على التعاليل، ويعلِّلونها بالأباطيل ؟

* * *

ـــ **ومعنى تاسع** : وهو أن الحروف التي بُني عليها كلام العرب تسعة

---

(١) من آية ٣١ سورة الانفال وجملة « قد سمعنا » ساقطة من الاصل.

وعشرون حرفاً، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة[1]، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفاً[2]، ليدل بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم.

والذي ينقسم اليه هذه الحروف، على ما قسمه أهل العربية، وبنوا عليها وجوهها، أقسام نحن ذاكروها :

فمن ذلك أنهم قسموها الى : حروف مهموسة، وأخرى مجهورة، فالمهموسة منها عشرة، وهي : الحاء، والهاء، والخاء، والكاف، والشين، والثاء، والفاء والتاء، والصاد، والسين. وما [غير] ذلك من الحروف فهي مجهورة، وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور، وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء لا زيادة ولا نقصان ... والمجهور معناه أنه حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد، ويجري الصوت .. والمهموس كل حرف ضعف الاعتماد في موضعه، حتى جرى معه النفس، وذلك مما يُحتاج الى معرفته، لتبتني عليه أصول العربية.

وكذلك مما يقسمون اليه الحروف يقولون : إنها على ضربين : أحدهما : حروف الحلق، وهي ستة أحرف : العين، والحاء، والهمزة، والهاء، والخاء، والغين .. والنصف من هذه الحروف مذكور في جملة

---

(١) السور هي : البقرة ــ آل عمران ــ الأعراف ــ يونس ــ هود ــ يوسف ــ الرعد ــ إبراهيم ــ الحجر ــ مريم ــ طه ــ الشعراء ــ النحل ــ القصص ــ العنكبوت ــ الروم ــ لقمان ــ السجدة ــ يس ــ ص ــ غافر ــ فصلت ــ الشورى ــ الزخرف ــ الدخان ــ الجاثية ــ الاحقاف ــ ق ــ ن.
فهي تسع وعشرون سورة لا ثمان وعشرون.

(٢) هي الحروف الآتية : ا ــ ل ــ م ــ ص ــ ر ــ ك ــ هـ ى ــ ع ــ ط ــ س ــ ح ــ ق ــ ن.

الحروف التي تشتمل عليها الحروف المبينة في أوائل السور، وكذلك النصف من الحروف التي ليست بحروف الحلق.

وكذلك تنقسم هذه الحروف الى قسمين آخرين : أحدهما حروف غير شديدة، والى الحروف الشديدة، وهي التي تمنع الصوت أن يجري فيه وهي : الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والظاء، والذال، والطاء، والباء .. وقد علمنا أن نصف هذه الحروف أيضا هي مذكورة في جملة تلك الحروف التي بُني عليها تلك السور.

ومن ذلك : الحروف المطبقة، وهي أربعة أحرف، وما سواها منفتحة. فالمطبقة : الطاء، والظاء، والضاد، والصاد. وقد علمنا أن نصف هذه في جملة الحروف المبدوء بها في أوائل السور ... واذا كان القوم الذين قسموا في الحروف هذه الأقسام، لأغراضٍ لهم في ترتيب العربية، وتنزيلها، بعد الزمان الطويل، من عهد النبي ﷺ، رأوا مباني اللسان على هذه الجهة، وقد نبَّه بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر، على حد التنصيف الذي وصَفْنا. دلَّ على أن وقوعها الموقع الذي يقع التواضع عليه، بعد العهد الطويل، لا يجوز أن يقع الا من الله عز وجل، لأن ذلك يجري مُجرى علم الغيوب. وإن كان إنما نبَّهوا على ما بني عليه اللسان في أصله، ولم يكن لهم في التقسيم شيء، وإنما التأثير لمَنْ وضع أصل اللسان. فذلك أيضاً من البديع، الذي يدلُّ على أن أصل وضعه وقع مَوْقعَ الحكمة التي يقصر عنها اللسان .. فان كان أصل اللغة توقيفاً فالأمر في ذلك أَبْيَنُ وان كان على سبيل التواضع فهو عجيب، أيضا، لأنه لا يصحُّ أن تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا الا بأمر من عند الله تعالى، وكل ذلك يوجب إثبات الحكمة في ذكر هذه الحروف على حدٍّ يتعلَّق به الإعجاز من وجه ... وقد يمكن أن تعاد فاتحة كل سورة لفائدة تخصُّها في النظم اذا كانت حروفا، كنحو ألم، الآن الألف المبدوء بها هي أقصاها مطلعا، واللام متوسطة، والميم متطرفة، لأنها تأخذ في الشفة. فنبه بذكرها على غيرها من

الحروف، وبيَّن أنه إنما أتاهم بكلام منظوم، بما يتعارفون من الحروف، التي تتردد بين هذين الطرفين؛ ويشبه أن يكون التنصيف وقع في هذه الحروف دون الألف، لأن الألف قد تُلغى، وقد تقع الهمزة وهي موقعاً واحداً[١].

* * *

ــ **ومعنى عاشر** : وهو أنه سهل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر وعن الصنعة المتكلفة وجعله قريباً الى الأفهام، يبادر معناه لفظه الى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته الى النفس .. وهو مع ذلك ممتنع المطلب، عسير المتناول، غير مطمع مع قربه في نفسه، ولا موهم مع دنوِّه في موقعه أن يقدر عليه أو يظفر به. فأما الانحطاط عن هذه الرتبة الى رتبة الكلام المبتذل، والقول المسفسف، فليس يصحَّ أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة فيطلب فيه التمنُّع، أو يوضع فيه الإعجاز، ولكن لو وضع في وحشي مستكره، أو غمر بوجوه الصنعة وأطبق بأبواب التعسُّف والتكلُّف، لكان لقائل أن يقول فيه ويعتذر ويعيب ويقرع. ولكنه أوضح مناره، وقرب منهاجه، وسهل سبيله، وجعله في ذلك متشابهاً متماثلاً، وبيَّن مع ذلك إعجازهم فيه .. وقد علمت أن كلام فصائحهم، وشعر بلغائهم، لا ينفكُّ من تصرُّفٍ في غريبٍ مستنكر أو وحشيٍّ مستكره، ومعانٍ مستبعدة، ثم عدولهم الى كلامٍ مبتذل وضيع لا يوجد دونه في الرتبة ثم تحولهم الى كلام معتدل بين الأمرين، متصرف بين المنزلتين، فمن شاء أن يتحقق هذا نظر في قصيدة امرئ القيس[٢].

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل[٣]

---

(١) التنصيف الذي ذكره الباقلاني هنا أمر لغوي بحت يجب أن نجرد بحث الاعجاز من رعايته، إلا أن نعرف أن السور التي بدئت بحروف المعجم تسع وعشرون وأن عدد الحروف المكرورة أربعة عشر حرفا.

(٢) زعيم الشعراء الجاهليين المتوفي عام ٥٦٠ هـ.

(٣) مطلع معلقة امرئ القيس المشهورة الموصوفة بالبلاغة، وسيأتي شرح كامل لها.

ونحن نذكر بعد هذا على التفصيل ما تتصرف اليه هذه القصيدة، ونظائرها ومنزلتها من البلاغة، ونذكر وجه فوت نظم القرآن محلها، على وجه يؤخذ باليد، ويتناول من كثب، ويتصور في النفس كتصوُّر الأشكال، ليبين ما ادَّعيناه من الفصاحة العجيبة للقرآن.

* * *

واعلم أن من قال من أصحابنا : إن الاحكام معللة بعلل موافقة مقتضى العقل، جعل هذا وجهاً من وجوه الإعجاز، وجعل هذه الطريقة دلالةً فيه كنحو ما يعللون به الصلاة ومعظم الفروض وأصولها. ولهم في كثير من تلك العلل طرق قريبة، ووجوه تستحسن. وأصحابنا من أهل خراسان يولعون بذلك، ولكن الأصل الذي يبنون عليه عندنا غير مستقيم، وفي ذلك كلام يأتي في كتابنا في « الأصول ». وقد يمكن في تفاصيل ما أوردنا من المعاني الزيادة والإفراد، فانا جمعنا بين أمور، وذكرنا المزية المتعلقة بها، وكل واحد من تلك الأمور مما قد يمكن اعتماده في اظهار الإعجاز فيه.

فان قيل : فهل تزعمون أنه معجز، لأنه حكاية الكلام القديم سبحانه، أو لأنه عبارة عنه، أو لأنه قديم في نفسه ؟ ... قيل : لسنا نقول بأن الحروف قديمة، فكيف يصح التركيب على الفاسد، ولا نقول أيضاً إن وجه الإعجاز في نظم القرآن أنه حكاية عن الكلام القديم، لأنه لو كان كذلك لكانت التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله عز وجل معجزات في النظم والتأليف، وقد بيَّنا أن إعجازها في غير ذلك. وكذلك كان يجب أن تكون كل كلمة مفردة معجزة بنفسها ومنفردها، وقد ثبت خلاف ذلك ..

فصل
في شرح ما بيَّنا من وجوه إعجاز القرآن

فأما الفصل الذي بدأنا بذكره، من الأخبار عن الغيوب، والصدق، واصابة في ذلك كله، فهو : كقوله تعالى : ﴿ **قل للمخلفين من الأعراب ستدعون الى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون** ﴾[1] فأغزاهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما الى قتال العرب والفرس والروم. وكقوله : ﴿ **ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين** ﴾[2]، وراهن أبو بكر الصديق رضي الله عنه في ذلك، وصدق الله وعده. وكقوله في قصة أهل بدر : ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾[3]. وكقوله : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون** ﴾[4] .. وكقوله : ﴿ **وإذا يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم** ﴾[5]، في قصة أهل بدر .. وكقوله : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم**

---

(١) من آية ١٦ سورة الفتح.
(٢) آية ١ و ٢ وبعض آية ٣ من سورة الروم.
(٣) آية ٤٥ سورة القمر.
(٤) من آية ٢٧ من سورة الفتح.
(٥) من آية ٧ سورة الأنفال.

وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمنا ﴾[1] ... وصدق الله تعالى وعده في كل ذلك ... وقال في قصة المتخلفين عنه في غزوته : ﴿ **لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا** ﴾[2]، فحقّ ذلك كله وصدق، ولم يخرج من المخالفين الذين خوطبوا بذلك معه أحد .. وكقوله ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾[3] وكقوله : ﴿ **فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾[4]، فامتنعوا من المباهلة، ولو أجابوا اليها اضطرمت عليهم الأودية ناراً على ما ذكر في الخبر .. وكقوله : ﴿ **قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم** ﴾[5]، ولو تمنوه لوقع بهم. فهذا وما أشبهه فصل.

* * *

وأما الوجه الثاني الذي ذكرناه، من أخباره عن قصص الأولين، وسير المتقدمين، فمن العجيب الممتنع، على مَنْ لم يقف على الأخبار، ولم يشتغل بدرس الآثار .. وقد حكى في القرآن تلك الأمور حكاية من شهدها، وحضرها، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون** ﴾[6]، وقال : ﴿ **وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين** ﴾[7]،

---

(١) من آية ٥٥ من سورة النور.
(٢) من آية ٨٣ سورة التوبة.
(٣) من آية ٣٣ سورة التوبة؛ والفتح ٢٨؛ والصف ٩.
(٤) من آية ٦١ سورة آل عمران.
(٥) آية ٩٤ وبعض آية ٩٥ من سورة البقرة.
(٦) آية ٤٨ سورة العنكبوت.
(٧) آية ٤٤ سورة القصص.

وقال : ﴿ **وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكنَّ رحمةً من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذيرٍ من قبلك** ﴾[1]، فبيَّن وجه دلالته من إخباره بهذه الأمور الغائبة السالفة. وقال : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك، من قبل هذا** ﴾[2]. الآية.

فأما الكلام في الوجه الثالث، وهو الذي بيَّناه، من الإعجاز الواقع في النظم والتأليف والرَّصف، فقد ذكرنا من هذا الوجه وجوهاً.

منها أنَّا قلنا إنه نَظْمٌ خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم، ومباينٌ لأساليب خطابهم .. ومَن ادَّعى ذلك لم يكن له بدّ من أن يصحِّح أنه ليس من قبيل الشعر ولا السجع ولا الكلام الموزون غير المقفى، لأن قوماً من كفار قريش ادَّعوا أنه شعر، ومن الملحدة مَنْ يزعم أن فيه شعراً، ومن أهل الملة مَنْ يقول إنه كلام مسجع إلَّا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم، ومنهم مَنْ يدَّعي أنه كلام موزون فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب.

* * *

(١) من آية ٤٦ سورة القصص.

(٢) من آية ٤٩ سورة هود.

فصل

في نفي الشعر من القرآن

قد علمنا أن الله تعالى نَفَى الشعر من القرآن، ومن النبي ﷺ، فقال: ﴿ **وما علّمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكرٌ وقرآن مبين** ﴾[1]، وقال في ذم الشعراء: ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون، أَلَمْ تَرَ أنهم في كل وادٍ يهيمون** ﴾[2]، الى آخر ما وصفهم به في هذه الآيات، وقال: ﴿ **وما هو بقول شاعر** ﴾[3].

وهذا يدلُّ على أن ما حكاه عن الكفار، من قولهم: « إنه شاعر » و« إن هذا إلا شعر »، لا بدَّ من أن يكون محمولاً على أنهم نسبوه في القرآن الى أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه، على الأعاريض المحصورة المألوفة .. أو يكون محمولاً على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر، لدقَّة نظرهم في وجوه الكلام، وطرقٍ لهم في المنطق، وإن كان ذلك الباب خارجاً عما هو عند العرب شعر على الحقيقة .. أو يكون محمولاً على أنه

(١) آية ٦٨ من سورة يس.

(٢) الآيتان ٢٢٤ و ٢٢٥ من سورة الشعراء.

(٣) من آية ٤١ سورة الحاقة.

أطلق من بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر، وهذا أبعد الاحتمالات.

فإنْ حمل على الوجهين الأولين كان ما أطلقوه صحيحاً، وذلك أن الشاعر يفطن لما لا يفطن له غيره، واذا قدر على صنعة الشعر كان على ما دونه في رأيهم وعندهم أقدر، فنبسوه الى ذلك لهذا السبب.

* * *

فإنْ زعم زاعمٌ أنه قد وجد في القرآن شعراً كثيراً، فمن ذلك ما يزعمون أنه بيتٌ تام أو أبيات تامة، ومنه ما يزعمون أنه مصراع، كقول القائل :

قد قلتُ لما حاولوا سلوتي هيهاتَ هيهاتَ لما تُوعَدُون[1]

ومما يزعمون أنه بيت قولُه :

﴿ وجفَانٍ كالجَوَابِ وقدورٍ راسيات ﴾[2]

قالوا هو من الرمل من البحر الذي قيل فيه :

ساكن الريح نطوف المزن منحل العزالي[3]

وكقوله :

﴿ مَنْ تزكَّى فإنَّما، يتزَكَّى لنفسِهِ ﴾[4]

كقول الشاعر من بحر الخفيف :

كلُّ يومٍ بشمسه وغدٍ مثلُ أمسه

---

(١) الشطر الثاني آية من آيات سورة المؤمنين (آية ٣٦).

(٢) وهي من آية ١٣ سورة سبأ.

(٣) المزنة : السحابة البيضاء وجمعها مزن. والنطفة الماء الصافي قل أو كثر. عزالي جمع عزلاء مصب الماء من الراوية والقربة ونحوهما .. يصف السحاب ونزول المطر منه :

(٤) من آية ١٨ سورة فاطر ونص ما في الآية : ﴿ **ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه** ﴾

وكقوله عز وجل[1] :

﴿ **ومَن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾

قالوا هو من المتقارب ... وكقوله :

﴿ **ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا** ﴾[2].

ويشيعون حركة الميم فيزعمون أنه من الرجز، وذكر عن أبي نواس انه ضمن ذلك شعراً وهو قوله :

وفتية في مجلس وجوههم ريحانهم قد عدموا التثقيلا
دانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا

وقوله عز وجل : ﴿ **ويخزهم وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين** ﴾[3] زعموا أنه من الوافر كقول الشاعر :[4]

لنا غنم نسوقها غزار كأن قرون جلتها عصي[5]

وكقوله عز وجل : ﴿ **أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم** ﴾[6] ضمنه أبو نواس في شعره ففصل، وقال « فذاك الذي »، وشعره :

وقرا معلنا ليصدع قلبي والهوى يصدع الفؤاد السقيما :
أرأيت الذي يكذب بالدين فذاك الذي يدع اليتيما

---

(١) سورة الطلاق من آية ٢ و ٣.

(٢) سورة الانسان آية ١٤.

(٣) سورة التوبة من آية ١٤.

(٤) هو امرؤ القيس الكندي.

(٥) الغزارة الكثرة. الجلة بالكسر : جمع جليل وهو المسن. المعنى : أن لنا غنما كثيرة نطردها الى المرعى ونسوقها وفيها المسن الطويل القرن كان قرنه كالعصا لطولها والمراد أنهم في رغد ونعيم.

(٦) سورة الماعون الآيتان ١ و ٢ ـ يدع : يدفع. دعه : دفعه.

وهذا من الخفيف كقول الشاعر :

وفـــؤادي كعهـــده بسليمـــى   بهـوى لم يحـل ولـــم يتغيـــر

وكان ضمنه[1] في شعره من قوله :

سبحان (مَنْ) سخَّر هذا لنا   (حقـا) ومـا كنـا له مقرنيـن[2]

فزاد فيه حتى انتظم له الشعر، وكما يقولونه في قوله عز وجل ﴿ **والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً** ﴾[3] ونحو ذلك في القرآن كثير كقوله : ﴿ **والذاريات ذروا فالحاملات وقراً، فالجاريات يسراً** ﴾[4]، وهو عندهم شعر من بحر البسيط.

والجواب عن هذه الدعوى التي ادعوها من وجوه :

أولها : ان الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن لو كانوا يعتقدونه شعراً، ولم يروه خارجا عن أساليب كلامهم، لبادروا إلى معارضته، لأن الشعر مسخر لهم مسهل عليهم لهم فيه ما قد علمت من التصرف العجيب، والاقتدار اللطيف، فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك، ولا عوَّلوا عليه، عُلم أنهم لم يعتقدوا فيه شيئاً مما يقدره الضعفاء في الصنعة، والمرمدون في هذا الشأن[5]، وأن استدراك من يجيء الآن على فصحاء قريش وشعراء العرب قاطبة في ذلك الزمان وبلغائهم وخطبائهم، وزعمه أنه قد ظفر بشعر في القرآن ذهب أولئك النفر عنه، وخفي عليهم مع شدة حاجتهم إلى

---

(١) أي أبو نواس.

(٢) أقرن له : أطاقه وقوى عليه، ومقرنين : أي مطيقين. وهذا من سورة الزخرف من آية ١٣، ونص القرآن : ﴿ **سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين** ﴾.

(٣) سورة العاديات آية ١ و ٢. ضبحت الخيل مثل ضجت وهو أن تمد أضباعها في سيرها وهي أعضادها. وقيل الضبح : صوت أنفاسها إذا عدت. وورى الزند : خرجت ناره. وقدح النار قدحا.

(٤) سورة الذاريات الآيات ١ ــ ٣؛ ذرت الريح التراب أي سفته. الوقر: الثقل.

(٥) أرمد الرجل : افتقر وجهد.

الطعن في القرآن، والغضّ منه، والتوصُّل إلى تكذيبه بكل ما قدروا عليه، لن[1] يجوز أن يخفَى على أولئك وأن يجهلوه ويعرفه مَنْ جاء الآن وهو بالجهل حقيق.

وإذا كان كذلك، عُلم أن الذي أجاب به العلماء عن هذا السؤال سديد، وهو أنهم قالوا : إن البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعراً، وأقل الشعر بيتان فصاعدا، والى ذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية من أهل الإسلام .. وقالوا أيضا : إن ما كان على وزن بيتين إلا أنه يختلف رويهما وقافيتهما فليس بشعر .. ثم منهم مَنْ قال : إن الرجز ليس بشعر أصلاً، لا سيما اذا كان مشطوراً أو منهوكاً، وكذلك ما كان يقارنه في قلة الأجزاء ... وعلى هذا يسقط السؤال ..

ثم يقولون : إن الشعر إنما يطلق متى قصد القاصد اليه، على الطريق الذي يتعمد ويسلك، ولا يصح ان يتفق مثله الا من الشعراء، دون ما يستوي فيه العامي والجاهل والعالم بالشعر واللسان وتصرفه وما يتفق من كل واحد، فليس يكتسب اسم الشعر، ولا صاحبه اسم شاعر، لأنه لو صحَّ أن يُسمَّى[2] كلُّ من اعترض في كلامه ألفاظ تتزن بوزن الشعر، أو تنتظم انتظام بعض الأعاريض، كان الناس كلهم شعراء. لأن كلَّ متكلِّم لا ينفكُّ من أن يعرض في جملة كلام كثير يقوله ما قد يتزن بوزن الشعر، وينتظم انتظامه. ألا ترى أن العامي قد يقول لصاحبه : « أغلق الباب وائتني بالطعام »، ويقول الرجل لأصحابه : « اكرموا مَنْ لقيتم من تميم »، ومتى تتبع الإنسان هذا عرف أنه يكثر في تضاعيف الكلام مثله وأكثر منه .. وهذا القدر الذي يصحّ فيه التوارد ليس يعده أهل الصناعة سرقة، اذ لم تعلم فيه حقيقة الأخذ، كقول امرئ القيس :

---

(١) الجملة خبر « أن استدراك. وفي الأصل : « فلن ».

(٢) أي يسمى شاعرا.

وقوفا بها صحبي عليَّ مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمَّلِ [1]

وكقول طرفة :

وقوفا بها صحبي عليَّ مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

ومثل هذا كثير. فإذا صحَّ مثل ذلك في بعض البيت، ولم يمتنع التوارد فيه، فكذلك لا يمتنع وقوعه في الكلام المنثور، اتفاقاً غير مقصودٍ اليه، فاذا اتفق لم يكن ذلك شعراً. وكذلك يمتنع التواردُ على بيتين، وكذلك يمتنع في الكلام المنثور وقوعُ البيتين ونحوهما .. فثبت بهذا أن ما وقع هذا الموقع لم يعد شعرا، وانما يعد شعراً ما اذا قصده صاحبه تأتَّى له، ولم يمتنع عليه، فاذا كان هو مع قَصْده لا يتأتَّى له، وإنما يعرض في كلامه عن غير قصد اليه، لم يصح أن يقال : إنه شعر، ولا إن صاحبه شاعر، ولا يصحُّ أن يقال : إن هذا يوجب أن مثل هذا لو اتفق من شاعر فيجب أن يكون شعراً، لأنه لو قصده لكان يتأتَّى منه. وإنما لم يصح ذلك لأن ما ليس بشعر فلا يجوز أن يكون شعراً من أحد، وما كان شعراً من أحد من الناس كان شعراً من كل أحد. ألا ترى أن السوقي قد يقول : « اسقني الماء يا غلام سريعا[2] »، وقد يتفق ذلك من الساهي، ومَنْ لا يقصد النظم. فأما الشعر اذا بلغ الحد الذي بيَّنا فلا يصح ان يقع الا من قاصدٍ اليه. وأما الرجز فانه يعرض في كلام العوام كثيراً، فاذا كان بيتا واحداً فليس ذلك بشعر .. وقد قيل : إن أقل ما يكون منه شعراً أربعة أبيات بعد أن تتفق قوافيها، ولم يتفق ذلك في القرآن بحال. فأمَّا دون أربعة أبيات منه، أو ما يجري مُجراه في قلة الكلمات، فليس بشعر، وما اتفق في ذلك من القرآن مختلف الروي، ويقولون : إنه متى اختلف الرويّ خرج من أن يكون شعراً.

---

(١) من معلقة امرئ القيس في الوقوف على الاطلال والبكاء عليها. الوقوف جمع واقف. الصحب جمع صاحب : المطى معروفة. والمعنى أنهم وقفوا عليه رواحلهم يأمرونه بالصبر وينهونه عن الجزع : التجمل والتجلد : الصبر.

(٢) وهو نصف بيت من الخفيف.

وهذه الطرق التي سلكوها في الجواب معتمدة أو أكثرها، ولو كان ذلك شعراً لكانت النفوس تتشوَّف الى معارضته، لأن طريق الشعر غير مستصعب على أهل الزمان الواحد، وأهله يتقاربون فيه، أو يضربون فيه بسهم.

فان قيل : في القرآن كلامٌ موزون كوزن الشعر وان كان غير مقفى، بل هو مزاوج متساوي الضروب، وذلك آخر أقسام كلام العرب .. قيل : من سبيل الموزون من الكلام أن تتساوى أجزاؤه في الطول والقصر والسواكن والحركات، فإن خرج عن ذلك لم يكن موزوناً كقوله :

رب أخ كنت به مغتبطـــــاً   أشـد كَفِّـي بِعُـرا صحبتـه
تمسكـــاً منـــي بالـــود ولا   أحسبه يزهـــد في ذي أمـــل
تمسكـــا منـــي بالـــود ولا   أحسبـه يغيـــر العهـــد ولا
يحـــول عنـــه أبـــــداً   فخـــاب فيـــه أملـــي[1]

وقد علمنا ان هذا القرآن ليس من هذا القبيل، بل هذا قبيل غير ممدوح ولا مقصود من جملة الفصيح، وربما كان عندهم مستنكراً، بل أكثره على ذلك.

وكذلك ليس في القرآن من الموزون الذي وصفناه أولاً، وهو الذي شرطنا فيه التعادل والتساوي في الأجزاء غير الاختلاف الواقع في التقفية .. ويبين ذلك أن القرآن خارج عن الوزن الذي بيَّنا، وتتم فائدته بالخروج منه، وأما الكلام الموزون فان فائدته تتمُّ بوزنه.

* * *

(١) هذه الأبيات لم تلتزم فيها قافية وهي من الرجز. ويبدو أنها صورة من الشعر العربي في فترة التدرج في نشأته الأولى، والبيت الأخير من مجزوء الرجز لا من الرجز التام.

فصل
في نَفْي السجع[1] من القرآن

ذهب أصحابنا كلهم الى نَفْي السجع من القرآن، وذكره أبو الحسن[2] في غير موضع من كتبه.

وذهب كثير ممن يخالفهم إلى إثبات السجع في القرآن، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام، وأنه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في البيان والفصاحة، كالتجنيس والالتفات وما أشبه ذلك، من الوجوه التي تعرف بها الفصاحة. وأقوى ما يستدلون به عليه : اتفاق الكل على أن موسى افضل من هرون عليهما السلام، ولمكان السجع قيل في موضع : هرون وموسى. ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل : وهرون. قالوا وهذا يفارق أمر الشعر، لأنه لا يجوز أن يقع في الخطاب إلا مقصوداً إليه، وإذا وقع غير مقصود اليه كان دون القدر الذي يسمَّى شعراً، وذلك القدر ما يتفق وجوده من المفحم كما يتفق وجوده من الشاعر .. وأما ما في القرآن من السجع فهو كثير، لا يصح أن يتفق كله غير مقصود

---

(١) هو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد، وهو في النثر كالقوافي في الشعر ــ أما الموازنة فهي أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية.

(٢) هو إمام الأشاعرة (٢٧٠ ــ ٣٣٠ هـ).

اليه، ويبنون الأمر في ذلك على تحديد معنى السجع، قال أهل اللغة : هو موالاة الكلام على وزن واحد، قال ابن دريد : سجعت الحمامة معناها رددت صوتها. وأنشد :

طربت فأبكتك الحمام السواجعُ   تميل بها ضحواً غصونٌ نوائع[1]

النوائع : الموائل، من قولهم نائع، أي متمايل ضعفا.

وهذا الذي يزعمونه غير صحيح، ولو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز. ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ... وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب ؟ ونَفْيُه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نَفْي الشعر، لأن الكهانة تنافي النبوات وليس كذلك الشعر ...

وقد روي أن النبي ﷺ قال للذين جاءوه وكلموه في شأن الجنين : « كيف ندي من لا أكل ولا شرب، ولا صاح فاستهل، أليس دمه قد يطل[2] ؟ »، فقال « أسجاعة كسجاعة الجاهلية ؟ » وفي بعضها : « أسجعا كسجع الكهان ؟ » فرأى ذلك مذموماً لم يصحَّ أن يكون في دلالته. والذي يقدرونه أنه سجع فهو وَهَمٌ، لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدّي السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن، لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى، وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه، بألفاظه التي تؤدِّي المعنى المقصود فيه، وبين أن يكون المعنى منتظماً دون

---

(١) الضحو : الضحى. نوائع : موائل وهي جمع نائع وقال ابن دريد : ناع ينيع وينوع : ممايل.

(٢) وديت القتيل أديه دية : أعطيت ديته. استهل الصبي : صاح عند الولادة. طل دمه ببناء الفعل للمفعول : أهدر.

اللفظ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى.

فان قيل: فقد يتفق في القرآن ما يكون من القبيلين[1] جميعاً، فيجب أن تسمُّوا أحدهما سجعاً.

قيل: الكلام في تفصيل هذا خارج عن غَرَض كتابنا، وإلا كنا نأتي على فصل فصل من أول القرآن الى آخره، ونبيِّن في الموضع الذي يدعون الاستغناء عن السجع من الفوائد ما لا يخفى، ولكنه خارجٌ عن غرض كتابنا. وهذا القدر يحقق الفرق بين الموضعين.

* * *

ثم إن سلَّم لهم مسلِّم موضعاً أو مواضعَ معدودةً، وزعم أن وقوع ذلك موقع الاستراحة في الخطاب الى الفواصل لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام، وزعم أن الوجه في ذلك أنه من باب الفواصل، أو زعم أن ذلك وقع غير مقصود اليه، وأن ذلك اذا اعترض في الخطاب لم يَعُدْ سجعاً، على ما قد بيَّنا من القليل من الشعر، كالبيت الواحد والمصراع، والبيتين من الرجز، ونحو ذلك يعرض فيه، فلا يقال إنه شعر، لأنه لا يقع مقصوداً إليه، وإنما يقع مغموراً في الخطاب، فكذلك حال السجع الذي يزعمونه ويقدرونه.

ويقال لهم: لو كان الذي في القرآن على ما تقدرونه سجعاً لكان مذموماً مرذولاً، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه، واختلفت طرقه، كان قبيحاً من الكلام. وللسجع منهج مرتَّب محفوظ، وطريق مضبوط، متى أخلَّ به

(١) هما: السجع الذي جيء به لتصحيح المعنى، والسجع المتجلب لتجنيس الكلام دون رعاية المعنى.

المتكلِّم أوقعَ الخللَ في كلامه، ونُسب الى الخروج عن الفصاحة، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً، وكان شعره مرذولاً، وربما أخرجه عن كونه شعراً.

وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعاً متقاربُ الفواصل، متداني المقاطع؛ وبعضها مما يمتدُّ حتى يتضاعف طوله عليه، وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلامٍ كثير، وهذا في السجع غير مرضيٍّ ولا محمود.

فان قيل : متى خرج السجع المعتدل الى نحو ما ذكرتموه، خرج من أن يكون سجعاً، وليس على المتكلم أن يلتزم أن يكون كلامه سجعاً، بل يأتي به طوراً، ثم يعدل عنه الى غيره، ثم قد يرجع اليه.

قيل : متى وقع أحد مصراعي البيت مخالفاً للاخر كان تخليطاً وخبطاً، وكذلك متى اضطرب أحد مصراعي الكلام المسجع وتفاوت كان خبطاً، وعلم أن فصاحة القرآن غير مذمومة في الأصل، فلا يجوز أن يقع فيها نحو هذا الوجه من الاضطراب. ولو كان الكلام الذي هو في صورة السجع منه لما تحيروا فيه، وكانت الطباع تدعو الى المعارضة، لأن السجع غير ممتنع عليهم، بل هو عادتهم، فكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة ؟ وهو غير خارج عنها، ولا مميز منها ؟ وقد يتفق في الشعر كلام على منهاج السجع، وليس بسجع عندهم، وذلك نحو قول البحتري :

تشكى الوجَى، والليل ملتبس الدجا   غريرية الأنساب مرت نقيعها[1]

وقوله[2] :

---

(١) البيت من قصيدة له يمدح المتوكل ويذكر صلح تغلب، ويصف بالبيت ناقته التي سافر عليها. الوجى : وجع في خف الناقة. والابل الغريرية المنسوبة الى الغرير، وهو فحل لعله كان للنعمان بن المنذر. المرت : المفازة بلا نبات أو الأرض لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها. والنقيع : البئر الكثير الماء، أو هو من المياه البارد العذب .. الدجى : الظلمة.

(٢) أي البحتري أيضا.

قريب المدى، حتى يكون الى الندى　　عدو البنَى، حتى يكون معالي[1]

ورأيت بعضهم يرتكب هذا، فيزعم أنه سجع مداخل[2]، ونظيره من القرآن قوله تعالى : ﴿ **ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم** ﴾[3] وقوله : ﴿ **أمرنا مترفيها ففسقوا فيها** ﴾[4]، وقوله : ﴿ **أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله** ﴾[5]، وقوله : ﴿ **والتوراة والانجيل ورسولاً الى بني اسرائيل** ﴾[6]، وقوله : ﴿ **إني وهن العظم مني** ﴾[7]، ولو كان ذلك عندهم سجعاً لم يتحيروا فيه ذلك التحير، حتى سماه بعضهم سحراً، وتصرفوا فيما كانوا يسمُّونه به، ويصرفونه اليه، ويتوهَّمونه فيه، وهم في الجملة عارفون بعَجْزهم على طريقه، وليس القوم بعاجزين عن تلك الأساليب المعتادة عندهم، المألوفة لديهم.

والذي تكلمنا به في هذا الفصل كلام على جملة، دون التفصيل، ونحن نذكر بعد هذا في التفصيل ما يكشف عن مباينة ذلك وجوه السجع.

ومن جنس السجع المعتاد عندهم قول أبي طالب[8] لسيف بن ذي

---

(١) من قصيدته في مدح محمد بن عمر بن علي بن مر. المدى:الغاية. الندى : الكرم والجود. البنى : مقصور البناء : أي هو عدو كل بناء إلا إذا دعت اليه المعالي.

(٢) يسمِّي قدامة في نقد الشعر ما كان مثل هذا : الترصيع (ص ٣٢ نقد الشعر طبعة الخانجي)

(٣) من آية ٢٧ سورة النحل. تشاقون : تختلفون ويعادي بعضكم بعضاً، المشاقة : الخلاف والعداوة.

(٤) من آية ١٦ سورة الاسراء. أترفته النعمة أطغته والمترفون : المنعمون أو السادة. ويروى أمرنا بالتشديد يعني كثرنا. الفسق : الخروج عن أمر الله وارتكاب المنكرات.

(٥) من آية ٣٤ من سورة التوبة.

(٦) من الآيتين ٤٨ و ٤٩ من سورة آل عمران.

(٧) من آية ٤ من سورة مريم.

(٨) ينسب هذا لعبد المطلب.

يزن[1] : « أنبتك منبتاً طابت أرومته[2]، وعزت جرثومته[3]، وثبت أصله، وبسق[3]، ونبت زرعه، في أكرم موطن، وأطيب معدن ». وما يجري هذا المجرى من الكلام.

* * *

والقرآن مخالف لنحو هذه الطريقة، مخالفته للشعر وسائر أصناف كلامهم الدائر بينهم. ولا معنى لقولهم : إن ذلك[4] مشتق من ترديد الحمامة صوتها على نَسَقٍ واحد ورويٍّ غير مختلف، لأن ما جرى هذا المجرى لا يُبنى على الاشتقاق وحده؛ ولو بُني عليه لكان الشعر سجعاً لأن رويه يتفق ولا يختلف، وتتردد القوافي على طريقة واحدة، وأما الأمور التي يستريح اليها الكلام فإنها تختلف.

فربما كان ذلك يسمَّى قافية، وذلك إنما يكون في الشعر، وربما كان ما ينفصل عنده الكلامان يُسمَّى مقاطع السجع. وربما سمِّي ذلك فواصل، وفواصل القرآن — مما هو مختص بها — لا شركة بينه وبين سائر الكلام فيها ولا تناسب.

وأما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون عليهما السلام في موضع، وتأخيره عنه في موضع، لمكان السجع، ولتساوي مقاطع الكلام، فليس بصحيح، لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه، وهي أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً، من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة، وتتبيَّن فيه البلاغة، وأعيد كثير من القصص في مواضع

---

(١) في تهنئته بظفره على الحبشة (راجع الكلمة في ص ١٤٣ من كتابي الحياة الأدبية في العصر الجاهلي).
(٢) الأرومة : الأصل.
(٣) عزّت : علا.
(٤) أي السجع.

مختلفة، على ترتيبات متفاوتة، ونبهوا بذلك على عَجْزهم عن الإتيان بمثله، مبتدأ به ومكرَّرا. ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة، فعبَّروا عنها بألفاظ لهم، تؤدّي تلك المعاني وتحويها، وجعلوها بازاء ما جاء به، وتوصَّلوا بذلك إلى تكذيبه، وإلى مساواته فيما جاء به. كيف وقد قال لهم : ﴿ **فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾[1] ؟ فعلى هذا يكون المقصد ــ بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها ــ إظهار الإعجاز على الطريقين جميعاً، دون التسجيع الذي توهموه.

فان قال قائل : القرآن مختلط من أوزان كلام العرب، ففيه من جنس خطبهم، ورسائلهم، وسجعهم، وموزون كلامهم الذي هو غير مقفًّى، ولكنه أبدع فيه ضرباً من الإبداع لبراعته وفصاحته.

قيل : قد علمنا أن كلامهم ينقسم إلى : نظم، ونثر، وكلام مقفًّى غير موزون، ونَظْم موزون ليس بمقفى كالخطب والسجع، ونَظْم مقفًّى موزون له رويّ ... ومن هذه الأقسام ما هو سجية الأغلب من الناس، فتناوُلُهُ أقربُ، وسلوكه لا يتعذر ... ومنه ما هو أصعبُ تناولاً كالموزون عند بعضهم أو الشعر عند الآخرين... وكل هذه الوجوه لا تخرج عن أن يقع لهم بأحد أمرين : إما بتعمُّلٍ وتكلُّف وتعلُّم وتصنُّع، أو باتِّفاق من الطبع، وقَذْفٍ من النفس على اللسان للحاجة اليه، ولو كان ذلك مما يجوز اتفاقه من الطبائع، لم ينفكَّ العالم من قوم يتفق ذلك منهم، ويتعرض على ألسنتهم، وتجيش به خواطرهم، ولا ينصرف عنه الكل[2]، مع شدة الدواعي اليه، ولو كان طريقَه التعلُّمُ لتصنَّعوه ولتعلَّموه، فالمهلة لهم فسيحة والأمد واسع.

* * *

(١) آية ٣٤ من سورة الطور.

(٢) في الأصل : عند الكل.

وقد اختلفوا في الشعر كيف اتفق لهم ؟ فقد قيل : إنه اتفق في الأصل غير مقصود إليه، على ما يعرض من أصناف النظام في تضاعيف الكلام .. ثم لما استحسنوه واستطابوه، ورأوا أنه تألفه الأسماع، وتقبله النفوس، تتبَّعوه من بعد وتعمَّلوه. وحكي لي بعضهم عن أبي عمر[1] غلام ثعلب عن ثعلب[2] : أن العرب تعلِّم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول يوضع على بعض أوزان الشعر كأنه على وزن.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

ويسمون ذلك الوضع (المتير) واشتقاقه من المتر وهو الجذب أو القطع يقال : مترت الحبل بمعنى قطعته أو جذبته، ولم يذكر هذه الحكاية عنهم غيره فيحتمل ما قاله.

وأما ما وقع السبق اليه فيشبه أن يكون على ما قدمنا ذكره أولاً، وقد يحتمل ــ على قول مَنْ قال بأن اللغة اصطلاح ــ أنهم تواضعوا على هذا الوجه من النظم، وقد يمكن أن يقال مثله على المذهب الآخر، وأنهم وقفوا على ما يتصرف اليه القول : من وجوه التفاصح، أو تواقفوا هم بينهم على ذلك. ويمكن أن يقال : إن التواضع وقع على أصل الباب، وكذلك التوقيف، ولم يقع على فنون تصرُّف الخطاب، وان الله تعالى أجرى على لسان بعضهم من النظم ما أجرى، وفطنوا لحسنه فتتبعوه من بعد، وبنوا عليه وطلبوه، ورتبوا فيه المحاسن التي يقع الاضطرابُ بوزنها، وتهشُّ[3] النفوس إليها، وجمع[4] دواعيهم وخواطرهم على استحسان وجوهٍ من ترتيبها،

---

(١) هو غلام ثعلب محمد بن عبد الواحد المطرز اللغوي الثقة الحافظ وله مؤلفات كثيرة (٢٦١ ــ ٣٤٥ هـ) وله ترجمة في ص ٦٩ بغية الوعاة.

(٢) هو الإمام الجليل شيخ العربية ابو العباس ثعلب المتوفي عام ٢٩١ هـ.

(٣) اي ترتاح.

(٤) أي الله تعالى.

واختيار طرقٍ من تنزيلها، وعرفهم محاسن الكلام، ودلهم على كل طريقة عجيبة.

* * *

ثم أعلمهم عَجْزهم عن الإتيان بالقرآن، والقدر الذي يتناهَى اليه قدرهم، هو ما لم يخرج عن لغتهم، ولم يشذ من جميع كلامهم، بل قد عرض في خطابهم ووجدوا أن هذا إنما تعذر عليهم مع التحدِّي والتقريع الشديد، والحاجة الماسة اليه، مع علمهم بطريق وَضْع النظم والنثر وتكامل أحوالهم فيه، دلالة[1] على أنه اختصَّ[2] به، ليكون دلالة على النبوة، ومعجزة على الرسالة : ولولا ذلك لكان القوم إذا اهتدوا في الابتداء الى وَضْع هذه الوجوه التي يتصرف اليها الخطاب على براعته وحسن انتظامه، فلأن يقدروا بعد التنبيه على وجهه، والتحدي إليه، أولى أن يبادروا اليه، لو كان لهم اليه سبيل.

فلو كان الأمر على ما ذكره السائل لوجب أن لا يتحيروا في أمرهم، ولا تدخل عليهم شبهة فيما نابهم، ولكانوا يسرعون الى الجواب، ويبادرون الى المعارضة، ومعلومٌ من حالهم أن الواحد منهم يقصد الى الأمور البعيدة عن الوهم، والأسباب التي لا يحتاج اليها، فيكثر فيها من شعر ورجز، ونجدُ من يعينه على نقله عنه، على ما قدَّمنا ذكره : من وصف الإبل، ونتاجها، وكثير من أمرها، لا فائدة في الاشتغال به في دين ولا دنيا.

ثم كانوا يتفاخرون باللسن والذلاقة والفصاحة والدراية، ويتنافرون فيه، وتجري بينهم فيه الأسباب المنقولة في الآثار على ما لا يخفَى على أهله .. فاستدللنا بتحيُّرهم في أمر القرآن على خروجه عن عادة كلامهم، ووقوعه موقعاً يخرق العادات، وهذه سبيل المعجزات.

---

(١) في الأصل : دل، وهو تحريف.

(٢) أي على أن القرآن اختص بالإعجاز.

فبان بما قلنا أن الحروف التي وقعت في الفواصل متناسبة موقع النظائر التي تقع في الاسجاع، لا يخرجها عن حدِّها، ولا يدخلها في باب السجع. وقد بيَّنا أنهم يذمُّون كلَّ سجعٍ خرج عن اعتدال الاجزاء، فكان بعض مصاريعه كلمتين، وبعضها تبلغ كلمات، ولا يرون في ذلك فصاحة، بل يرونه عجزاً ... فلو رأْوا أن ما تلي عليهم من القرآن سَجَعٌ لقالوا : نحن نعارضه بسجع معتدل، فنزيد في الفصاحة على طريقة القرآن، ونتجاوز حدَّه في البراعة والحسن. ولا معنى لقول مَنْ قدر أنه ترك السجع تارة الى غيره ثم رجع اليه، لأن ما تخلل بين الأمرين يؤذن بأن وضع الكلام غير ما قدروه من التسجيع، لأنه لو كان من باب السجع لكان أرفع نهاياته وأبعد غاياته.

ولا بدَّ لمن جوَّز السجع فيه وسلك ما سلكوه من أن يسلم ما ذهب[1] اليه النظَّام[2]، وعباد بن سليمان[3]، وهشام الفوطي[4]، ويذهب مذهبهم في أنه ليس في نظم القرآن وتأليفه إعجاز، وأنه يمكن معارضته، وإنما صرفوا عنه ضرباً من الصرف. ويتضمَّن كلامه تسليم الخبط في طريقة النظم، وانه منتظم من فرق شتى، ومن أنواع مختلفة، ينقسم اليها خطابهم، ولا يخرج عنها، ويستهين ببديع نظمه، وعجيب تأليفه، الذي وقع التحدي اليه. وكيف يعجزهم الخروج عن السجع، والرجوع اليه، وقد علمنا عادتهم في خطبهم وكلامهم، أنهم كانوا لا يلزمون أبداً طريقة السجع والوزن ؟ بل كانوا يتصرفون في أنواع مختلفة، فاذا ادَّعوا على القرآن مثل ذلك لم يجدوا فاصلة بين نظمي الكلامين.

* * *

(١) قال ابن الخياط المعتزلي في ص ٢٧ من كتابه « الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد » عن ابن الراوندي . وكان (أي النظام) يزعم أن نظم القرآن وتأليفه ليسا بحجة للنبي ﷺ وان الخلق يقدرون على مثله.

(٢) هو أبو اسحاق ابراهيم بن سيار النظام المعتزلي المشهور المتوفي عام ٢٢١ هـ.

(٣) هو عباد بن سلمان الصيمري من أعلام المعتزلة.

(٤) هو هشام بن عمرو الشيباني المعتزلي من أعلام القرن الثالث الهجري.

فصل
في ذكر البديع من الكلام

إن سأل سائل فقال : هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما يتضمَّنه من البديع ؟

قيل : ذكر أهل الصنعة، ومن صنَّف في هذا المعنى، من صنعة البديع ألفاظاً نحن نذكرها، ثم نبيِّن ما سألوا عنه، ليكون الكلام وارداً على أمر مبيّن مقرّر، وبابٍ مصوّر.

(الاستعارة)

ذكروا أن من البديع في القرآن : قوله عزَّ ذكره ﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾[1]، وقوله : ﴿ **وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم** ﴾[2]، وقوله : ﴿ **واشتعل الرأس شيباً** ﴾[3]، وقوله : ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون** ﴾[4]، وقوله : ﴿ **أو يأتيهم عذاب يوم عقيم** ﴾[5]، وقوله : ﴿ **نور على نور** ﴾[6].

---

(١) سورة الاسراء من آية ٢٤.
(٢) سورة الزخرف آية ٤.
(٣) سورة مريم من آية ٤.
(٤) سورة يس آية ٣٧.
(٥) سورة الحج من آية ٥٥.
(٦) سورة النور من آية ٣٥.

وقد يكون البديع من الكلمات الجامعة الحكيمة كقوله : ﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾[1]، وفي الألفاظ الفصيحة كقوله : ﴿ **فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً** ﴾[2]، وفي الألفاظ الالهية كقوله : ﴿ **وله كل شي** ﴾[3]، وقوله : ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله** ﴾[4]، وقوله : ﴿ **لمن الملك اليوم لله الواحد القهار** ﴾[5].

ويذكرون من البديع من قول النبي ﷺ : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة[6] طار اليها »، وقوله : « ربنا تقبَّل توبتي واغسل حوبتي »[7]، وقوله : « غلب عليكم داء الأُمم قبلكم : الحسد والبغضاء، وهي الحالقة[8]، حالقة الدين لا حالقة الشعر »، وكقوله : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة »، وكقوله : « وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم[9] »، وكقوله : « ان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم[10] ».

وكقول علي بكر الصديق رضي الله عنه في كلام له قد نقلناه بعد هذا

---

(١) سورة البقرة من آية ١٧٩.
(٢) سورة يوسف من آية ٨٠.
(٣) سورة النمل من آية ٩١.
(٤) سورة النحل من آية ٥٣.
(٥) سورة غافر من آية ١٦.
(٦) الهيعة : الصيحة وصوت الصارخ من هاع يهيع.
(٧) الحوبة : المأثم والخطيئة.
(٨) أي المهلكة.
(٩) قال الشريف الرضي في المجازات النبوية ص ١٢١ : حصائد الألسنة من أحسن العبارات لأنه (ﷺ) شبه ما تحذف به ألسنتهم من الأقوال المذمومة التي تسوء عواقبها ويعود عليهم وبالها بالزارع الذي يستوبي عاقبة زرعه .. والمراد أن أكثر مصارع الأنام انما تكون بجرائر ألسنتهم عليهم.
(١٠) يلم : أي يقارب. الحبط : أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ لذلك نطونها ولا يخرج عنها ما فيها.

على وجهه[1]، وقوله لخالد بن الوليد : « احرص على الموت توهب لك الحياة »، وقوله « فر من الشرف يتبعك الشرف. »

وكقوله علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه في كتابه الى ابن عباس وهو عامله على البصرة : « أرغب راغبهم واحلل عقدة الخوف عنهم »، وقوله حين سئل عن قول النبي ﷺ : « إنما قال ذلك والدين في قلّ[2] فأما وقد اتسع نطاق الاسلام فكل امرئ وما اختار »، وسأل عليٌّ رضي الله عنه بعض كبراء فارس عن أحد ملوكهم عندهم فقال : لأردشير[3] فضيلة السبق غير أن أحمدهم أنوشروان[4]، قال : فأيّ أخلاقه كان أغلب عليه ؟ قال : الحلم والأناة. فقال عليٌّ رضي الله عنه : « هما توأمان ينتجهما علو الهمة ». وقال « قيمة كل امرئ ما يحسن »، وقال : « العلم قفل ومفتاحه المسألة ».

وكتب خالد بن الوليد الى مرازبة[5] فارس : « أما بعد فالحمد لله الذي فضَّ خدمتكم وفرَّق كلمتكم » والخدمة الحلقة المستديرة ولذلك قيل للخلاخيل[6] خدام ... وقال الحجاج : « دلوني على رجل سمين الأمانة » .. ولما عقدت الرئاسة لعبد الله بن وهب الراسي[7] على الخوارج أرادوه على الكلام، فقال : « لا خير في الرأي الفطير » وقال : « دعوا الرأي يغب ». وقال اعرابي في شكر نعمة : « ذاك عنوان نعمة الله عز وجل »، ووصف اعرابي قوماً فقال : « إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام وإذا

---

(١) ستأتي خطبة له وعهد من عهوده.

(٢) أي قلة.

(٣) من ولد ساسان بن أردشير مؤسس الدولة الساسانية.

(٤) من الأكاسرة الساسانية مكث في الحكم ٤٨ عاما.

(٥) أي قواد

(٦) قال الشاعر : « وتبدي لذلك العذارى الخداما ».

(٧) أزدي ومن ائمة البياضية أدرك النبي وخرج على علي وقتل في موقعه النهروان عام ٣٨ هـ

تصافحوا بالسيوف قعد الحمام »، وسئل اعرابي عن رجل فقال : « صفرت عياب الود بيني وبينه بعد امتلائها، واكفهرت وجوه كانت بمائها[١] »، وقال آخر : « من ركب ظهر الباطل نزل دار الندامة »، وقيل لرؤبة : كيف خلفت ما وراءك ؟ فقال : « التراب يابس، والمال عابس[٢] ».

ومن البديع في الشعر طرق كثيرة قد نقلنا منها جملة لتستدل بها على ما بعدها، فمن ذلك قول امرئ القيس :

وقد اغتدي والطير في وكناتها   بمنجرد قيد الأوابد هيكل[٣]

قوله : « قيد الأوابد » عندهم من البديع ومن الاستعارة، ويرونه من الألفاظ الشريفة، وعنى بذلك أنه إذا أرسل هذا الفرس على الصيد صار قيداً لها، وكانت بحالة المقيد من جهة سرعة إحضاره، واقتدى به الناس، واتبعه الشعراء فقيل : « قيد النواظر » و « قيد الألحاظ » و « قيد الكلام » و « قيد الحديث » و « قيد الرهان »، وقال الأسود بن يعفر :

بمقلص عتد جهيز شده   قيد الأوابد والرهان جواد[٤]

وقال أبو تمام :

لها منظر قيد الأوابد لم يزل   يروح ويغدو في خفارته الحب[٥]

---

(١) صفرت : خلت. والعياب جمع عيبة وهي ما تجعل فيه الثياب، واكفهر وجهه انقبض وكلح حتى ما يرى به أثر بشر أو فرح، وقوله : بمائها أي ماء البشر.

(٢) ويروى : المراد : بدل التراب. والمراد : المكان الذي يذهب فيه ويجاء. ويروى بدل : المال. المرعى .. ورؤبة هو الراجز المشهور المتوفى عام ١٤٥ هـ.

ملاحظة : أغلب المثل المذكورة هنا مأخوذة من كتاب البديع لابن المعترض ٢٢ وما بعدها.

(٣) وكناتها أوكارها. منجرد قصير الشعر وذلك عتق في الفرس. قيد الأوابد يقيد الأوابد وهي الخمر الوحشية بلحاقه اياها على سرعتها. الهيكل العظيم الخلق.

(٤) فرس مقلص طويل القوائم منضم البطن. عقد بفتح أوله وثانيه أو كسره : شديد تام الخلق سريع الوثبة معد للجري ليس فيه اضطراب ولا رخاوة. قال أبو عبيدة : جهيز شده سريع العدو ... والاسود شاعر جاهلي فحل.

(٥) الخفارة : الحراسة.

وقال آخر :

الحاظه قيد عيون الورى فليس طرف يتعداه

وقال آخر :

قيد الحسن عليه الحدقا[1]

وذكر الأصمعي[2] وأبو عبيدة[3] وحماد[4]، وقبلهم أبو عمرو[5] أنه[6] أحسن في هذه اللفظة[7]، وأنه اتبع فيها فلم يلحق. وذكروه[8] في باب الاستعارة البليغة. وسماها بعض أهل الصنعة باسم آخر، وجعلوها من باب الإرداف[9]، وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ هو تابع له وردف. وقالوا ومثله قوله[10] :

نؤوم الضحى لم تنتطِقْ عن تَفَضُّلِ[11]

وإنما أرادت ترفَهَا بقوله « نؤوم الضحى »[12]؛ ومن هذا الباب قول الشاعر[13] :

---

(١) الحدق : جمع حدقة وحدقة العين : سوادها الأعظم.

(٢) هو الامام اللغوي المشهور المتوفى ٢١٦ هـ

(٣) هو صاحب « مجاز القرآن » غير وتوفي ٢٠٧ هـ

(٤) هو الامام الراوية المشهور المتوفى ١٥٦ هـ

(٥) هو ابو عمرو بن العلاء الامام الراوية الاديب الناقد المتوفى ١٥٤ هـ

(٦) أي امرأ القيس

(٧) وهي « قيد الأوابد »

(٨) أي ذكروا هذا القول

(٩) يراد به باب الكناية

(١٠) أي مثل قول امرئ القيس السابق : قيد الأوابد الخ.

(١١) لم تنتطق عن تفضل أي بعد تفضل والتفضل : ليس الفضلة وهو ثوب واحد يلبس للخفة في العمل.

(١٢) فهو كناية عن النعمة والترفه.

(١٣) هو عمر بن أبي ربيعة الشاعر الأموي المتوفى عام ٩٣ هـ وقوله بعيدة مهوى القرط كناية عن طول قامتها.

بعيدة مهوى القرط إما لنوفلٍ   أبوها وإما عبد شمس وهاشمِ

وإنما أراد أن يصف طول جيدها، فأتى بردفه.

ومن ذلك[1] قول امرئ القيس :

وليلٍ كمَوْجِ البحرِ أَرْخَى سدولَهُ[2]

وذلك من الاستعارة المليحة. ويجعلون من هذا القبيل ما قدمنا ذكره من القرآن : ﴿ **واشتعل الرأس شيبا** ﴾[3]، ﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾[4].

* * *

(التشبيه)

ومما يعدونه من البديع **التشبيه الحسن** كقول امرئ القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا   وأرحلنا الجزعُ الذي لم يثقبِ[5]

وقوله :

كأن قلوبَ الطير رطباً ويابسا   لدى وكرها العناب والحشفُ البالي[6]

واستبدعوا تشبيهه شيئين بشيئين على حسن تقسيم، ويزعمون أن أحسن ما وُجد في هذا للمحدثين قول بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبُهْ[7]

---

(١) أي ومن البديع

(٢) السدول : الستور. وعجز البيت : عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي

(٣) سورة مريم من آية ٤.

(٤) سورة الاسراء من آية ٢٤.

(٥) الجزع الخرز اليماني وهو الذي فيه بياض وسواد.

(٦) البيت لامرئ القيس أيضا ـــ العناب : ثمر أحمر. الحشف : ما يبس من التمر ولم يكن له طعم ولا نوى .. الضمير في « وكرها » للعقاب الذي شبه الشاعر فرسه به.

(٧) النقع : الغبار. مثار : اسم مفعول من أثار الريح الغبار.

وقد سبق امرؤ القيس الى صحة التقسيم في التشبيه، ولم يتمكن بشار إلا من تشبيه إحدى الجملتين بالأخرى دون صحة التقسيم والتفصيل.
وكذلك عدُّوا من البديع قول امرئ القيس في أذني الفرس :

وسامعتان يعرف العتق فيهما   كسامعتي مذعورة وسط ربربِ[1]

واتبعه طرفة فقال فيه :

وسامعتان يعرف العتق فيهما   كسامعتي شاة بحومل مفردِ[2]

ومثله قول امرئ القيس في وصف الفرس :

وعينان كالماويتين ومحجر   الى سند مثل الصفيح المنصبِ[3]

وقال طرفة في وصف عيني ناقته :

وعينان كالماويتين استكنتا   بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد[4]

ومن البديع في التشبيه قول امرئ القيس :

له أيطلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ   وإرخاءُ سرحانٍ وتقريبُ تتفلِ[5]

وذلك في تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء أحسن فيها.

ومن التشبيه الحسن في القرآن قوله تعالى : ﴿ **وله الجوار المنشآت**

---

(١) سامعتان : أي أذنان سامعتان. العتق : الأصالة وهو أيضاً : الكرم والجمال. مذعورة : أي خائفة. الربرب : القطيع من بقر الوحش.

(٢) حومل : موضع.

(٣) الماوية : المرآة الصافية. المحجر : نقرة العين. الصفيح المنصب : ألواح الحجارة الثابتة.

(٤) استكن : اختبأ. والحجاج. منبت شعر الحاجب. والقلت : وقبة العين وأصله نقرة في الجبل تمسك الماء.

(٥) الأيطل : الخاصرة. الارخاء : ضرب من العدو. السرحان : الذئب. التقريب : وضع الرجلين موضع اليدين في العدو. والتتفل : ولد الثعلب. يريد أنه سريع الخطأ صلب القوائم.

في البحر كالأعلام ﴾[1]، وقوله تعالى : ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾[2]، ومواضع نذكرها بعد هذا.

* * *

ومن **البديع في الاستعارة** قول امرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سُدُولَهُ   عليَّ بأنواعِ الهموم ليبتلي
فقلتُ له لما تمطَّى بصلبِهِ   وأردفَ أعجازاً وناءَ بكلكلِ [3]

وهذه كلها استعارات أتى بها في ذكر طول الليل. ومن ذلك قول النابغة :

وصدر أراح الليلُ عازبَ همِّه   تضاعفَ فيه الحزنُ مِن كلِّ جانبِ [4]

فاستعاره من إراحة الراعي إبله الى موضعها التي تأوي اليها بالليل. وأخذ منه ابن الدمينة فقال :

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى   ويجمعني والهم والليل جامع [5]

ومن ذلك قول زهير :

صحا القلب عن ليلى وأقصر باطله   وعرى أفراس الصبا ورواحله [6]

* * *

من ذلك قول امرئ القيس :

سموتُ إليها بعد ما نام أهلهُا   سموَّ حبابِ الماءِ حالا على حالِ

---

(١) سورة الرحمن آية ٢٤ ــ العلم : الجبل.

(٢) سورة الصافات آية ٤٩.

(٣) السدول : الستور. يبتلي : يختبر. التمطي : التمدد. الصلب الظهر. الأرداف : المآخير. ناء : نهض. الكلكل : الصدر.

(٤) اراح : رد. عازب بعيد من عزب : بعد وغاب.

(٥) ويروى : بالهم والليل. وينسب لقيس بن ذريح كما في الأمالي :

(٦) صحا : أفاق. أقصر : وقف. أفراس جمع فرس.

وأخذه أبو تمام فقال :

سموَّ عباب الماء جاشَتْ غواربُه

وإنما أراد امرؤ القيس إخفاء شخصه[1] ... ومن ذلك قوله :

كأني وأصحابي على قرن أغفرا[2]

يريد أنهم غير مطمئنين.

ومن ذلك ما كتب اليَّ الحسن بن عبدالله بن سعيد، قال : أخبرني أبي، قال اخبرنا عسل بن ذكوان، أخبرنا أبو عثمان المازني[3] قال : سمعت الأصمعي يقول : أجمع أصحابنا أنه لم يقل أحسن ولا أجمع من قول النابغة :

فانك كاللَّيلِ الذي هُو مُدْركي وإن خلتُ أن المنتأى عنكَ واسِعُ

قال الحسن بن عبدالله : وأخبرنا محمد بن يحيى، أخبرنا عون بن محمد الكندي، أخبرنا قعنب بن محرز قال : سمعت الأصمعي[4] يقول : سمعت ابا عمرو[5] يقول : كان زهير[6] يمدح السوق[7]، ولو ضرب على أسفل قدميه مئتا دقل[8] على أن يقول كقول النابغة :

فانك كالليلِ الذي هُو مُدْرِكي وإن خلتُ أنَّ المنتأى عنك واسعُ

لما قال : يريد أن سلطانه كالليل يصل إلى كل مكان. واتبعه الفرزدق فقال :

(١) في بيته السابق : سموت اليها الخ.
(٢) البقرة الوحشية.
(٣) امام نحوي مشهور توفي عام ٢٤٩ هـ
(٤) هو الامام الراوية المشهور المتوفي ٢١٦ هـ
(٥) هو ابو عمرو بن العلاء المتوفي عام ١٥٤ هـ
(٦) الشاعر الجاهلي المشهور
(٧) جمع سوقة وهم عامة الناس
(٨) الدقل أردا التمر

ولو حملتني الريح ثم طلبتني — لكنت كشيءٍ أدركني مقادره

فلم يأت بالمعنى ولا اللفظ على ما سبق اليه النابغة، ثم أخذه الأخطل فقال :

وإن أمير المؤمنين وفعله — لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

وقد رُوي نحو هذا عن النبي ﷺ : « نصرت بالرعب، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل »، وأخذه علي بن (جبلة) فقال :

وما لامرئ حاولته عنك مهرب — ولو كان في جوف السماء المطالعُ[1]

بلى هاربٌ لا يهتدي لمكانه — ظلام ولا ضوء من الصبح طالعُ

ومثله قول سلم الخاسر :

فأنت كالدهر مبثوثاً حبائله — والدهر لا ملجأ منه ولا هربُ

ولو ملكت عنان الريح أصرفه — في كل ناحية ما فاتك الطلبُ

فأخذه البحتري فقال :

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن — ينجيهم عن خوف بأسك مهربُ

* * *

ومن **بديع الاستعارة** قول زهير :

فلما وردن الماءَ زرقاً جمامه — وضعن عصي الحاضر المتخيم[2]

---

(١) رواية معاهد التنصيص : ولو رفعته في السماء المطالع.

(٢) الزرق : شدة الصفاء. الجمام : جمع جم وهو الماء أو ما اجتمع منه في الحوض. وضعن كناية عن الاقامة. التخيم : ابتناء الخيمة.

وقول الأعشى :

وان عتاق العيس سوف يزوركم ثناء على أعجازهـن معلـق[1]

ومنه أخذ نصيب[2] **فقال** :

فعاجوا فأثنوا بالـذي أنت أهلُهُ ولو سكتوا أثنَتْ عليك الحقائبُ[3]

ومن ذلك قول تأبط شراً[4] :

فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا به كدحة والموت خزيان ينظر[5]

ومن **الاستعارة في** القرآن كثير، كقوله : ﴿ **وانه لذكر لك ولقومك** ﴾[6] يريد ما يكون الذكر عنه شرفا. وقوله : ﴿ **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة** ﴾[7]، قيل دين الله أراد، وقوله : ﴿ **اشتروا الضلالة بالهدى، فما ربحت تجارتهم** ﴾[8].

* * *

(الغلو)

ومن البديع عندهم **الغلو**[9] : كقول النمر بن تولب[10] :

---

(١) فرس عتيق أي جواد رائع، وكذلك الناقة، والجمع عتاق. العيس : الإبل البيض التي يخالط بياضها شيء من الشقرة. الثناء : الحمد : اعجاز : جمع عجز وهو مؤخر الشيء.

(٢) شاعر أموي مشهور توفي عام ١٠٠ هـ.

(٣) عاج بالمكان : أقام به. الحقائب جمع حقيبة وهي ما يصان فيها الشيء.

(٤) شاعر جاهلي مشهور.

(٥) الكدح : الخدش. الصفاة : صخرة ملساء والجمع صفا. الخزي : الذل والهوان.

(٦) سورة الزخرف آية ٤٤.

(٧) سورة البقرة من آية ١٣٨.

(٨) سورة البقرة من آية ١٦.

(٩) هو قسم من أقسام المبالغة، وهي أن يدّعي لوصف بلوغة في الشدة أو الضعف حدا مستحيلا أو مستبعدا لئلا يظن أنه غير متناه في الشدة أو الضعف.

(١٠) شاعر جاهلي فحل.

أبقى الحوادث والأيـام من نمـر   إسنـاد سيـف قديـم أثـره بادي
تظل تحفر عنـه ان ضربت بـه   بعد الذراعين والقيدين والهادي[1]

وكقول النابغة :

تقدُّ السلوقي المضاعف نسجـه   ويوقدن بالصفاح نار الحباحبِ[2]

وكقول عنترة :

فازورَّ من وَقْـع القنـا بلبانــه   وشكـا إليَّ بعَبْـرة وتحمحُــمِ[3]

وكقول أبي تمام :

لو يعلم الركن مَنْ قد جاء يلثمه   لخرَّ يلثـم منـه موطـئ القـدمِ

وكقول البحتري :

ولو أن مشتاقاً تكلّـف فوق ما   في وسعه، لمشى اليك المنبـرُ[4]

ومن هذا الجنس في القرآن : ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾[5]، وقوله : ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا** ﴾[6] وقوله : ﴿ **تكاد تميز من الغيظ** ﴾[7].

---

(١) الأثر على مثال الأمر : فرند السيف، والأثر بفتحين ضربة السيف وهو المراد وسكنت الثاء لوزن الشعر. الهادي: العنق. والمعنى في البيت الثاني أنك إن ضربت عدوك بالسيف شطره السيف وشق قيده وراحلته وحفر في الأرض. يريد مضاء السيف ونفاذه.

(٢) السلوقي اي الدرع السلوقي منسوب الى بلد بالشام. الصفاح : الحجارة العراض. نار الحباحب. شعاع يضيء بالليل من ذباب اسمه الحباحب.

(٣) العبرة : تردد البكاء في الصدر. القنا : الرماح. اللبان بفتح اللام : الصدر. التحمحم الصوت المتقطع دون الصهيل.

(٤) من قصيدته في مدح المتوكل ووصف خروجه لصلاة عيد الفطر، ومطلعها. « بالبر صمت وأنت افضل صائم ».

(٥) سورة ق آية ٣٠.

(٦) سورة الفرقان آية ١٢.

(٧) سورة الملك من آية ٨.

(المماثلة)

ومما يعدُّونه من البديع **المماثلة**[1]. وهو ضرب من الاستعارة، وذلك أن يقصد الاشارة إلى معنى، فيضع ألفاظا تدل عليه، وذلك المعنى بألفاظه مثال للمعنى الذي قصد الاشارة اليه[2]، نظيره من المنثور أن يزيد بن الوليد بلغه أن مروان بن محمد يتلكأ عن بيعته، فكتب اليه : « أما بعد فاني أراك تقدِّم رِجْلاً وتؤخِّر أخرى فاعتمد على أيتهما شئت »، وكنحو ما كتب به الحجاج الى المهلب : « فان أنت فعلت ذاك والا أشرعت اليك الرمح ». فأجاب المهلب : « فان أشرع الأمير الرمح قلبت اليه ظهر المجن »، وكقول زهير :

ومن يَعْصِ أطرافَ الزجاج فإنه ... يُطِيعُ العوالي رُكِّبت كل لهذمِ[3]

وكقول امرئ القيس :

وما ذرَّفت عيناكِ إلا لتضربي ... بسهميك في أعشار قلب مقتل[4]

وكقول عمرو بن معدي كرب :

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم ... نطقت، ولكن الرماح أجرتِ[5]

---

(١) يريد به الاستعارة التمثيلية المعروفة في البيان.

(٢) كذلك فسرها أبو هلال العسكري. وهو غير المعنى الذي اصطلح عليه المتأخرون حيث جعلوها نوعا من السجع وعرفوها بأن تتماثل الفاظ الكلام أو بعضها في الوزن دون التقفية، كقوله تعالى : **﴿ وأتيناهما الكتاب المستقيم ﴾ ﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾**.

(٣) الزجاج : جمع زج وهو الحديد المركب في أسفل الرمح. السنان اللهذم : السنان الطويل. عالية الرمح ضد سافلته والجمع العوالي، وكان العرب إذا التقت فئتان منهم سددت كل واحدة منهما زجاج الرمح نحو صاحبتها وسعى الساعون بالصلح فإن أبتا قلبت كل واحدة منهما الرماح واقتتلتا بالاسنة.

(٤) ذرف الدمع. سال. السهمان يريد بهما عينيها. المقتل المذلل. الأعشار : يريد به قطع القلب.

(٥) الجراد عود يعرض في فم الفصيل أو يشق به لئلا يرضع، يقول : قَوْمي لم يطعنوا بالرماح فأثنى عليهم ولكنهم فروا فأمسكت كالمجر الذي في فمه جرار (٤٥ جـ ١ البيان والتبيين للجاحظ).

وكقول القائل :

بني عمِّنا لا تذكروا الشعر بعدما دفنتم بصحراء الغمير القوافيا

وكقول الآخر :

أقول وقد شدُّوا لساني بنسعة أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا[1]

ومن هذا الباب في القرآن (كثير)، كقوله : ﴿ **فما أصبرهم على النار** ﴾[2]، وكقوله : ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾[3] قال الأصمعي : أراد البدن، قال : وتقول العرب، « فدَى لك ثوباي » يريد نفسه، وأنشد :

ألا أبلــغ أبــا حفص رسولاً فِدى لك من أخي ثقة إزاري

* * *

(المطابقة)

ويرون من البديع أيضاً ما يسمونه **المطابقة** [4]، وأكثرهم على أن معناها أن يذكر الشيء وضده : كالليل والنهار، والسواد والبياض، واليه ذهب الخليل بن احمد[5] والأصمعي، ومن المتأخرين عبد الله بن المعتز[6]، وذكر ابن المعتز من نظائره من المنثور ما قاله بعضهم : « أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فادخلتنا في ضيق الضمان ».

ونظيره من القرآن : ﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾[7]، وقوله :

---

(١) النسع سير ينسج عريضا على هيئة أعنة النعال تشد به الرجال والقطعة منه نسعة

(٢) سورة البقرة من آية ١٧٥.

(٣) سورة المدثر آية ٤.

(٤) راجعها في ص ٧٤ وما بعدها من كتابي شرح البديع لابن المعتز

(٥) هو امام العربية المشهور المتوفي ١٧٤ هـ

(٦) الخليفة العباسي الشاعر المشهور المتوفي ٢٩٦ هـ

(٧) سورة البقرة من آية ١٧٩

﴿ **يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحي** ﴾[1]؛ وقوله : ﴿ **يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل** ﴾[2]، ومثله كثير جدا.

وكقول النبي ﷺ للأنصار : « إنكم تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع ».

وقال آخرون : بل المطابقة أن يشترك معنيان بلفظة واحدة، واليه ذهب قدامة بن جعفر الكاتب[3]، فمن ذلك قول الأفوه الأودي :

وأقطع الهوجل مستأنسا بهوجل مستأنس عنتريس[4]

عنى بالهوجل الأول الأرض وبالثاني الناقة. ومثله قول زياد الأعجم :

ونبئتهم يستنظرون بكاهل وللؤم فيهم كاهل وسنام[5]

ومثله قول أبي دواد :

عهدت لها منزلاً دائراً وآلاً على الماء يحملن آلا

فالآل الأول : أعمدة الخيام تنصب على البئر للسقي، والآل الثاني السراب، وليس عنده[6] قول مَنْ قال : « المطابقة إنما تكون باجتماع الشيء وضده » بشيء ... ومن المعنى الأول قول الشاعر :

أهين لهم نفسي لأُكرمها بهم ولن تكرمَ النفسُ التي لا تهينها

---

(١) سورة الروم من آية ١٩

(٢) من آية ٦١ سورة الحج، وهي في آية ٢٩ سورة السجدة، وفي آية ١٣ سورة فاطر، وفي آية ٦ سورة الحديد.

(٣) هو الأديب الناقد المشهور المتوفي عام ٣٣٧ هـ ومؤلف نقد الشعر المشهور

(٤) الهوجل المفازة، والناقة ايضا. العنتريس. القوية الصلبة

(٥) كاهل : قبيلة، والحارك وهو ما بين الكتفين

(٦) أي عند قدامة ومن وافقه كصاحب الصناعتين

ومثله قول امرئ القيس :

وتردَى على صمٍّ صلابٍ ملاطس   شديدات عقد لينات متانِ [1]

وكقول النابغة :

ولا يحسبون الخيرَ لا شرَّ بعده   ولا يحسبون الشرَّ ضربةَ لازبِ [2]

وكقول زهير وقد جمع فيه طباقين :

بعزمة مأمور مطيع، وآمر   مطاع، فلا يُلفَى لحزمهم مثلُ

وكقول الفرزدق [3] :

والشيبُ ينهضُ في الشباب كأنه   ليلٌ يصيح بجانبَيْهِ نهارُ

ومما قيل فيه ثلاث تطبيقات قول جرير [4] :

وباسط خيرٍ فيكم بيمينِهِ   وقابض شرٍّ عنكم بشماليا

وكقول رجل من بلعنبر [5] :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة   ومن إساءةِ أهلِ السوء إحسانًا

ورُوي عن الحسن [6] بن علي رضي الله عنهما أنه تمثل بقول القائل :

فلا الجود يُفني المالَ والجدُّ مقبلٌ   ولا البخلُ يُبقي المالَ والجدُّ مدبرُ

---

(١) حجر أصم أي صلب مصمت، ملاطس : قوية العقد : العقد من عقد الحبل فانعقد وعقد اللبن : غلظ. متن الشيء : صلب فهو متين والجمع متان

(٢) اللازب : الثابت اللازم

(٣) شاعر أموي مشهور توفي عام ١١٠ هـ

(٤) هو الشاعر الأموي العظيم المتوفي عام ١١١ هـ

(٥) أي من بني العنبر — وهم قبيلة — والشاعر هو قريظ بن أنيف شاعر إسلامي ومن شعراء الحماسة (٢٧ جـ الحماسة)

(٦) هو الخليفة العلوي المتوفي عام ٥٧ هـ

وكقول الآخر :

فسرَى كاعلاني وتلك سجيَّتي وظلمة ليلي مثل ضوءِ نهاريا

وكقول قيس بن الخطيم[1] :

إذا أنت لم تنفع فَضُرَّ، فانما يُرجى الفتى كما يضرَّ وينفعا

وكقول السموأل :

وما ضرَّنا أنَّا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ، وجارُ الأكثرين ذليلُ

فهذا باب يرونه من البديع.

* * *

(التجنيس)

وباب آخر وهو **التجنيس**[2]، ومعنى ذلك أن تأتي بكلمتين متجانستين، فمنه ما تكون الكلمة تجانس الأخرى في تأليف حروفها واليه ذهب الخليل[3].

ومنهم مَنْ زعم أن المجانسة أن تشترك اللفظتان على جهة الاشتقاق، كقوله عز وجل : ﴿ **فأقم وجهك للدين القيم** ﴾[4]، وكقوله : ﴿ **وأسلمت مع سليمان** ﴾[5] وكقوله : ﴿ **يا أسفا على يوسف** ﴾[6]،

---

(١) من الشعراء المخضرمين وتوفي عام ٧ هـ

(٢) راجع ذلك في ص ٥٥ من شرحي على كتاب « البديع لابن المعتز » وكثير من هنا مأخوذ من كتاب البديع

(٣) هو الخليل بن أحمد إمام اللغة والأدب المتوفي نحو عام ١٧٤ هـ

(٤) سورة الروم من آية ٤٣

(٥) سورة النمل من آية ٤٤

(٦) سورة يوسف من آية ٨٤

وكقوله : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن** ﴾[1]، وكقوله : ﴿ **وهم ينهون عنه وينأون عنه** ﴾[2] وكقول النبي ﷺ : « أسلم[3]، سالمها الله، وغفار[3]، غفر الله لها، وعصية[3] عصت الله ورسوله »، وكقوله : « الظلم ظلمات يوم القيامة » وقوله : « لا يكون ذو الوجهين وجيها عند الله » ... وكتب بعض الكتاب : « العذر مع التعذر واجب فرأيك فيه ». وقال معاوية[4] لابن عباس[5] : ما لكم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم ؟ فقال : كما تصابون في بصائركم؛ وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « هاجروا ولا تهجروا »، ومن ذلك قول قيس بن عاصم :

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة
كسته نجيعاً من دمِ الجوف أشكلا[6]

وقال آخر :

أمل عليها بالبلى الملوان[7]

وقال الآخر :

وذاكم أن ذلَّ الجارِ حالفكم   وأن أنفَكم لا تعرف الأنفا[8]

---

(١) من آية ٨٢ سورة الأنعام
(٢) من آية ٢٦ سورة الأنعام
(٣) أسماء قبائل
(٤) أول خلفاء بني أمية توفي عام ٦٠ هـ
(٥) هو عبدالله بن عباس م ٦٨ هـ
(٦) الحوفزان : اسم قائد. النجيع : الدم الأحمر. الأشكل : المختلط بغيره. حفزه : دفعه من خلفه
(٧) الملوان : الليل والنهار
(٨) هو في البديع منسوب لرجل من بني عبس (ص ٥٨ البديع). الأنف : الاستنكاف والعزة

وكتب الى بعض مشايخنا قال : أنشدنا الأخفش[1] عن المبرد[2] عن التوزي[3] :

وقالـوا : حمامـات فحـم لقاؤهـا   وطلـح فزيـرت والمطـي طلـــوح
عقاب بأعقابٍ من النَّأي بعدما   جرت نية تنسي المحب طروح
وقال صحابي : هدهد فوق بانة   هدًى وبيـان بالنجـــاح يلـــوح
وقالوا : دم، دامت مواثيق عهده   ودام لنا حسن الصفاء صريـح.

وقال آخر :

أقبلن من مصرَ يبارين البرى[4]

وقال القطامي[5] :

ولمـا ردهـــا في الشول شالت   بذيَّالٍ يكـــونُ لهـــا لفاعـــا

وقد يكون التجنيس بزيادة حرف أو ما يقارب ذلك، كقول البحتري :

هل لما فات من تلاقٍ تلاف   أم لشاكٍ من الصبابـــة شافِ

وقال ابن مقبل :

يمشين هيل النقا[6] مالت جوانبه   ينهال حيناً وينهـاه الثـرى حينـا

---

(١) هو أبو الحسن الأخفش م ٣١٥ هـ

(٢) هو إمام اللغة والأدب المتوفي ٢٨٥ هـ

(٣) من رجال اللغة والأدب توفي نحو عام ٢٦٠ هـ

(٤) يصف إبله ـــ البرى جمع برة وهي الحلقة في أنف البعير.

(٥) شاعر اموي توفي عام ١١٤ هـ. شال الميزان ارتفعت إحدى كفتيه. الشول جمع شائلة وهي الناقة التي تشول بذنبها عند إرادة اللقاح ولا لبن فيها. والشائلة من الإبـل ما اتى عليها من حملها أو من وضعها سبعة أشهر فجف لبنها جمعها شول على غير قياس. الذيال : الذيل الطويل. اللفاع : ما يلتفع به

(٦) النقا : كثيب الرمل

وقال زهير :

هم يضربون حبيك البيضِ إذ لحقوا   لا ينكلون اذا ما استلحموا أو حموا[1]

ومن ذلك قول أبي تمام :

يمدون من أيدٍ عواصٍ عواصم   تصولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضب[2]

وأبو نواس يقصد في مصراعي مقدمات شعره هذا الباب كقوله :

ألا دارها بالماء حتى تلينها   فلن تكرم الصهباء حتى تهينها

وكذلك قوله :

ديار نوار ما ديار نوار   كسونك شجواً هن منه عوار

وكقول ابن المعتز :

سأثني على عهد المطيرة والقصرِ   وأدعو لها بالساكنين وبالقطر

وكقوله :

هي الدار إلا أنها منهم قفر   وأني بها ثاوٍ وأنهم سفر[3]

وكقوله :

للأماني حديث يغر   ويسوء الدهر مَنْ قد يسر

وكقول المتنبي :

وقد أراني الشباب الروح في بدني   وقد أراني المشيب الروح في بدلي

---

(١) البيض جمع بيضة وهي الخوذة تلبس في الحرب. نكل : أحجم

(٢) عواص : جمع عاصية. من عصاه إذا ضربه بالعصا. والمراد بها هنا السيف، أو من العصيان بمعنى عواص للاعداء. عواصم. حافظات للأولياء جمع عاصمة. قواضب : قواطع. قواض من قضى عليه اذا قتله. تصول : تسطو

(٣) الثاوي : المقيم .. السفر. القوم المسافرون

وقد قيل إن من هذا القبيل قوله عز وجل : ﴿ **خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون** ﴾[1]، وقوله : ﴿ **قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه** ﴾[2].

* * *

(المقابلة)

ويعدون من البديع **المقابلة**، وهي : أن يوفق بين معان ونظائرها والمضاد بضده، وذلك مثل قول النابغة الجعدي[3] :

فتى تم فيه ما يسر صديقه   على أن فيه ما يسوء الأعاديا

وقال تأبط شرا :

أهز به في ندوة الحيِّ عطفه   كما هز عطفي بالهجان الأوارك[4]

وكقول الآخر :

وإذا حديث ساءني لم أكتئب   وإذا حديث سرني لم أسرر

وكقول الآخر :

وذي اخوة قطعت أقران بينهم   كما تركوني واحداً لا أخا ليا

ونظيره من القرآن : ﴿ **ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون** ﴾[5].

* * *

(١) من آية ٣٧ سورة الأنبياء

(٢) آية ١٤ وبعض آية ١٥ سورة الزمر

(٣) شاعر مخضرم توفي عام ٨٠ هـ

(٤) الهجان : النوق الكريمة. الأوارك: القويات الأوراك ــ الندوة : النادي. العطف : جانب الرجل من لدن رأسه إلى وركيه

(٥) بعض آية ٥٣ وآية ٥٤ من سورة النحل.

(الموازنة)

ويعدون من البديع **الموازنة**[1] وذلك كقول بعضهم : اصبر على حر اللقا ومضض النزال وشدة المصارع، وكقول امرئ القيس :

سليم الشَّظا عبل الشوى شنج النَّسا

ونظيره من القرآن : ﴿ **والسماء ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهد ومشهود** ﴾[2].

(المساواة)

ويعدون من البديع **المساواة** وهي أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وذلك يُعَدُّ من البلاغة، وذلك كقول زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقـةٍ   وإن خالها تَخْفَى على الناس تعلم[3]

وكقول جرير :

فلو شاء قومي كان حلمي فيهم   وكان على جهال أعدائهم جهلي

وكقول الآخر :

إذا أنت لم تقصر عن الجهل والخنا   أصبت حليمـا أو أصابك جاهـل[4]

وكقول الهذلي[5] :

فلا تجزعن من سنَّةٍ أنت سِرْتَهَا   وأول راضٍ سيـرة من يسيرهـــا

---

(١) الموازنة : تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية نحو :﴿ ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة ﴾وكقول امرئ القيس.

افـــــــاد فساد، وقـــــــــاد فزاد   وساد فجـــــــاد، وعـــــــــاد فافضل

(٢) الآيات ١ و ٢ و ٣ من سورة البروج

(٣) الخليقة : الطبيعة

(٤) الخنا : الفحش والبذاء

(٥) هو أبو صخر الهذلي الشاعر المخضرم المشهور

وكقول الآخر :

فان هم طاوعــوك فطاوعيهـــم   وان عاصوك فاعصي مَنْ عصاك

ونظير ذلك في القرآن كثير.

* * *

(الاشارة)

ومما يعدونه من البديع **الاشارة**[1] وهو اشتمال اللفـظ القليـل علـى المعاني الكثيرة، وقال بعضهم في وصف البلاغة : لمحة دالة[2]. ومن ذلك قول طرفة[3] :

فظلَّ لنـا يوم لذيــذ بنعمـــة   فقـل في مقيـل نحسه متغيب

وكقول زيد الخيل :

فخيبـة مَنْ يخيب علـى غنـى   وباهلـــة بن أعصر والربـــاب[4]

ونظيره من القرآن ﴿ **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى** ﴾[5]، ومواضع كثيرة.

* * *

(المبالغة والغلو)

ويعدون من البديع **المبالغة والغلو**[6] والمبالغة تأكيد معاني القول وذلك كقول الشاعر :

---

(١) هو الايجاز، وهكذا يسميه قدامة وسواه

(٢) نسبه صاحب العمدة لخلف الأحمر

(٣) شاعر جاهلي مشهور

(٤) أسماء قبائل

(٥) من آية ٣١ سورة الرعد

(٦) تقدم ذكر الغلو في صفحة ١٣٠

ونكرم جارَنا ما كان فينا ... ونتبعه الكرامةَ حيثُ مالا[1]

ومن ذلك قول الآخر :

وهم تركوك أسلح من حبارى ... رأت صقراً، وأشردَ من نعامِ

فقوله : « رأت صقراً مبالغة » ... ومن الغلو قول أبي نواس :

توهمتها في كأسها فكأنما ... توهمتُ شيئاً ليس يدركه العقلُ
فما يرتقي التكييف فيها الى مدىً ... يحدُّ به إلا ومن قبله قبلُ

وقول زهير :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرمٍ ... قومٌ بأولهم أو مجدهم قعدوا

وكقول النابغة :

بلغنا السماءَ مجدنا وسناؤنا ... وإنَّا لنرجو فوق ذلك مظهرَا[2]

وكقول الخنساء :

وما بلغت كف امرئ من متناولٍ ... بها المجد إلا حيثما نلت أطولُ
وما بلغ المهدون في القول مدحة ... وان أطنبوا إلا الذي فيك أفضلُ

وقول الآخر[3] :

له همٌّ لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجلُّ من الدهرِ
له راحةٌ لو أن معشارَ جودِها ... على البر صار البر أندى من البحرِ

* * *

(١) مثل هذا يسميه البلاغيون إغراقا وهو نوع من المبالغة فإنه ادعى ان جاره لا يميل عنه إلى جهة إلا وهو يتبعه الكرامة وهذا ممتنع عادة لا عقلا

(٢) هو للنابغة الجعدي من مدحته في رسول الله ﷺ

(٣) هو بكر بن النطاح في أبي دلف

(الايغال)

ويرون من البديع **الايغال**[1] في الشعر خاصة، فلا يطلب مثله في القرآن، إلا في الفواصل .. كقول امرئ القيس[2] :

كأن عيونَ الوحش حول خبائنا   وأرحلنا الجزعُ الذي لم يثقبِ[3]

وقد أوغل بالقافية في الوصف، وأكد التشبيه لها، والمعنى قد يستقل دونها.

* * *

(التوشيح)

ومن البديع عندهم : **التوشيح**[4]، وهو أن يشيد أول البيت بقافيته وأول الكلام بآخره .. كقول البحتري :

فليس الذي حللته بمحللٍ   وليس الذي حرمته بحرامِ

ومثله في القرآن : ﴿ **فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه** ﴾[5].

* * *

---

(١) يعرفه البلاغيون بأنه ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها كزيادة المبالغة وكتحقيق التشبيه ــ وقيل لا يختص بالنظم

(٢) هو في ديوانه لعلقمة وكذلك هو موجود في ديوان علقمة بن عبدة في معارضته لامرئ القيس

(٣) يريد بالوحش الظباء وبقر الوحش. الخباء : ما كان من وبر أوصوف. الجزع : خرز يمان فيه بياض وسواد

(٤) يسميه البلاغيون إرصادا وتسهيما وهو أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروي

(٥) من آية ٣٩ سورة المائدة

(**رد العجز على الصدر**)

ومن ذلك **رد عجز الكلام على صدره** كقول الله عز وجل : ﴿ **انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً** ﴾[1]، وكقوله : ﴿ **لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب مَن افترى** ﴾[2]، ومن هذا الباب قول القائل (ذي الرمة) :

وان لم يكن إلا تعلُّلُ ساعةٍ قليلاً فاني نافعٌ لي قليلهـا

وكقول جرير :

سقى الرمل جون مستهل غمامه وما ذاك إلا حب من حل بالرملِ[3]

وكقول الآخر :

يود الفتى طول السلامة والغنى فكيف يرى طول السلامة يفعل

وكقول أبي صخر الهذلي :

عجبت لسَعْيِ الدهرِ بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهرُ

وكقول الآخر :

أصد بأيدي العيس عن قَصْدِ أرضها وقلبي اليها بالمودة قاصدُ[4]

وكقول عمرو بن معدي كرب :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

* * *

(١) آية ٢١ سورة الإسراء

(٢) من آية ٦١ سورة طه

(٣) الجون : السحاب الأبيض أو الأسود

(٤) العيس : الابل الأبيض التي يخالط بياضها شيء من الشقرة

(**صحة التقسيم**)

ومن البديع **صحة التقسيم** ومن ذلك **قول** نصيب :

فقال فريق القوم : لا، وفريقهم نعم، وفريق قال : ويحك ما ندري[1]

وليس في أقسام الجواب أكثر من هذا. وكقول الآخر :

فكأنما فيه نار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم[2]

وقول المقنع الكندي[3] :

ان يأكلوا لحمي وفرت لحومهم[4] وان يهدموا مجدي بنيت لهم مَجْدا

وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وان هم هووا غيِّي هويت لهم رَشْدا

وإن زجروا طيراً بنحس تمر بي زجرت لهم طيراً تمر بهم سَعْدا

وكقول عروة بن حزام[5] :

بمن لو أراه غائباً لفديته ومَنْ لو رآني غائباً لفداني

ونحوه قول الله عز وجل. ﴿ **الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾[6].

---

(١) يروى : وفريق ليمن الله ما ندري

(٢) المعنى : إن في هذا الشعر الأسود شمساً مشرقة وفي هذا النور الساطع شعراً أسود وهو كالليل المظلم

(٣) شاعر أموي من شعراء الحماسة

(٤) ويروى : « فان أكلوا لحمي وفرت لحومهم »

(٥) شاعر اموي عذري مشهور

(٦) من آية ٢٥٧ سورة البقرة

(صحة التفسير)

ونحوه **صحة التفسير**، كقول القائل[١] :

ولي فرس للحلم بالحلم ملجـم ‏ ‏ ‏ ولي فرس للجهل بالجهل مسرجُ

* * *

(التكميل والتتميم)

ومن البديع **التكميل والتتميم**[٢] كمقول نافع بن خليفة :

رجالٌ إذا لم يقبلوا الحق منهم ‏ ‏ ‏ ويعطوه عادوا بالسيوف القواطـعِ

وإنما تم جودة المعنى بقوله ويعطوه، ذلك كقول الله عز وجل : ﴿ **إن الله عنده علمُ الساعة** ﴾[٣]، إلى آخر الآية. ثم قال : ﴿ **إن الله عليم خبير** ﴾[٤].

* * *

(الترصيع)

ومن البديع **الترصيع**[٥] وذلك من ألوان منها قول امرئ القيس :

محش مخش[٦] مقبل مدبر معـا ‏ ‏ ‏ كتيس ظباء الحلب في العدوان

---

(١) ينسب للامام علي بن أبي طالب

(٢) يعرف البلاغيون التكميل (الاحتراس) بأنه أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه. ويعرفون التتميم بأنه أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة كالمبالغة.

(٣) من آية ٣٤ سورة لقمان

(٤) آخر الآية نفسها

(٥) هو تسجيع حشو البيت

(٦) ويروى مكر مفر الخ، والحلب : بقلة تأكلها الوحش فتضمر عليها بطونها، وقيل. هو نبات تعتاده الظباء يخرج منه ما يشبه اللبن اذا قطع وإنما سمي الحلب لتحلبه، والعدوان : السير السريع

ومن ذلك كثير من مقدمات أبي نواس :

يا منــــة امتنهـــا[1] السكـــــر   ما ينـقضي منـي لهـا الشكـــر

وكقوله وقد ذكرناه قبل هذا :

ديـــــار نوار ما ديـــــار نوار   كسَوْنَكَ شجـواً هُنَّ منـه عوار

* * *

(الترصيع مع التجنيس)

ومن ذلك **الترصيع مع التجنيس.** كقول ابن المعتز :

ألم تجزَعْ على الرَّبْعِ المحيلِ   وأطـــلالٍ وآثـــارٍ محـــــول

ونظيره من القرآن كقوله : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون * وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون** ﴾[2]، وقوله. ﴿ **ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجراً غير ممنون** ﴾[3]، وكقوله : ﴿ **وإنه على ذلك لشهيد * وإنه لحب الخير لشديـد** ﴾[4]، وكقولـه : ﴿ **والطـور * وكتـاب مسطـور** ﴾[5]، وقوله : ﴿ **والسابحات سبحا * فالسابقات سبقاً** ﴾[6]. وقد أولع الشعراء بنحـو هذا فأكثروا فيه، ومنهم من اقتنع بالترصيع في بعض أطراف الكلام، ومنهم مَنْ بَنَى كلامه عليه، كقول ابن الرومي[7] :

أبدانهُــــــنَّ ومــــــا لبِسْنَ   من الحريـــرِ معـــاً حريـــــرُ
أردانهُــــنَّ ومــــــا مسَسْنَ   من العبيـــرِ معـــاً عبيــــــرُ

---

(١) ويروى : قد منها، بدل .. امتنها
(٢) سورة الأعراف الآيتان ٢٠١ و ٢٠٢
(٣) سورة « ن » (القلم) الآيتان ٢ و ٣
(٤) سورة العاديات الآيتان ٧ و ٨
(٥) سورة الطور الآيتان ١ و ٢
(٦) سورة النازعات الآيتان ٣ و ٤
(٧) شاعر عباسي مشهور توفي ٢٨٣ هـ

وكقوله :

فلــراهبٍ أن لا يريب أمانـــه ولـراغبٍ أن لا يريث نجاحـــه

* * *

(المضارعة)

ومما يقارب الترصيع ضَرْبٌ يسمى **المضارعة** وذلك كقول الخنساء[1] :

حامي الحقيقـة محمودُ الخليقةِ مهـدي الطريقـةِ نفّــاعٌ وضرَّارُ
جوَّابُ قاصيـةٍ ، جزَّازُ ناصيـــةٍ عقَّـادُ ألويـــةٍ ، للخَيْــلِ جَرَّارُ

* * *

(التكافؤ)

ومـن البديـع باب **التكافـؤ**، وذلك قريب من المطابقـة، كقـول المنصور[2] : « لا تخرجوا من عز الطاعة الى ذلِّ المعصيـة »، وقول عمر ابن ذر : « إنَّا لم نجد لك إذ عصيت الله فينا خيراً من أن نطيع الله فيك »، ومنه قول بشار[3] :

اذا أيقظـــتك حروبُ العــــدا فنَبِّـــهْ لهـــا عمـــــراً ثم نَمْ

* * *

(باب التعطف)

ومن البديع باب **التعطف**، كقول امرئ القيس :

عود على عود على عود خلق

(1) شاعرة مشهورة توفيت نحو عام ٤١ هـ
(2) هو الخليفة أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس
(3) زعيم المحدثين المتوفي عام ١٦٧ هـ

وقد تقدم مثاله.

* * *

(السلب والايجاب)

ومن البديع **السلب والايجاب،** كقول القائل[1] :

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القَوْلَ حين نقولُ

* * *

(الكناية والتعريض)

ومن البديع **الكناية والتعريض،** كقول القائل :

وأحمر كالديباج أما سماؤه فريًّا وأما أرضه فمحولُ

ومن هذا الباب لحن القول.

* * *

(العكس والتبديل)

ومن ذلك **العكس والتبديل** كقول الحسن[2] : « إن من خوَّفك لتأمن خير ممن أمَّنك لتخاف »[3]، وكقوله : « اللهم اغنني بالفقر اليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك »، وكقوله : « بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا »، وكقول القائل :

وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا

---

(١) هو السموأل الشاعر الجاهلي المشهور

(٢) هو الحسن البصري الزاهد المتوفي ١١٠ هـ

(٣) ورواية ابن المعتز : إن من خوفك حتى تبلغ الأمن خير ممن أمنك حتى تبلغ الخوف (٧٦ البديع شرح محمد خفاجي)

وقد يدخل في هذا الباب قوله تعالى : ﴿ **يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل** ﴾[1].

(الالتفات)

ومن البديع **الالتفات**، فمن ذلك ما كتب إليّ الحسن بن عبد الله العسكري[2]، أخبرنا محمد بن عبد الله الصولي[3]، حدثني يحيى بن علي المنجم[4] عن أبيه[5] عن إسحق بن ابراهيم[6] قال : قال لي الأصمعي[7] : أتعرف التفاتات جرير ؟ قلت : لا، فما هي ؟ قال :

أتنسى إذ تودعنا سليمى   بفرع بشامة ؟ سقى البشام[8]

ومثل ذلك لجرير :

متى كان الخيام بذى طلوح   سقيت الغيث أيتها الخيام[9]

ومعنى الالتفاتات أنه اعترض في الكلام قوله « سقيت الغيث »، ولو لم يعترض لم يكن ذلك التفاتا وكان الكلام منتظما، وكان يقول « متى كان الخيام بذي طلوح أيتها الخيام »، فمتى خرج عن الكلام الأول ثم رجع اليه على وجه يلطف كان ذلك التفاتاً[10]. ومثله قول النابغة الجعدي[11] :

---

(١) سبق الأشارة إلى مواضعها في القرآن الكريم ومنها : سورة الحج آية ٦١
(٢) هو صاحب الصناعتين المتوفي ٣٩٥ هـ
(٣) الأديب المؤلف الناقد المتوفي عام ٣٣٦ هـ
(٤) أديب شاعر توفي عام ٣٠٠ هـ
(٥) هو علي بن المنجم المتوفي عام ٢٧٥ هـ
(٦) الموصلى المتوفي عام ٢٤٠ هـ
(٧) الإمام الأديب الراوية الناقدم ٢١٦ هـ
(٨) البشام : شجر طيب يستاك به
(٩) ذو طلوح : وادٍ فيه شجر كثير من الطلح (وهو شجر عظيم من شجر العضاه). الغيث : المطر
(١٠) وعلى ذلك فهو يشمل الاعتراض — وراجع باب الالتفاف في البديع لابن المعتز ص ١٠٦ و ١٠٧ (شرح محمد خفاجي)
(١١) شاعر مخضرم توفي عام ٨٠ هـ

ألا زعمت بنو سعد بأنـي ألا كذبوا كبيرُ السِّنِّ فانـي

ومثله قول كثير[1] :

لو أن الباذلين، وأنت منهم، رأوك تعلموا منك المطالا[2]

ومثله قول أبي تمام :

وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجدِ[3]

وكقول جرير :

طرب الحمام بذي الأراك فشاقني لا زلت في غلل وأيك ناضرِ[4]

التفت إلى الحمام فدعا لها، ومثله قول حسان :

ان التي ناولتني فرددتها قتلت ـ قتلت ـ فهاتها لم تقتل[5]

ومنه قول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر[6] :

وأجمل اذا ما كنت لا بدَّ مانعاً وقد يمنع الشي الفتى وهو مجملُ

وكقول ابن ميادة[7] :

فلا صرمه يبدو وفي اليأس راحة ولا وصله يصفو لنا فنكارمه

ونظير ذلك من القرآن ما حكى الله تعالى عن ابراهيم الخليل من قوله : **﴿ اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * إنما تعبدون من**

---

(١) شاعر أموي غزل مشهور

(٢) المطل : التسويف. ماطله بحقه مطالاً أي سوَّف به

(٣) أنجد : دخل في بلاد نجد. أتهم : دخل في تهامة

(٤) ذو الأراك : مكان فيه شجر أراك كثير. الأيك : الشجر الملتف. الغلل : المكان الخصب الذي يجود بالغلة.

(٥) يصف كأس الخمر .. قتلت : أي مزجت بالماء فأطفئت شرتها وقوتها

(٦) أديب شريف توفي عام ١٢١ هـ

(٧) هو الرماح الشاعر الأموي المشهور توفي نحو عام ١١٥ هـ

دون الله أوثاناً وتخلقون إفكًا ــ إلى قوله : فما كان جواب قومه ﴾[1]، وقوله عز وجل : ﴿ **إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز * وبرزوا لله جميعاً** ﴾[2] ومثله قوله : ﴿ **حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة** ﴾[3]، الى آخر الآية. ومثله قوله : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ــ إلى قوله : فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾[4]، ومثله قوله : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم * فمن تاب من بعد ظلمه** ﴾[5].

ومنهم من لا يَعُدُّ **الاعتراض والرجوع** من هذا الباب، ومنهم من يُفرِدُهُ عنه كقول زهير :

قف بالديار التي لم يعفها القدم ... نعم وغيرها الأرواح والديم[6]

وكقول الاعرابي[7] :

أليس قليلا نظرة ان نظرتها ... اليك، وكلا ليس منك قليل

وكقول ابن هرمة[8] :

ليت حظي كلحظة العين منها ... وكثير منها القليل المهنا

ومن الرجوع قول القائل[9] :

---

(١) من آية ١٦ الى ٢٤ من سورة العنكبوت
(٢) من آية ١٩ إلى ٢١ من سورة ابرهيم
(٣) من آية ٢٢ سورة يونس
(٤) الآيتان ١٧٥ و ١٧٦ من سورة الأعراف
(٥) الآيتان ٣٨ و ٣٩ سورة المائدة
(٦) الأرواح : جمع ريح. الديم جمع ديمة وهي المطر الهاطل. ويروى : بلى، بدل : نعم.
(٧) هو ليزيد بن الطثرية الشاعر الأموي الغزل المشهور
(٨) شاعر مخضرم وتوفي عام ١٥٠
(٩) هو ابن الدمينة الشاعر الأموي المشهور

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا   على أن قرب الدار خير من البعد

وقال الأعشى :

صرمت ولم أصرمكم، وكصارم   أخ قد طوى كشحاً وآب ليذهبا[1]

وكقول بشار :

لي حيلـة فيمـن ينـمُّ   وليس في الكـذاب حيلـة
من كان يخلـق ما يقـو   ل فحيلتـي فيـه قليلـة

وقال آخر :

وما بي انتصار ان غدا الدهر ظالمي   عليَّ بلى ان كان من عندك النصر

* * *

(التذييل)

وباب آخر من البديع يسمى **التذييل**[2]، وهو ضرب من التأكيد، وهو ضد ما قدمناه ذكره من الاشارة[3] كقول أبي دواد[4] :

اذا ما عقدنـا له ذمّـةً   شددنا العناج وعقد الكرب[5]

وأخذه الحطيئة[6] فقال :

فدعوا نزال فكنت أول نازلٍ   وعلام أركبه اذا لم أنزلِ

---

(١) الصرم : القطيعة والهجر. الكشح : ما بين الخاصرة الى الضلع الخلف

(٢) يعرفه البلاغيون بأنه تعقيب الكلام بجملة تشتمل على معناها للتوكيد وهو ضرب من الأطناب

(٣) فكانه يريد أن التذييل هو الأطناب

(٤) شاعر جاهلي كان امرؤ القيس راوية له

(٥) العناج : حبل يشد في أسفل الدلو العظيمة ثم يشد الى العراقي. الكرب بالتحريك حبل يشدّ في وسط العراقي ليلي الماء فلا يعفن الحبل الكبير.

(٦) شاعر مخضرم هجاء مشهور توفي عام ٥٩ هـ

وكقول جرير :

لقد كنت فيها يا فرزدق تابعاً   وريش الذنابى تابع للقـــوادم[1]

ومثله قوله عز وجل : ﴿ **إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً** ﴾[2] الى قوله : ﴿ **إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين** ــ الى قوله ــ **كانوا خاطئين** ﴾[2].

* * *

(**الاستطراد**)

وباب من البديع يسمى **الاستطراد**، فمن ذلك ما كتب اليَّ الحسن بن عبدالله[3] قال : أنشدنا أبو حاتم عن أبي عبيدة[5] لحسان بن ثابت[6] رضي الله تعالى عنه :

إن كنت كاذبة التـــي حدثتنـــي   فنجوت منجى الحارث بن هشامِ[7]

ترك الأحبة لم يقاتل دونهـــم   ورمى برأس طمـــرة ولجـــامِ

وكقول السموأل :

وإنا لقوم لا نرى القتل سبَّةً   اذا ما رأتـــه عامـــرٌ وسلـــولُ

وكقول الآخر[8] :

---

(١) قوادم الطير مقاديم ريشه وهي عشرة في كل جناح

(٢) الآيات ٤ ــ ٨ من سورة القصص

(٣) هو ابو هلال العسكري م ٣٩٥ هـ

(٤) الأمام اللغوي الأديب المشهور (٢٢٣ ــ ٣٢١هـ)

(٥) اديب راوية توفي عام ٢٠٧ هـ

(٦) شاعر رسول الله توفي عام ٦٠ هـ

(٧) يخاطب فرسه ويعرض بالحرث بن هشام في فزاره يوم بدر

(٨) هما لبشّار كما في البديع لابن المعتز (ص ١٠٩ شرح محمد خفاجي).

خليليَّ من كعب أُعينا أخاكما على دهره إن الكريم معينُ
ولا تبخلا ابن قزعة إنه مخافة أن يرجى نداه حزينُ

وكقول الآخر[1] :

فما ذَرَّ قرن الشمس حتى كأننا من العي نحكي أحمد بن هشام[2]

وكقول زهير :

ان البخيل ملوم حيث كان ولـ ـكنَّ الجواد على علاته هرم[3]

وفيما كتب اليَّ الحسن بن عبدالله[4] قال : أخبرني محمد بن يحيى، حدثني محمد بن علي الأنباري، قال : سمعت البحتري[5] يقول : أنشدني أبو تمام[6] لنفسه :

وسابح هطل التعداء هتان على الجراء أمين غير خوانِ
أظمى الفصوص ولم تظمأ قوائمه فجل عينك في ريان ظمآنِ
ولو تراه مشيحاً والحصى فلق بين السنابك من مثنىً ووحدانِ
أيقنت — إن لم تثبت — أن حافرَهُ من صخر تدمرَ أو من وجه عثمانِ

وقال لي : ما هذا من الشعر ؟ قلت : لا أدري. قال : هذا المستطرد، أو قال : الاستطراد، قلت : وما معنى ذلك ؟ قال : يرى أنه يصف الفرس ويريد هجاء عثمان، فقال (ما قال) : وقال البحتري :

ما ان يعاف قذى ولو أوردته يوما خلائق حمدويه الاحول

---

(١) نسبه ابن المعتز في البديع (ص ١٠٩) لإسحاق الموصلي يصف السكر
(٢) ذر : طلع. قرن الشمس أعلاها وأول ما يبدو منها في الشروق. العي : ضد البيان
(٣) هو هرم بن سنان ممدوح زهير المشهور
(٤) العسكري أبو هلال م ٣٩٥ هـ
(٥) الشاعر العباسي المشهور المتوفي ٢٨٤ هـ
(٦) الشاعر العباسي المشهور المتوفي ٢٣١ هـ — وهو هنا يصف فرسا

قال : فقيل للبحتري، إنك أخذت هذا من أبي تمام، فقال ما يعاب عليَّ أن آخذه منه وأتبعه فيما يقول. ومن هذا الباب قول أبي تمام :

صب الفراق علينا صب من كتبا عليه إسحق يوم الروع منتقما[1]

ومنه قول السري الرفاء[2] :

نزع الوشاة لنا بسهم قطيعة يرمى بسهم الحين مَنْ يرمى به
ليت الزمان أصاب حب قلوبهم بقنا ابن عبد الله أو بحرابه[3]

ونظيره من القرآن : ﴿ **أولم يروا الى ما خلق الله من شيء، يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل، سجداً لله وهم داخرون * ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون** ﴾[4] كأنه كان المراد أن يجري بالقول الأول الى الاخبار عن أن كل شيء يسجد لله عز وجل، وان كان ابتداء الكلام في أمر خاص.

* * *

(**التكرار**)

ومن البديع عندهم **التكرار** كقول الشاعر :

هلا سألتَ جُموعَ كنـدَةَ يوم ولـوا أيْـنَ أينـا ؟

وكقول الآخر :

وكـانت فزارة تصلـي بنـا فأولـى فزازة أولـى لهـا

ونظيره من القرآن : ﴿ **فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً** ﴾[5]،

---

(١) إسحاق : اسم قائد عباسي معاصر لأبي تمام — الروع : الفزع والحرب

(٢) شاعر مشهور توفي عام ٤٠٠ هـ

(٣) القطيعة : الهجر. الحين : الهلاك : القنا : الرماح

(٤) الآيتان ٤٨ و ٤٩ من سورة النحل

(٥) الآيتان ٥ و ٦ من سورة الشرح

وكالتكرار في قوله : ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾[1] وهذا فيه معنى زائد على التكرار لأنه يفيد الإخبار عن الغيب.

* * *

(الاستثناء)

ومن البديع عندهم **ضرب من الاستثناء**[2] كقول النابغة :

ولا عيب فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهُمْ   بهنَّ فلولٌ من قراعِ الكتائبِ[3]

وكقول النابغة الجعدي :

فتىً كملت أخلاقُهُ غيرَ أنه   جوادٌ فلا يبقى من المال باقيًا
فتىً تمَّ فيه ما يسر صديقه   على أن فيه ما يسوءُ الأعاديا

وكقول الآخر :

حليم اذا ما الحلم زين أهله   مع الحلم في عين العدو مهيبُ[4]

وكقول أبي تمام :

تنصل ربها من غير جرمٍ   اليك سوى النصيحةِ والودادِ

ووجوه البديع كثيرة جدا فاقتصرنا على ذكر بعضها ونبهنا بذلك على ما لم تذكر كراهة التطويل، فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع.

* * *

---

(١) الآية ١ سورة الكافرون
(٢) يريد به تأكيد المدح بما يشبه الذم
(٣) الكتائب جمع كتيبة وهي الجيش العظيم. قراع : ضراب ونزاع — وهو النابغة الذبياني الشاعر الجاهلي المعروف.
(٤) هو لكعب بن سعد الغنوي الشاعر المخضرم المشهور في رثاء أخيه أبي المغوار.

(هل لأبواب البديع فائدة في معرفة الاعجاز ؟)

وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه، وليس كذلك عندنا، لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكنَ التوصُّل اليها بالتدريب والتعوُّد والتصنُّع لها، وذلك كالشعر الذي إذا عرف الانسان طريقه صحَّ منه التعمُّل له، وأمكنه نظمه. والوجوه التي نقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يُعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنُّع له، والتوصُّل اليه بحال.

* * *

ويبيِّن ما قلنا أن كثيرا من المحدثين قد تصنَّع لأبواب الصنعة، حتى حشى جميع شعره منها، واجتهد أن لا يفوته بيت الا وهو يملؤه من الصنعة، كما صنع أبو تمام في لاميته:

متى أنت عن ذهلية الحي ذاهل	وصدرك منها مدة الدهر آهلُ [1]
تطل طلول الدمعِ في كل موقف	وتمثـل بالصبـر الديـار المواثـلُ [2]
دوارس لم يجف الربيـع ربوعهـا	ولامـر في اغفالهـا وهـو غافـلُ [3]
فقد سحبت فيها السحاب ذيولها	وقد أخملتْ بالنورِ تلك الخمائلُ [4]
تعفين من زاد العفاةِ اذا انتحى	على الحيِّ صرف الأَزمة المتماحلُ [5]
لهم سلف سمر العوالي وسامر	وفيهم جمال لا يغيض وجامل [6]

(١) ذهلية : منسوبة إلى قبيلة ذهل، ذاهل : غافل. آهل : مسكون.

(٢) تطل : تسكب. الطلول : الآثار. تمثل به : تقتله بتعذيب. المواثل : الدوارس.

(٣) يجف : يهجر. الربوع : المنازل. الأغفال : القفار.

(٤) أخملت : التفت. النور : الزهر. الخمائل : الرياض.

(٥) تعفين : استعفين. العفاة السائلون. انتحى : قصد. صرف : حادث. الأزمة : الشدة. المتماحل : المائل عن الحق.

(٦) سمر العوالي : الرماح. السامر : مجلس السمار والسمر حديث الليل. يغيض : يغور. الجامل : جمع جمل.

ليالي أضللت العزاء وخذلت بعقلك آرام الخدور العقائل [١]
من الهيف لو أن الخلاخيلَ صيرت لها وشحاً جالت عليها الخلاخلُ [٢]
مهى الوحش إلا أن هاتا أوانسٌ قنا الخط الا أن تلك ذوابلُ [٣]
هوى كان خلسا، إن من أطيبِ الهوى هوىً جلت في أفيائه وهو خاملُ.

ومن الأدباء من عاب عليه هذه الأبيات ونحوها، على ما قد تكلف فيها من البديع، وتعمَّل من الصنعة، فقال : قد أذهب ماء هذا الشعر ورونقه وفائدته، اشتغالا بطلب التطبيق وسائر ما جمع فيه، وقد تعصَّب عليه أحمد بن عبيد الله بن عمار [٤] وأسرف، حتى تجاوز الى الغض من محاسنه ... ولما قد أولع به من الصنعة، ربما غطى على بصره، حتى يبدع في القبيح، وهو يريد أن يبدع في الحسن، كقوله في قصيدة أولها :

سَرَتْ تستجيرُ الدمع خوفَ نوى غد وعاد قتاداً عندها كل مرقد [٥]

فقال فيها :

لعمري لقد حررتُ يوم لقيتُهُ لو ان القضاءَ وحدَهُ لم يبرد [٦]

وكقوله :

لو لم تدارك مسن المجد مذ زمن بالجود والبأس كان المجد قد خرفا [٧]

---

(١) أضللت : أضعت. العزاء : التسلية. خذلت : قطعت. الآرام : الغزلان. الخدور : البيوت. العقائل : المصونات.

(٢) الهيف : الرقيقات. الخلاخل : حلي يلبس في الساق. الوشح شبه قلائد عريضة تشد بين الكتف والخاصرة.

(٣) المها : بقر الوحش. قنا الخط الرماح. ذوابل : صلبة

(٤) أديب ناقد ألف كتابا في سرقات أبي تمام. وتوفي عام ٣١٤ هـ.

(٥) النوى : الفراق. القتاد : الشوك.

(٦) يقال برد فلان اذا مات أو وقع أسيراً أو ضعف، وطابق به قوله : حررت، بمعنى صرت حارا من شدة العيظ.

(٧) المسن : الكهل. خرف الرجل : اختل عقله من الكهولة — وهو من قصيدة يمدح فيها أبا دلف.

فهذا من الاستعارات القبيحة والبديع المقيت، كقوله :

تسعُون ألفاً كآسادِ الشَّرى نضجَتْ أعمارُهم قبلَ نَضْجِ التينِ والعنبِ[1]

وكقوله :

لو لم يَمُتْ بين أطرافِ الرماح إذاً لمات، إذ لم يَمُتْ، من شدة الحزنِ

وكقوله :

خشنت عليه أخت بني خشين[2]

وكقوله :

ألا لا يمــدُّ الدهــرُ كفــاً بسيِّئٍ إلى مجتدَى نصرٍ فتقطع من الزند[3]

وقال في وصف المطايا :

لو كان كلفها «عبيد» حاجةً يوماً لزنى شدقماً وجديــلا[4]

وكقوله :

فضربت الشتــاء في أخدعيــه ضربــةً غادرتــه عوداً ركوبــا[5]

فهذا وما اشبهه إنما يحدث من غلوه في محبة الصنعة، حتى يعميه عن وجه الصواب، وربما أسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها، حتى استثقل نَظْمُهُ، واستوخم رَصْعُهُ، وكان التكليف بارداً،

---

(١) من بائيته في مدح المعتصم ووصف انتصار جيشه على عمورية.

(٢) عجز البيت هو : وأنجح فيك قول العاذلين ــ من قصيدة بمدح فيها اسحاق بن ابراهيم.

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أبا العباس نصر بن منصور بن بسام ــ ويروى : فتقطع للزند ــ والمجتدي : طالب الجدوى وهو العطاء.

(٤) الجديل : الزمام المجدول من أدم، وحبل في عنق البعير من أدم، أو شعر، والوشاح وفحل مشهور. الشدقم : الأسد والواسع الشدق، وفحل للنعمان بن المنذر. زن فلانا بخير أو شر ظنه به، وأزننته بكذا اتهمته به.

(٥) العود : البعير المسن. الاخدعان : عرقان في صفحتي العنق.

والتصرُّف جامدا، وربما اتفق مع ذلك في كلامه النادر المليح، كما يتفق البارد القبيح.

* * *

فأما البحتري فانه لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام، ويقلُّ التصنُّع له، فاذا وقع في كلامه كان في الأكثر حسناً رشيقاً وظريفاً جميلاً، وتصنُّعه للمطابق كثيرٌ حسن، وتعمُّقه في وجوه الصنعة على وَجْه طلب السلامة. والرغبة في السلاسة، فلذلك يخرج سليماً من العيب في الأكثر. وأما وقوف الألفاظ به عن تمام الحسنى، وقعودُ العبارات عن الغاية القصوى، فشيء لا بدَّ منه، وأمر لا محيصَ عنه، كيف وقد وقف على مَنْ هو أجلُّ منه، وأعظم قدراً، في هذه الصنعة، وأكبر في الطبقة، كامرئ القيس وزهير والنابغة، وإلى يومه ؟

ونحن نبيِّن تميُّز كلامهم، وانحطاط درجة قولهم، ونزول طبقة نظمهم، عن بديع نَظْمِ القرآن، في باب مفرد، يتصور به ذو الصنعة ما يجب تصوره، ويتحقَّق وجه الإعجاز فيه بمشيئة الله وعونه.

(لا سبيل الى معرفة إعجاز القرآن من البديع)

ثم رجع الكلام بنا الى ما قدَّمناه، من أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادَّعوه في الشعر، ووصفوه فيه؛ وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة، ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلُّم، والتدرُّب به، والتصنُّع له، كقول الشعر، ورَصْف الخطب، وصناعة الرسالة، والحذق في البلاغة. وله طريق يسلك، ووجه يقصد، وسُلَّم يرتقي فيه اليه، ومثال قد يقطع طالبه عليه.

فربَّ إنسانٍ يتعود أن ينظم جميع كلامه شعراً، أو يتعود أن يكون

جميع خطابه سجعاً، أو صنعة متصلة، لا يسقط من كلامه حرف، وقد يبادره به ما قد تعوده.

وأنت ترى أدباء زماننا يضيفون المحاسن في جزء، وكذلك يؤلفون أنواع البارع، ثم ينظرون فيه إذا أرادوا إنشاء قصيدةٍ أو رسالةٍ أو خطبة، فيحشون به كلامهم، ومَنْ كان قد تدَرَّبَ وتقدَّم في حفظ ذلك اشتغل عن هذا التصنيف، ولم يحتج إلى تكلف هذا التأليف؛ وكان ما أشرف عليه من هذا الشأن باسطاً من باع كلامه، وموشحاً بأنواع البديع ما يحاوله من قوله. وهذا طريقٌ لا يتعذَّر، وبابٌ لا يمتنع، وكلٌّ يأخذ فيه مأخذاً، ويقف فيه موقفاً على قدر ما معه من المعرفة، بحسب ما يمدُّه من الطبع.

فأما شأو نظر القرآن فليس له مثال يُحتذى اليه، ولا إمام يُقتدى به، ولا يصحُّ وقوع مثله اتفاقاً، كما يتفق للشاعر البيت النادر، والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب، والشيء القليل العجيب، وكما يلحق بعض كلامه[1] بالوحشيات، ويضاف من قوله الى الأوابد. لأن ما جرى هذا المجرى، ووقع هذا الموقع، فإنما يتفق للشاعر في لمعٍ من شعره، وللكاتب في قليلٍ من رسائله، وللخطيب في يسير من خطبه. ولو كان كلُّ شعره نادراً، ومثلاً سائراً ومعنى بديعاً، ولفظاً رشيقاً، وكلُّ كلامِهِ مملوءاً من رونقه ومائه، ومملاً ببهجته وحسن روائه، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامين، والمتردد بين الطرفين، ولا البارد المستثقل، والغث المستنكر، لم يَبِنِ الإعجاز في الكلام ولم يَبِنِ التفاوت العجيب بين النظام والنظام.

وهذه جملة تحتاج الى تفصيل، ومبهم قد يحتاج في بعضه إلى تفسير، وسنذكر ذلك بمشيئة الله وعونه.

ولكن قد يمكن أن يقال في البديع الذي حكيناه وأضفناه اليهم : إن

---

(١) في الأصل : بكلامه

ذلك باب من أبواب البراعة، وجنسٌ من أجناس البلاغة، وإنه لا ينفك القرآن عن فنٍّ من فنون بلاغاتهم، ولا وجه من وجوه فصاحاتهم، وإذا أورد هذا المورد ووضع هذا الموضع كان جديراً.

وإنما لم نطلق القول إطلاقاً لأنا لا نجعل الإعجاز متعلقاً بهذه الوجوه الخاصة، ووقفاً عليها، ومضافاً اليها، وإن صحَّ أن تكون هذه الوجوه الخاصة، ووقفاً عليها، ومضافاً اليها، وإن صحَّ أن تكون هذه الوجوه مؤثرة في الجملة، آخذة بحظها من الحسن والبهجة، متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلُّف المستبشع، والتعمُّل المستشنع.

* * *

فصل

في كيفية الوقوف على إعجاز القرآن

قد بيَّنا أنه لا يتهيأ لمَن كان لسانه غير العربية، من العجم والترك وغيرهم، أن يعرفوا إعجاز القرآن، الا أن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك، فاذا عرفوا هذا بأن علموا أنهم قد تحدُّوا على أن يأتوا بمثله، وقرعوا على تَرْك الإتيان بمثله، ولم يأتوا به، تبيَّنوا أنهم عاجزون عنه، واذا عجز أهل اللسان فهم عنه أعجز. وكذلك نقول : إن مَنْ كان من أهل اللسان العربي، إلَّا أنه ليس يبلغ في الفصاحة الحدَّ الذي يتناهى الى معرفة أساليب الكلام، ووجوه تصرُّف اللغة، وما يعدونه فصيحاً بليغاً بارعاً من غيره، فهو كالأعجمي في أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن إلا بمثل ما بيَّنا أن يعرف به الفارسي الذي بدأنا بذكره، وهو ومَنْ ليس من أهل اللسان سواء.

فأما مَنْ كان قد تناهى في معرفة اللسان العربي، ووقف على طرقها ومذاهبها، فهو يعرف القدر الذي ينتهي اليه وسع المتكلم من الفصاحة، ويعرف ما يخرج عن الوسع، ويتجاوز حدود القدرة، فليس يخفى عليه إعجاز القرآن، كما يميِّز بين جنس الخطب والرسائل والشعر وكما يميز بين الشعر الجيد والرديء والفصيح والبديع والنادر والبارع والغريب. وهذا كما يميز أهل كل صناعة صنعتهم، فيعرف الصيرفي من النقد ما يخفى

على غيره، ويعرف البزاز من قيمة الثوب وجودته ورداءته ما يخفى على غيره.

وإنْ كان يبقى مع معرفة هذا الشأن أمر آخر، وربما اختلفوا فيه. لأن من أهل الصنعة مَنْ يختار الكلام المتين والقول الرصين. ومنهم مَنْ يختار الكلام الذي يروق ماؤه وتروع بهجته ورواؤه، ويسلس مأخذه ويسلم وجهه ومنفذه، ويكون قريب المتناول، غير عويص اللفظ، ولا غامض المعنى. كما يختار قوم ما يغمض معناه، ويغرب لفظه، ولا يختار ما سهل على اللسان، وسبق الى البيان.

ورُوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصف زهيراً فقال: كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه، وقال لعبد بني الحسحاس[1] حين أنشده:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا.

أما إنه لو قلت مثل هذا لأجزتك عليه.

وروي أن جريرا سئل عن أحسن الشعر فقال: قوله:

ان الشقي الذي في النار منزله   والفوز فوز الذي ينجو من النار

كأنه فضَّله لصدق معناه.

ومنهم من يختار الغلو في قول الشعر[2] والافراط فيه حتى ربما قالوا أحسن الشعر أكذبه، كقول النابغة:

يقدُّ السلوقيَّ المضاعف نسجه   ويوقد بالصفاح نار الحباحب[3]

(١) شاعر مخضرم عفيف الكلام جيد الشعر.

(٢) كقدامة في نقد الشعر وأبي هلال في الصناعتين وغيرهما

(٣) يقد: يقطع. السلوقي: درع منسوبة الى بلد بالشام. الصفاح: الحجارة العريضة. الحباحب: ذباب له شعاع بالليل كالنار ــ يصف النابغة سيفا.

وأكثرهم على مدح المتوسط بين المذهبين في الغلو[1] والاقتصاد، وفي المتانة والسلاسة.

* * *

ومنهم مَنْ رأى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعة، وألطف تعمُّلا وأن يتخيَّر الألفاظ الرشيقة للمعاني البديعة، والقوافي الواقعة .. كمذهب البحتري، وعلى ما وصفه عن بعض الكتاب :

في نظام من البلاغة ما شـ ـك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا حك في رونق الربيع الجديد
حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركـ ـن به غاية المراد البعيد

ويرون أن مَنْ تعدّى هذا كان سالكاً مسلكاً عاميّاً، ولم يروه شاعراً ولا مصيباً.

وفيما كتب الحسن بن عبدالله[2] (أو) أبو أحمد العسكري[3] قال : أخبرني محمد بن يحيى، قال : أخبرني عبدالله بن الحسن قال : قال لي البحتري : دعاني علي بن الجهم[4] فمضيت اليه، فأفضنا في أشعار المحدثين، الى أن ذكرنا شعر أشجع، فقال لي : انه يُخلي، وأعادها مرات، ولم أفهمها، وأنفت أن أسأله عن معناها. فلما انصرفت أفكرت في الكلمة، ونظرت في شعره فاذا هو ربما مرت له الأبيات مغسولة، ليس فيها بيت رائع، واذا هو يريد هذا بعينه، أن يعمل الابيات فلا يصيب فيها ببيت نادر، كما

(١) الاصل : اللغو
(٢) هو صاحب الصناعتين.
(٣) هو خال أبي هلال وتوفي نحو عام ٢٨٢ هـ.
(٤) شاعر عباسي رقيق مجيد توفي عام ٢٤٩ هـ.

أن الرامي اذا رمى برشقة فلم يصب بشيء قيل : قد أخلى .. قال : وكان علي بن الجهم أحسن الناس علماً بالشعر.

وقوم من أهل اللغة يميلون الى الرصين من الكلام، الذي يجمع الغريب والمعاني، مثل أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر والأصمعي.

ومنهم مَنْ يختار الوحشي من الشعر، كما اختار المفضل[1] للمنصور[2] من المفضليات، وقيل إنه اختار ذلك لميله الى ذلك الفن.

وذكر الحسن بن عبدالله[3] أنه أخبره بعض الكتاب عن علي بن العباس قال : حضرت مع البحتري مجلس عبيدالله[4] بن عبدالله طاهر : وقد سأل البحتري[5] عن أبي نواس[6] ومسلم بن الوليد[7] أيهما أشعر، فقال البحتري : أبو نواس أشعر. فقال عبيدالله : إن أبا العباس ثعلباً[8] لا يطابقك على قولك ويفضل مسلماً، فقال البحتري : ليس هذا من عمل ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله، إنما يعلم ذلك مَنْ وقع[9] في سلك[10] الشعر الى مضايقه، وانتهى الى ضروراته. فقال عبيدالله : وريت بك زنادي يا أبا عبادة، وقد وافق حكمك حكم أخيك بشار بن

---

(١) هو صاحب المفضليات أديب عالم راوية توفي ١٨٩ هـ.
(٢) وقيل إنه اختارها للمهدي ابن المنصور.
(٣) هو أبو هلال العسكري م ٣٩٥ هـ.
(٤) اديب شاعر ناقد توفي ٣٠٠ هـ.
(٥) هو الشاعر المبدع المطبوع توفي ٢٨٤ هـ.
(٦) شاعر المجون واللهو المشهور توفي ١٩٧ هـ.
(٧) شاعر الصنعة المشهور توفي عام ٢٠٨ هـ.
(٨) إمام اللغة والنحو الأدب المتوفي ٢٩١ هـ.
(٩) رواية دلائل الأعجاز : دفع — وفي الدلائل هذا الحديث بتغيير يسير (راجع ١٩٥ الدلائل).
(١٠) السلك بمعنى السلوك.

برد[1] في جرير والفرزدق أيهما أشعر فقال : جرير أشعرهما، فقيل له بماذا ؟ : فقال : لأن جريرا يشتد إذا شاء، وليس كذلك الفرزدق، لأنه يشتد أبداً، فقيل له : فان يونس[2] وأبا عبيدة[3] يفضلان الفرزدق على جرير، فقال : ليس هذا من عمل أولئك القوم، إنما يعرف الشعر مَنْ يضطر الى أن يقول مثله، وفي الشعر ضروب لم يحسنها الفرزدق، ولقد ماتت النوار امرأته فناح عليها بقول جرير :

لولا الحياءُ لعادني استعبارُ ولزرت قبرَكِ والحبيب يُزَارُ

ورُوِي عن أبي عبيدة أنه قال للفرزدق : ما لك لا تنسب كما ينسب جرير ؟ فغاب حولاً ثم جاء فأنشد :

يا أخت ناجية بن سامة إنني أخشى عليك بنيّ ان طلبوا دمي

والأعدل في اختيار ما سلكه أبو تمام، من الجنس الذي جمعه في كتاب الحماسة، وما اختاره من الوحشيات، وذلك أنه تنكر للمستنكر الوحشي، والمبتذل العامي، وأتى بالواسطة.

وهذه طريقة مَنْ يُنصف في الاختيار، ولا يعدل به غرض يخص. لأن الذين اختاروا الغريب فإنما اختاروه لغرض لهم في تفسير ما يشتبه على غيرهم، وإظهار التقدم في معرفته وعجز غيرهم عنه، ولم يكن قصدهم جيد الأشعار لشيء يرجع اليها في أنفسها. ويبيِّن هذا أن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس، وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب الى الدلالة على المراد، وأوضحَ في الإبانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن، ومستنكر المورد على النفس، حتى يتأبّى بغرابته في اللفظ عن الأفهام، أو يمتنع بتعويص معناه

(١) هو زعيم المحدثين المتوفي ١٦٧ هـ.

(٢) عالم باللغة والنحو والأدب توفي ١٨٢ هـ.

(٣) الامام اللغوي الأديب المتوفي عام ٢٠٧ هـ.

عن الإبانة. ويجب أن يتنكّب ما كان عليه اللفظ مبتذل العبارة، ركيك المعنى، سفسافي الوضع، مجتلب التأسيس على غير أصل ممهد، ولا طريق موطد .. وإنما فضلت العربية على غيرها لاعتدالها في الوضع، ولذلك وضع أصلها على أكثرها بالحروف المعتدلة، فقد أهملوا الألفاظ المستكرهة في نظمها، وأسقطوها من كلامهم، فجرى لسانهم على الأعدل، ولذلك صار أكثر كلامهم من الثلاثي، لأنهم بدءوا بحرف وسكتوا على آخر وجعلوا حرفاً وصلةً بين الحرفين، ليتمَّ الابتداء والانتهاء على ذلك، والثنائي أقل، وكذلك الرباعي، والخماسي أقل، ولو كان كله ثنائيّاً لتكرَّرت الحروف، ولو كان كله رباعيّاً أو خماسيّاً لكثرت الكلمات. وكذلك بنى أمر الحروف التي ابتدئ بها السور على هذا، فأكثر هذه السور التي ابتدأت بذكر الحروف ذكر فيها ثلاثة أحرف، وما هو أربعة أحرف سورتان[1]، وما ابتدئ بخمسة أحرف سورتان[2]، فأما ما بدئ بحرف واحد[3] فقد اختلفوا فيه : فمنهم مَنْ لم يجعل ذلك حرفاً وإنما جعله[4] اسماً لشيء خاص، ومن جعل ذلك حرفاً قال : أراد أن يحقق الحروف مفردها ومنظومها.

ولضيق ما سوى كلام العرب، أو لخروجه عن الاعتدال، يتكرر في بعض الألسنة الحرف الواحد في الكلمة الواحدة والكلمات المختلفة كثيراً، كنحو تكرر الطاء والسين في لسان يونان، وكنحو الحروف الكثيرة التي هي اسم لشيء واحد في لسان الترك، ولذلك لا يمكن أن ينظم في الشعر في تلك الألسنة على الأعاريض التي تمكن في اللغة العربية.

والعربية أشدها تمكُّناً، وأشرفها تصرُّفاً وأعدلها، ولذلك جعلت حلية لنظم القرآن، وعلق بها الإعجاز، وصارت دلالة في النبوة.

---

(١) هما الرعد والاعراف.

(٢) هما مريم والشورى.

(٣) مثل : ن، ق، ص.

(٤) في الأصل : جعله فعلا واسما.

وإذا كان الكلام إنما يفيد الإبانة عن الأغراض القائمة في النفوس، التي لا يمكن التوصل اليها بأنفسها، وهي محتاجة الى ما يعبر عنها، فما كان أقرب في تصويرها، وأظهر في كشفها للفهم الغائب عنها، وكان مع ذلك أحكم في الإبانة عن المراد، وأشدَّ تحقيقا في الإيضاح عن الطلب، وأعجبَ في وضعه، وأرشقَ في تصرُّفه، وأبرعَ في نظمه، كان أولى وأحق بأن يكون شريفاً، وقد شبهوا النطق بالخط، والخط يحتاج مع بيانه الى رشاقة وصحة ولطف، حتى يحوز الفضيلة ويجمع الكمال، وشبهوا الخط والنطق بالتصوير، وقد أجمعوا أن من أحذق المصورين مَنْ صوَّر لك الباكي المتضاحك، والباكي الحزين، والضاحك المتباكي، والضاحك المستبشر، وكما أنه يحتاج الى لطفِ يدٍ في تصوير هذه الأمثلة، فكذلك يحتاج الى لطفٍ في اللسان والطبع في تصوير ما في النفس للغير.

وفي جملة الكلام[1] ما تقصر عبارته وتفضل معانيه، وفيه ما تقصر المعاني وتفضل العبارات، وفيه ما يقع كل واحد منهما وفقاً للآخر، ثم ينقسم ما يقع وفقاً الى ما يفيدها على تفصيل (و) الى ما يفيدها (بدونه). وكل واحد منهما قد ينقسم على أن يكون كل واحد منهما[2] بديعاً شريفاً وغريباً لطيفاً، وقد يكون كل واحد منهماً مستجلباً متكلفاً، ومصنوعاً متعسِّفاً، وقد يكون واحد منهما حسناً رشيقاً وبهيجاً نضيراً، وقد يتفق أحد الأمرين دون الآخر، وقد يتفق أن يسلم الكلام والمعنى من غير رشاقةٍ ولا نضارةٍ في واحد منهما، إنما يميِّز مَنْ يميِّز، ويعرف مَنْ يعرف، والحكم في ذلك صعب شديد، والفضل فيه شأوٌ بعيد.

وقد قلَّ مَنْ يميِّز أصناف الكلام، فقد حكي عن طبقة أبي عبيدة

---

(١) في الاصل : « جملة الكلام إلى » ولعلها تحريف.

(٢) هذا تصحيح الكلام على خلاف ما في الأصل واصل الكلام كما في الأصل : الى أنه قد يفيدها على تفصيل، وكل واحد منهما قد ينقسم الى ما يفيدها، على أنه يكون كل واحد منهما بديعا.

وخلف[1] الأحمر وغيرهم في زمانهم أنهم قالوا : ذهبَ مَنْ يعرف نقد الشعر.

* * *

وقد بيَّنا قبل هذا اختلاف القوم في الاختيار، وما يجب أن يجمعوا عليه ويرجعوا عند التحقيق اليه، وكلام المقتدر نمط وكلام المتوسع باب؛ وكلام المطبوع له طريق، وكلام المتكلف له منهاج، والكلام المصنوع المطبوع له باب.

ومتى تقدم الإنسان في هذه الصنعة لم تخف عليه هذه الوجوه، ولم تشتبه عنده هذه الطرق، فهو يميِّز قدر كل متكلم بكلامه، وقدر كل كلام في نفسه ويحلُّه محلَّه، ويعتقد فيه ما هو عليه، ويحكم فيه بما يستحقُّ من الحكم، وإن كان المتكلم يجود في شيء دون شيء عرف ذلك منه، وإن كان يعمُّ إحسانه عرف.

ألا ترى أن منهم مَنْ يجودُ في المدح دون الهجو، ومنهم مَنْ يجود في الهجو وحده، ومنهم مَنْ يجود في المدح والسخف، ومنهم مَنْ يجود في الأوصاف، والعالم لا يشذُّ عنه مراتب هؤلاء، ولا يذهب عليه أقدارهم، حتى أنه اذا عرف طريقه شاعر في قصائد معدودة، فأنشد غيرها من شعره، لم يشكَّ أن ذلك من نسجه، ولم يرتب في أنه من نَظْمه، كما أنه إذا عرف خط رجلٍ لم يشتبه عليه خط حيث رآه من بين الخطوط المختلفة. وحتى يميِّز بين رسائل كاتب وبين رسائل غيره، وكذلك أمر الخطب، فإن اشتبه عليه البعض فهو لاشتباه الطريقين، وتماثل الصورتين، كما قد يشتبه شعر أبي تمام بشعر البحتري في القليل الذي يترك أبو تمام فيه التصنُّع. ويقصد

(١) إمام اديب لغوي راوية توفي عام ١٨٠ هـ.

فيه التسهُّل، ويسلك الطريقة الكتابية، ويتوجه في تقريب الألفاظ، وتَرْك تعويص المعاني، ويتفق له مثل بهجة أشعار البحتري وألفاظه.

* * *

ولا يخفى على أحد يميِّز هذه الصنعة سَبْك أبي نواس، ولا نَسْج ابن الرومي من نَسْج البحتري، وينبهه ديباجة شعر البحتري وكثرة مائه وبديع رونقه وبهجة كلامه، إلا فيما يسترسل فيه فيشتبه بشعر ابن الرومي ويحركه ما لشعر أبي نواس من الحلاوة والرقة والرشاقة والسلاسة، حتى يفرق بينه وبين شعر مسلم. وكذلك يميِّز بين شعر الأعشى في التصرف، وبين شعر امرئ القيس، وبين شعر النابغة وزهير، وبين شعر جرير والأخطل، والبعيث والفرزدق. وكلٌّ له منهج معروف، وطريق مألوف.

ولا يخفى عليه في زماننا الفصل بين رسائل عبد الحميد وطبقته، وبين طبقة مَنْ بعده، حتى إنه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد، وبين رسائل أهل عصره ومَنْ بعده، ممن برع في صنعة الرسائل، وتقدَّم في شأوها، حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين، حتى خلص لنفسه طريقة، وأنشأ لنفسه منهاجا، فسلك تارة طريقة الجاحظ، وتارة طريقة السجع، وتارة طريقة الأصل، وبرع في ذلك باقتداره، وتقدم بحذقه، ولكنه لا يخفى مع ذلك على أهل الصنعة طريقه من طريق غيره، وان كان قد يشتبه البعض، ويدق القليل، وتغمض الأطراف، وتشذ النواحي.

وقد يتقارب سبك نفر من شعراء عصر، وتتدانى رسائل كتّاب دهر، حتى تشتبه اشتباهاً شديداً، وتتماثل تماثلاً قريباً، فيغمض الفصل.

وقد يتشاكل الفرع والأصل، وذلك فيما يتعذر إدراك أمده، ولا يتصعب طلاب شأوه، ولا يتمنع بلوغ غايته، والوصول إلى نهايته، لأن الذي يتفق من الفصل بين أهل الزمان، اذا تفاضلوا وتفاوتوا في مضمار، فصل قريب، وأمر يسير.

وكذلك لا يخفى عليهم معرفة سارق الألفاظ وسارق المعاني، ولا مَنْ يخترعها ولا مَنْ يلمُّ بها، ولا مَنْ يجاهر بالأخذ ممن يكاتم، ولا مَنْ يخترع الكلام اختراعاً ويبتدهه ابتداهاً، ممن يروي فيه، ويجيل الفكر في تنقيحه، ويصبر عليه حتى يتخلَّصَ له ما يريد، وحتى يتكرر نظره فيه.

قال أبو عبيدة : سمعت أبا عمرو[1] يقول : زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين[2]، وكان زهير يسمي كبر شعره (الحوليات المنقحة). وقال عدي بن الرقاع[3] :

وقصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيمَ ثقافه منآدها

وكقول سويد بن كراع[4] :

أبيتُ بأبواب القوافي كأنما أصادي بها سرباً من الوحش نزعَا

* * *

ومنهم مَنْ يعرف بالبديهة، وحدَّة الخاطر، ونفاذ الطبع، وسرعة النظم، يرتجل القول ارتجالا، ويطبعه عفواً صفواً، فلا يقعد به عن قوم قد تعبوا وكدوا أنفسهم وجاهدوا خواطرهم، وكذلك لا يخفَى عليهم الكلام العلوي، واللفظ الملوكي، كما لا يخفَى عليهم الكلام العامي، واللفظ السوقي.

ثم تراهم ينزلون الكلام تنزيلاً، ويعطونه ــ كيف تصرف ــ حقوقه، ويعرفون مراتبه، فلا يخفَى عليهم ما يختص به كلُّ فاضل تقدَّم في وجهٍ من وجوه النظم، من الوجه الذي لا يشاركه فيه غيره، ولا يساهمه سواه.

---

(١) هو ابو عمرو بن العلاء إمام العربية م ١٥٤ هـ.
(٢) راجع ذلك في البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢٤.
(٣) شاعر أموي مشهور مجيد.
(٤) شاعر جاهلي محسن.

ألا تراهم وصفوا زهيراً بأنه « أمدحهم وأشدهم أثر شعر »، قاله أبو عبيدة، ورُوي أن الفرزدق انتحل بيتاً من شعر جرير وقال : هذا يشبه شعري، فكان هؤلاء لا يخفى عليهم ما قد نسبناه اليهم من المعرفة بهذا الشأن، وهذا كما يعلم البزازون هذا الديباج عمل بتستر[1]، وهذا لم يعمل بتستر، وأن هذا من صنعة فلان دون فلان، ومن نَسْج فلان دون فلان، حتى لا يخفَى عليه وإن كان قد يخفَى على غيره.

ثم إنهم يعلمون أيضاً مَنْ له سَمْتٌ بنفسه، ومذهب[2] برأسه، ومَنْ يقتدي في الألفاظ أو في المعاني أو فيهما بغيره، ويجعل سواه قدوةً له، ومَنْ يلمُّ في الأحوال بمذهب غيره، ويأتي في الأحيان بمخترعه.

وهذه أمور ممهدة عند العلماء، وأسباب معروفة عند الأدباء، وكما يقولون : إن البحتري يغير على أبي تمام إغارة، ويأخذ منه صريحاً واشارة، ويستأنس بالأخذ منه، بخلاف ما يستأنس بالأخذ من غيره، ويألف اتِّباعه كما لا يألف اتِّباع سواه، وكما كان أبو تمام يلمُّ بأبي نواس ومسلم، وكما يعلم أن بعض الشعراء يأخذ من كل أحد ولا يتحاشى، ويؤلف ما يقوله من فرق شتى. وما الذي نفع المتنبي[3] جحوده الأخذ، وإنكاره معرفته الطائيين ؟ وأهل الصنعة يدلُّون على كل حرف أخذه منهما جهاراً، أو ألمَّ بهما فيه سراراً، وأما ما لم يأخذ عن الغيب، ولكن سلك النمط، وراعَى النهج، فهم يعرفونه، ويقولون : هذا أشبه به من التمرة بالتمرة، وأقرب اليه من الماء الى الماء، وليس بينهما إلا كما بين الليلة والليلة، فاذا تباينا، وذهب أحدهما في غير مذهب صاحبه، وسلك في غير جانبه، قيل : بينهما ما بين السماء والأرض، وما بين النجم والنون، وما بين المشرق والمغرب.

---

(١) بلد مشهورة بالعراق.

(٢) في الاصل : ورفت.

(٣) أبو الطيب المتنبي شاعر العربية العظيم المتوفي عام ٣٥٤ هـ.

وانما أطلت عليك، ووضعت جميعه بين يديك، لتعلم أن أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن وجليله، وغامضه وجليه، وقريبه وبعيده، ومعوجه ومستقيمه. فكيف يخفَى عليهم الجنس الذي هو بين الناس متداول، وهو قريب متناول، من أمر يخرج عن أجناس كلامهم، ويبعد عما هو في عرفهم، ويفوت مواقع قدرهم ... واذا اشتُبه ذلك، فإنما يُشتَبه على ناقص في الصنعة، أو قاصرٍ عن معرفة طرق الكلام الذي يتصرفون فيه، ويديرونه بينهم، ولا يتجاوزونه، فلكلامهم سبل مضبوطة، وطرق معروفة محصورة، وهذا كما يُشتَبه على مَنْ يدَّعي الشعر من أهلِ زماننا، والعلم بهذا الشأن، فيدَّعي أنه أشعر من البحتري، ويتوهَّم أنه أدقُّ مسلكا من أبي نواس، وأحسن طريقاً من مسلم، وأنت تعلم أنهما متباعدان، وتتحقق أنهما لا يجتمعان، ولعل أحدهما إنما يلحظ عبارة صاحبه، ويطالع ضياء نجمه، ويراعي حفوف جناحه، وهو راكد في موضعه، ولا يضرُّ البحتري ظنه، ولا يلحقه بشأوه وهمه.

فان اشتبه على متأدب، أو متشاعر، أو ناشئ، أو مرمد، فصاحة القرآن وموقع بلاغته، وعجيب براعته، فما عليك منه، إنما يخبر عن نقصه، ويدل على عجزه، ويبين عن جهله، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله.

وإنما قدمنا ما قدمناه في هذا الفصل، لتعرف أن ما ادعيناه من معرفة البليغ بعلو شأن القرآن، وعجيب نظمه وبديع تأليفه، أمر لا يجوز غيره، ولا يحتمل سواه، ولا يشتبه على ذي بصيرة، ولا يخيل عند أخي معرفة، كما يعرف الفصل بين طبائع الشعراء من أهل الجاهلية وبين المخضرمين وبين المحدثين، ويميز بين مَنْ يجري على شاكلة طبعه، وغريزة نفسه، وبين مَنْ يشتغل بالتكلف والتصنع، وبين مَنْ يصير التكلف له كالمطبوع، وبين مَنْ كان مطبوعه كالتعمل المصنوع. هيهات هيهات، هذا أمر — وإن دقَّ — فله قوم يقتلونه علماً؛ وأهل يحيطون به فهما، ويعرفونه اليك ان شئت، ويصورونه لديك إن أردت، ويجعلونه على خواطرك إن احببت، ويعرضونه

لفطنتك إن حاولت، وقد قال القائل :

للحرب والضرب أقوامٌ لها خلقوا   وللدواويـــن كتَّـــابٌ وحسَّابُ

ولكل عمل رجال، ولكل صنعة ناس، وفي كل فرقة الجاهل والعالم والمتوسط، ولكن قد قلَّ مَنْ يميز في هذا الفن خاصة، وذهب مَنْ يحصل في هذا الشأن إلَّا قليلا.

فإن كنت ممن هو بالصفة التي وصفناها من التناهي في معرفة الفصاحات والتحقق بمجاري البلاغات، فإنما يكفيك التأمُّل، ويغنيك التصوُّر، وإن كنت في الصنعة مرمداً وفي المعرفة بها متوسطاً، فلا بدَّ لك من التقليد، ولا غنىً بك عن التسليم : ان الناقص في هذه الصنعة كالخارج عنها، والشادي فيها كالبائن منها.

فإنّ أراد أن يقرب عليه أمراً، ويفسح له طريقا ويفتح له باباً، ليعرف به إعجاز القرآن فإنَّا نضع بين يَدَيْه الأمثلة، ونعرض عليه الأساليب، ونصوِّر له صورة كل قبيل من النظم والنثر، ونحضر له من كل فن من القول شيئاً يتأمله حق تأمله، ويراعيه حق مراعاته، فيستدل استدلال العالم، ويستدرك استدراك الناقد، ويقطع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية، الطالع عن الإلهية، الجامع بين الحكم والحكم والاخبار عن الغيوب والغائبات، والمتضمن لمصالح الدنيا والدين والمستوعب لجلية اليقين، والمعاني المخترعة في تأسيس أصل الشريعة وفروعها، بالألفاظ الشريفة على تفننها وتصرفها ... ونعمد الى شيء من الشعر المجمع عليه فنبيِّن وجه النقص فيه، وندلُّ على انحطاط رتبته، ووقوع أبواب الخلل فيه، حتى إذا تأمل ذلك، وتأمل ما نذكره، من تفصيل إعجاز القرآن وفصاحته وعجيب براعته، انكشف له واتضح، وثبت ما وصفناه لديه، ووضح؛ وليعرف حدود البلاغة، ومواقع البيان والبراعة، ووجه التقدُّم في الفصاحة.

وذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين[1] أن الفارسي سئل، فقيل له : ما البلاغة ؟ فقال : معرفة الفصل من الوصل، وسئل اليوناني عنها فقال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام، وسئل الرومي عنها فقال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة، وسئل الهندي عنها فقال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة. وقال مرة : التماس حسن الموقع، والمعرفة بساحات القول، وقلة الخرق بما التبس من المعاني، أو غمض وشرد من اللفظ وتعذَّر، وزينته أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدلة، واللهجة نقية، وأن لا يكلم سيِّدَ الأمَة بكلام الأمَة ، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ويصفيها كل التصفية، ويهذبها بغاية التهذيب.

وأما البراعة ففيما يذكر أهل اللغة : الحذق بطريقة الكلام وتجويده، وقد يوصف بذلك كل متقدم في قول أو صناعة.

وأما الفصاحة فقد اختلفوا فيها : منهم مَنْ عبَّر عن معناها بأنه ما كان جزل اللفظ حسن المعنى، وقد قيل : معناها : الاقتدار على الإبانة عن المعاني الكامنة في النفوس، على عبارات جلية ومعان نقية بهية.

والذي يصور عندك ما ضمنَّا تصويره، ويحصل عندك معرفته إذا كنت في صنعة الأدب متوسطا. وفي علم العربية متبيناً، أن تنظر أولا في نظم القرآن ثم في شيء من كلام النبي ﷺ، فتعرف الفصل بين النظمين، والفرق بين الكلامين، فان تبيَّن لك الفصل، ووقعت على جلية الأمر، وحقيقة الفرق، فقد أدركت الغرض، وصادفت المقصد، وإن لم تفهم الفرق ولم تقع على الفصل، فلا بدَّ لك من التقليد، وعلمت أنك من جملة العامة وان سبيلك سبيلُ مَنْ هو خارجٌ عن أهل اللسان.

---

(١) ٧٥ جـ ١ البيان والتبيين.

خطبة للنبي ﷺ

روى طلحة بن عبيد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب على منبره يقول :

ألا أيها الناس : توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا، وبادروا الأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة في السر والعلانية، ترزقوا وتؤجروا وتنصروا.

واعلموا أن الله عز وجل قد افترض عليكم الجمعة، في مقامي هذا في عامي هذا، في شهري هذا، الى يوم القيامة، حياتي ومن بعد موتي.

فمَنْ تركها وله إمام فلا جمع الله له شمله، ولا بارك له في أمره، ألا ولا حج له، ألا ولا صوم له، ألا ولا صدقة له، ألا ولا بر له، ألا ولا يؤم إعرابي مهاجرا، ألا ولا يؤم فاجر مؤمنا، إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه.

خطبة له ﷺ

أيها الناس : إن لكم معالم فانتهوا الى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين : بين أجلٍ قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجلٍ قد بقي لا يدري ما الله تعالى قاضٍ عليه فيه ... فليأخذ العبد لنفسه من نفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت.

والذي نفس محمدٍ بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار.

خطبة له ﷺ

ان الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيآت أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضلَّ له ومن يضلِلْ فلا هادي له. وأشهد أن لا

إله إلا الله وحده لا شريك له، إنَّ أحسنَ الحديث كتابُ الله، قد أفلح مَنْ زينة الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أصدقُ الحديث وأبلغه. أحبوا مَنْ أحبَّ الله. وأحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقسو عليه قلوبكم. اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، اتقوا الله حق تقاته، وصدقوا صالح ما تعملون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله بينكم، والسلام عليكم ورحمة الله.

* * *

خطبة له ﷺ في أيام التشريق

قال بعد حمد الله : أيها الناس، هل تدرون في أي شهر أنتم، وفي أي يوم أنتم، وفي أي بلد أنتم ؟ قالوا : في يوم حرام، وشهر حرام، وبلد حرام، قال : ألا فإنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه. ثم قال : اسمعوا مني تعيشوا، ألا لا تظالموا (ثلاثا)، ألا إنه لا يحلُّ مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه، ألا إن كلَّ دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه، ألا وإن أول دم وُضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب[1]. ألا وإن كلَّ ربا كان في الجاهلية موضوع، ألا وإن الله تعالى قضى أن أول ربا يوضع ربا عمي العباس؛ لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون.

ألا وإن الزمانَ قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض، ﴿ **منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم، فلا تظلموا فيهن أنفسكم** ﴾[2]، ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا وإن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكن في التحريش بينكم.

---

(١) كان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل ــ وقد جاءت هذه العبارة في نص المتن في الطبعات. ويبدو أنها من زيادات النساخ أو من تعليق القراء في النسخ الخطية.

(٢) سورة التوبة آية ٣٦.

اتقوا الله في النساء، فانهن عندكم عوان[1] لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإن لهن عليكم حقّاً ولكم عليهن حقٌّ، ألا يوطئن فرشكم أحداً غيركم، فان خفتم نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، فإنما أخذتموهن بأمانة الله تعالى، واستحللتم فروجهن بكلمة الله. ألا ومَنْ كانت عنده أمانة فليؤدها إلى مَنْ ائتمنه عليها ... ثم بسط يده فقال : ألا هل بلغت ؟ ليبلغ الشاهد الغائب، فربَّ مبلغٍ أبلغُ من سامع.

خطبته ﷺ يوم فتح مكة

وقف على باب الكعبة ثم قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كلُّ مأثرةٍ أو دمٍ أو مالٍ يُدَّعى فهو تحت قدمي هاتين إلَّا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقَتْلُ الخطأ العمد بالسوط والعصا فيه الدية مغلظة منها أربعون خلفة في بطونها أولادها، يا معشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خلق من تراب، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ .. الآية[2].

يا معشر قريش ــ أو يا أهل مكة ــ : ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ، قال : فاذهبوا فانتم الطلقاء.

خطبته ﷺ بالخيف

روى زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خطب بالخيف من مِنى فقال : نصر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها، ثم أدَّاها الى مَنْ لم يسمَعْها، فربَّ حامل فِقْهٍ لا فقه له، وربَّ حاملِ فقهٍ الى من هو أفقهُ منه.

---

(١) جمع عان وهو الأسير.

(٢) سورة الحجرات آية ١٣

ثلاث لا يغلَّ عليهن قلب المؤمن : إخلاص العمل لله، والنصيحة لأولي الأمر، ولزوم الجماعة إن دعوتهم تكون من ورائه، ومن كان همه الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة، ومَنْ كان همه الدنيا فرق الله أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلَّا ما كتب له.

خطبة له ﷺ

رواها أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، خطب بعد العصر فقال : ألا إن الدنيا خضرة حلوة، ألا وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقُّوا الدنيا واتقُّوا النساء. ألا لا يمنعن رجلا مخافةَ الناس أن يقول الحق اذا علمه. قال : ولم يزل يخطب حتى لم تبق من الشمس إلَّا حمرة على أطراف السعف، فقال : انه لم يبق من الدنيا فيما مضَى الا كما بقي من يومكم هذا فيما مضَى.

كتاب النبي ﷺ الى ملك فارس

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس : سلام على مَن اتَّبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله. وأدعوك بدعاء الله فاني أنا رسول الله الى الناس كافة لأنذر مَنْ كان حيّاً ويحق القول على الكافرين. فأسلم تسلم.

كتاب له ﷺ الى النجاشي

من محمد رسول الله الى النجاشي ملك الحبشة : سلم أنت. فاني أحمد اليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة فحملت بعيسى فحملته من روحه ونفخه، كما خلق آدم من طين بيده ونفخه. واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي

جاءني. وإني أدعوك وجنودك الى الله تعالى فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي. والسلام على مَن اتَّبع الهدى.

نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية

هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله ﷺ سهيل بن عمرو : اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ... يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه مَنْ أتَى رسول الله ﷺ بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم. ومَنْ جاء قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ، لم يردُّوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأنه مَنْ أحبَّ أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده دخل فيه، ومَنْ أحبَّ أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه، وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة فاذا كان عاماً قابلا خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا، وان معك سلاح الراكب والسيوف في القرب، فلا تدخلها بغير هذا[1].

(الفرق ظاهر بين بلاغة القرآن وبلاغة الرسول)

ولا أطول عليك، وأقتصر على ما ألقيته اليك، فان كان لك في الصنعة حظ، أو كان لك في هذا المعنى حس، أو كنت تضرب في الأدب بسهم، أو في العربية بقسط، وإن قلَّ ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب : فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول ﷺ في خطبه ورسائله، وما عساك تسمعه من كلامه، ويتساقط اليك من ألفاظه .. وأقدر أنك ترى بين الكلامين بوناً بعيداً، وأمداً مديداً، وميداناً واسعاً، ومكاناً شاسعاً.

فان قلت لعله أن يكون تعمل للقرآن وتصنع لنظمه، وشبه عليك

---

(١) في النسخ أخطاء كثيرة في هذا العهد، وقد أصلحناها مراجعة على كتب الحديث والسيرة (راجع ٢٣١ جـ ٢ الروض الأنف وسواه).

الشيطان ذلك من خبثه. فتثبت في نفسك وارجع الى عقلك واجمع لبَّك، وتيقَنْ أن الخطب يحتشد لها في المواقف العظام والمحافل الكبار والمواسم الضخام، ولا يتجوز فيها، ولا يستهان بها، والرسائل الى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه[1]، ويشمر لها عن جد واجتهاد، فكيف يقع بها الإخلال ؟ وكيف يتعرض للتفريط ؟

فستعلم لا محالة أن نَظْمَ القرآن من الأمر الإلهي، وان كلام النبي ﷺ من الأمر النبوي.

فاذا أردت زيادة في التبيين، وتقدُّماً في التعرف، وإشرافاً على الجلية، وفوزاً بمحكم القضية، فتأمَّلْ ــ هداك الله ــ ما ننسخه لك من خطب الصحابة والبلغاء، لتعلم أن نسجها ونسج ما نقلنا من خطب النبي ﷺ واحد، وسكبها سَبْكٌ غير مختلف، وانما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين، وبين شعر الشاعرين، وذلك أمر له مقدار معروف، وحدٌّ ــ ينتهي اليه ــ مضبوط، فاذا عرفت أن جميع كلام الآدمي منهاج، ولجملته طريق، وتبيَّنت ما يمكن فيه من التفاوت، نظرت الى نظم القرآن نظرة اخرى، وتأملته مرة ثانية، فتراعي بعد موقعه، وعالي محله وموضعه، وحكمت بواجب من اليقين، وثلج الصدر بأصل الدين.

* * *

خطبة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه

قام خطيبا فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

أمَّا بعد، فإني وليت أمركم، ولست بخيركم، ولكن نزل القرآن وسنّ النبي ﷺ، وعلمنا فعلمنا. واعلموا أن اكيس الكيس التقي وان احمق الحمق

(١) أخذه بجراميزه أي أجمع .. والجرموز : الحوض والبيت الصغير، والجرامز : قوائم الوحش وجسده وبدن الانسان.

الفجور، وأن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وأن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق. أيها الناس، إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن احسنت فأعينوني، وإن زغت فقوّموني.

عهد لأبي بكر الصديق الى عمر رضي الله عنهما[١]

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ آخر عهده بالدنيا وأول عهد بالآخرة، ساعة يؤمن فيها الكافر ويتقي فيها الفاجر : إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإنّ برَّ وعدل فذاك ظنّي به ورأيي فيه، وإن جارَ وبدَّل فلا عِلْمَ لي بالغيب، والخيرَ أردتُ لكم، ولكل امرئ ما اكتسب من الإثم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وفي حديث عبد الرحمن بن عوف رحمة الله عليه قال[٢] : دخلت على أبي بكر الصديق رضي الله عنه في علّته التي مات فيها فقلت : أراك بارئاً يا خليفة رسول الله. فقال : أما إني على ذلك لشديد الوجع، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشدُّ عليَّ من وجعي. إني وليت أموركم خيركم في نفسي فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر من دونه، والله لتتخذن نضائد الديباج[٣] وستور الحرير، ولتألمن النوم على الصوف الأذربي[٤] كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان[٥]. والذي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب رقبته في غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا : يا هادي الطريق جرت، إنما هو — والله — الفجر أو البجر[٦] .. قال :

---

(١) راجعه في الكامل للمبرد ص ٦ حـ ١ ط ١٣٢٣.

(٢) راجع الحديث مشروحا في الكامل للمبرد ص ٤ حـ ١ ط ١٢٢٣ هـ.

(٣) واحدتها نضيدة وهي الوسادة وما ينضد من المتاع.

(٤) نسبة إلى أذربيجان.

(٥) السعدان : نبت كثير الحسك تأكله الابل فتضمن عليه ويغذوها غذاء لا يوجد في غيره.

(٦) يقول له : إن انتظرت حتى يضيء لك القمر الطريق أبصرت قصدك وإن خبطت الظلماء وركبت العشواء هجما بك على المكروه .. وضرب ذلك مثلا لغمرات الدنيا وتحييرها لأهلها.

فقلت : خفض عليك يا خليفة رسول الله ﷺ، فان هذا يهيضك[1] إلى ما بك، فوالله ما زلت صالحاً مصلحاً، لا تأسى على شيء فائتك من امر الدنيا، ولقد تخلَّيت بالأمر وحدك فما رأيت إلا خيراً.

* * *

وله خطب ومقامات مشهورة اقتصرنا منها على ما نقلنا، منها قصة السقيفة.

نسخة كتاب

كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهم :

سلام عليك فإنَّا نحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنَّا عهدناك وأمر نفسك لك مهم، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الصديق والعدو، والشريف والوضيع، ولكلٍّ حصته من العدل، فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك، فإنَّا نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه، وتجب فيه القلوب[2]، وإنَّا كنا نتحدث أن هذه الأمة ترجع في آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة، وإنَّا نعوذ بالله أن تنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، فإنَّا إنَّما كتبنا اليك نصيحة لك. والسلام.

فكتب اليهما :

من عمر بن الخطاب، الى أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل :

سلام عليكما، فإني أحمد اليكما الله الذيلا إله إلا هو. أما بعد فقد

---

(١) من هيض العظم : إذا جبر ثم أصابه شيء يعنته فأذاه فكسره ثانية ــ أو لم يكسره ــ وأكثر ما يستعمل في كسره ثانية.

(٢) وجب القلب : خفق.

جاءني كتابكما تزعمان أنه بلغكما أني وليت أمر هذه الامة أحمرها وأسودها يجلس بين يدي الصديق والعدو والشريف والوضيع، وكتبتما أن انظر كيف أنت يا عمر عند ذلك ؟ وإنه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك الا بالله.

وكتبتما تحذراني ما حذرت به الأمم قبلنا .. وقديماً كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، ويأتيان بكل موعود، حتى يصير الناس الى منازلهم من الجنة أو النار، ثم توفى كل نفس بما كسبت ان الله سريع الحساب.

وكتبتما تزعمان أن أمر هذه الأمة يرجع في آخر زمانها ان يكون إخوان العلانية أعداء السريرة .. ولستم بذلك وليس هذا ذلك الزمان، ولكن زمان ذلك حين تظهر الرغبة والرهبة، فتكون رغبة بعض الناس الى بعض إصلاح دينهم، ورهبة بعض الناس إصلاح دنياهم.

وكتبتما تعوذانني بالله أن أنزل كتابكما مني سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما، وإنما كتبتما نصيحة لي .. وقد صدقتكما فتعهداني منكما بكتاب، ولا غنَى بي عنكما.

عهد من عهود عمر رضي الله عنه[١]

بسم الله الرحمن الرحيم * من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عبدالله بن قيس.

سلام عليك. أما بعد، فان القضاء فريضة محكمة، وسنَّة متبعة، فافهم اذا أدلى اليك، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.

آسِ[٢] بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع

(١) راجع هذا العهد في الكامل المبرد ص ٧ و ٨ حـ ١ ط ١٣٢٣ هـ.
(٢) أي سَوِّ بينهم، وتقديره اجعل بعضهم أسوة بعض.

شريف في حيفك[1]، ولا ييأس ضعيف من عدلك.

البيِّنة على مَن ادَّعى، واليمين على مَنْ أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلَّا صلحا أحلَّ حراماً أو حرَّم حلالاً ... ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه عقلك، وهديت لرشدك، أن ترجع الى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خيرٌ من التمادي في الباطل ... الفهم الفهم فيما تلجلج[2] في صدرك، مما ليس في كتاب ولا سنَّة، ثم اعرفِ الاشباه والأمثال، وقس الامور عند ذلك، واعمد الى أشبهها بالحق، واجعل لمن ادّعى حقّاً غائباً أو بيِّنةً أمداً ينتهي اليه فان أحضر بينته، أخذت له بحقه، وإلَّا استحللت عليه القضية، فإنه أنفى للشك، وأجلى للعمى ... المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً في حدّ، أو مجرياً عليه شهادة زور، أو ظنينا[3] في ولاء أو نسب، فان الله ولى منكم السرائر، ودرأ[4] بالايمان والبينات، وإياك والغلق[5] والضجر والتأذي بالخصوم، والتنكُّر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر، ويحسن به الذخر، فمن صحت نيَّته، وأقبل على نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق[6] للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله، فما ظنك بثواب الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام.

ولعمر رضي الله عنه خطب مشهورة مذكورة في التاريخ لم ننقلها اختصارا.

---

(١) الحيف الجور : أي في ميلك معه لشرفه.

(٢) أي تردد وأصل ذلك الكلمة يرددها الرجل إلى أن يصلها بأخرى.

(٣) أي منهما.

(٤) أي دفع ــ قال رسول الله : ادرأوا الحدود بالشبهات.

(٥) في الأصل : الغلو ــ وهو تحريف .. الغلق ضيق الصدر يقال في سوء الخلق رجل غلق.

(٦) أي أظهر خلقا، أي أظهرالناس في خلقه خلاف نيته.

ومن كلام عثمان بن عفان رضي الله عنه

خطبة له رضي الله عنه

قال : إن لكل شيء آفة، وإن لكل نعمة عاهة، في هذا الدين عيَّابون ظنَّانون، يظهرون لكم ما تحبون، ويسرون ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون، طغام[١] مثل النعام، يتبعون أول ناعق : أحب مواردهم إليهم النازح، لقد أقررتهم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم علي، ولكنه وقمكم[٢] وقمعكم[٣]، وزجركم زجر النعام المخزمة. والله إني لأقرب ناصراً، وأعز نفراً، وأقمَنُ إن قلتُ هلمَّ أن تُجاب دعوتي من عمر. هل تفقدون من حقوقكم شيئاً فما لي لا افعل في الحق ما أشاء؛ اذاً فلِمَ كنتُ إماما ؟

كتابه إلى علي حين حصر ـــ رضي الله عنهما

أما بعد، فقد بلغ السيل الزبى[٤]، وجاوز الحزام الطبيين[٥]، وطمع في مَنْ لا يدفع عن نفسه. فاذا أتاك كتابي هذا فأقبل الي، عليَّ كنتَ ام لي.

فان كنت مأكولاً فكن خير آكلٍ والا فادركنـــي ولمـــا أمـــزق

ومن كلام علي رضي الله عنه قال : لما قبض أبو بكر رضي الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض النبي ﷺ، وجاء عليّ باكياً مسترجعاً وهو يقول : اليوم انقطعت خلافة النبوة .. حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر فقال :

رحمك الله أبا بكر، كنت إلف رسول الله ﷺ وأنسه وثقته وموضع

---

(١) الطغام : عامة الناس أو اللئام أو من لا عقل له ولا معرفة عنده.

(٢) أي أخذكم بالشدة والزجر والعنف .. وقمه : قهره وأذله.

(٣) أي ضربه وذلّله : وأصله ضربه بالمقمعة وهي العمود من الحديد وخشبة يضرب بها الانسان على رأسه.

(٤) الزبية : مصيدة الاسد وتكون في رؤوس الجبال والهضاب. وهو مثل يضرب لتفاقم الأمر.

(٥) مواضع الاخلاف من السباع والخيل يقال لها أطباء .. وهو مثل لشدة الحال والانتهاء في المكروه.

سره؛ كنت أول القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدّهم يقيناً، وأخوفَهم لله، وأعظمهم غناء في دين الله، وأحوطهم على رسوله، وأيمنهم[1] على الإسلام؛ وآمنهم على أصحابه. أحسنهم صحبة، وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأقربهم برسول الله ﷺ سنناً وهدياً ورحمة وفضلاً، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه، وأوثقهم عنده، جزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيراً .. كنت عنده بمنزلة السمع والبصر، صدقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس، فسماك الله في تنزيله صديقاً، فقال : ﴿ **والذي جاء بالصدق وصدق به** ﴾[2]. واستيه حين بخلوا، وقمت معه عند المكاره حين عنه قعدوا؛ وصحبته في الشدائد اكرم الصحبة ثاني اثنين، وصاحبه في الغار، والمنزل عليه السكينة والوقار، ورفيقه في الهجرة، وخليفته في دين الله وفي أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس، فنهضت حين وَهَنَ أصحابك، وبرزت حين استكانوا وقويت حين ضعفوا، وقمت بالأمر حين فشلوا، ونطقت حين تبعبعوا[3]، مضيت بنور إذ وقفوا، واتبعوك فهدوا، وكنت أصوبهم منطقاً، وأطولهم صمتاً، وأبلغهم قولاً، وأكثرهم رأياً، وأشجعهم نفساً، وأعرفهم بالأمور وأشرفهم عملا. كنت للدين يعسوباً[4]، أولاً حين نفر عنه الناس، وآخراً حين أقبلوا، وكنت للمؤمنين أباً رحيماً اذ صاروا عليك عيالاً فحملت أثقال ما ضعفوا، ورعيت ما اهملوا، وحفظت ما أضاعوا، وشمرت اذ خنعوا[5]، وعلوت إذ هلعوا[6]، وصبرت اذ جزعوا، وأدركت أوتار ما طلبوا، ورجعوا رشدهم برأيك فظفروا ونالوا بك ما لم يحتسبوا؛ وكنت كما قال رسول الله ﷺ آمن الناس عليه في صحبتك وذات يدك، وكنت كما قال ضعيفاً في

---

(١) في الطبعة الأولى : وآمنهم.

(٢) سورة الزمر الآية ٣٣.

(٣) تلجلج الكلام في أفواههم، وتتابع الحروف في النطق.

(٤) أمير النحل وذكرها والرئيس الكبير.

(٥) جبنوا.

(٦) الهلع شدة الجزع.

بدنك، قويّاً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً في أعين الناس، كبيراً في أنفسهم، لم يكن لأحد فيك مغمز، ولا لأحد مطمع ولا لمخلوق عندك هوادة؛ الضعيف الذليل عندك قوي عزيز حتى تأخذ له بحقه، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق، القريب والبعيد عندك سواء، أقرب الناس اليك أطوعهم لله. شأنك الحق والصدق والرفق .. قولك حكم، وأمرك حزم[1] ورأيك علم وعزم، فأبلغت وقد نهج السبيل، وسهل العسير، وأطفأت النيران، واعتدل بك الدين، وقوي الايمان، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون، واتعبت من بعدك اتعاباً شديداً، وفزت بالجدِّ فوزاً مبيناً .. فجللت عن البكاء، وعظمت رزيتك في السماء، وهدت مصيبتك الأنام فإنَّا لله إنَّا اليه راجعون، رضينا عن الله قضاء، وسلمنا له أمره، فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبداً، فألحقك الله بنبيه، ولا حرمنا أجرك، ولا أضلنا بعدك.

وسكت الناس حتى انقضى كلامه. ثم بكوا، حتى علت أصواتهم.

خطبة أخرى لعلي رضي الله عنه

أما بعد، فإنَّ الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع .. المضمار اليوم وغدا السباق. ألا وإنكم في أيام مهل ومن ورائه أجل، فمن أخلص في أيام أمله فقد فاز، ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أمله، ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرهبة. ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها. ألا وإنه مَنْ لم ينفعه الحق يضرُّ به الباطل ومَنْ لم يستقم به الهدى يجر[2] به الضلال: ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن، ودللتم على الزَّاد، ألا وإن أخوفَ ما أخافُ عليكم الهوى وطول الأمل.

---

(١) هكذا في الطبعة الأولى. وفي الخطية بياض مكان الكلمة.

(٢) من الجور.

وخطب فقال بعد حمد الله : أيها الناس اتقوا الله فما خلق امرؤ عبثاً فيلهو، ولا أهمل سدىً فيغلو، ما دنياه التي تحسنت اليه بخلف من الآخرة التي قبحها سوء النظر اليه، وما الخسيس الذي ظفر به من الدنيا بأعلى همته كالآخر الذي ظفر به من الآخرة من سهمته.

وكتب عليٌّ رضي الله عنه الى عبدالله بن عباس رحمه الله وهو بالبصرة :

أما بعد، فإن المرء يسر بدرك ما يكن ليحرمه، ويسوؤه فَوْت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك بما قدمت من أجر أو منطق، وليكن أسفك[1] فيما فرطت فيه من ذلك، وانظر ما فاتك من الدنيا فلا تكثر عليه جزعاً، وما نلته فلا تنعم به فرحاً، وليكن همك لما بعد الموت.

كلام لابن عباس رضي الله عنه

قال عتبة بن أبي سفيان لابن عباس : ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبي موسى يوم الحكمين ؟ قال : منعه — والله — من ذلك حاجز القدر، وقصر المدة، ومحنة الابتلاء .. أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مدارج نفسه ناقضاً لما أبرم، ومبرماً لما نقض، أسفُّ[2] اذا طار، وأطير اذا أسفَّ. ولكن مضى قدر وبقي أسف، ومع يومنا غد، والآخرة خير لامير المؤمنين من الاولى.

خطبة لعبدالله بن مسعود رضي الله عنه

أصدق الحديث كتاب الله. وأوثق[3] العرا كلمة التقوى. خير الملل ملة إبراهيم، وأحسن السنن سنَّة النبي ﷺ. خير الامور أوساطها، وشر الامور

(١) هكذا في الطبعة الأولى. وفي الخطية بياض.
(٢) أسف: دنا من الأرض في طيرانه.
(٣) في الطبعة الأولى: وأصدق.

محدثاتها. ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى. خير الغِنَى غِنَى النفس، وخير ما ألقى في القلب اليقين. الخمر جماع الإثم، النساء حبالة الشيطان، الشباب شعبة من الجنون، حب الكفاية مفتاح المعجزة، من الناس مَنْ لا يأتي الجماعة إلا دبراً، ولا يذكر الله الا هجراً. أعظم الخطايا اللسان الكذوب، سباب المؤمن فسقٌ وقتاله كُفْر وأَكْلُ لحمه معصية. من يتأل على الله يكذبه، من يغفر يغفر له، مكتوب في ديوان المحسنين : من عفا عُفي عنه. الشقي مَنْ شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره، الأمور بعواقبها، ملاك العمل خواتيمه، أشرف الموت الشهادة، مَنْ يعرف البلاء يصبر عليه، ومَنْ لا يعرف البلاء ينكره.

خطبة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

قال الراوي : لما حضرته الوفاة قال لمولى له : مَنْ بالباب ؟ فقال : نفر من قريش يتباشرون بموتك ! فقال : ويحك وَلِمَ ؟ ثم أذِنَ للناس، فحمد الله فأوجز، ثم قال : أيها الناس، إنَّا قد أصبحنا في دهر عنود، وزمن شديد، يُعَدُّ فيه المحسن مسيئا، ويزداد الظالم فيه عتوّاً، لا ننتفع بما علمنا، ولا نسأل عما جهلنا، ولا نتخوَّف من قارعة حتى تحل بنا، فالناس على أربعة أصناف : منهم مَنْ لا يمنعه الفساد في الأرْض الا مهانة نفسه وكِلال جده ونضيض[1] وفره[2] .. ومنهم المسلط[3] سيفه، والمجلب[4] برجله[5] والمعلن[6] بشره، قد أشرط نفسه، وأوبق[7] دينه لحطام ينتهزه، أو مقنب[8]

(١) أي قليل.

(٢) المال الكثير.

(٣) في الطبعة الأولى : من المسلط.

(٤) أجلبوا عليه : تحملوا.

(٥) جمع راجل وهو الفارس.

(٦) في الخطية : المعلق.

(٧) أهلك.

(٨) جماعة الجيش.

يقوده أو منبر يقرعه، وبئس المتجر أن تراها لنفسك ثمناً، وممَّا عند الله عوضاً .. ومنهم مَنْ يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر من ثوبه وزخرف نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة الى المعصية .. ومنهم مَنْ أقعده عن الملك ضئولة في نفسه، وانقطاع سببه، فقصرت به الحال فتحلَّى باسم القناعة، وتزين بلباس الزهاد، وليس في ذلك في مراحٍ ولا مغدى ... وبقي رجال أغضَّ أبصارَهم ذكرُ المرجع، وأراق دموعَهم خوفُ المحشر، فهم بين شديد ناد،[1] وخائف متقمع[2] ووساكت مكعوم، وداعٍ مخلص، وموجع ثكلان، قد أخملتهم التقية، وشملتهم الذلة، فهم في بحر أجاج، أفواههم دامية وقلوبهم قريحة، قد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قلوا، فلتكن الدنيا في عيونكم أقل من حتاتة[3] القرظ[4] وقراضة الجلم[5]، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم مَنْ بعدكم، فارفضوها ذميمة، فإنها قد رفضت مَنْ كان أشغف بها منكم.

خطبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

أيها الناس : إنكم ميتون ثم إنكم مبعوثون، ثم إنكم محاسبون، فلعمري لئن كنتم صادقين، لقد قصرتم، ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم ... يا أيها الناس إنـه مَنْ يقدر له رزق برأس جبل أو بحضيض أرض يأته، فأجملوا في الطلب.

---

(١) فعله ندى من الجود يقال : سن للناس الندى فندوا.

(٢) مذل قاهر لنفسه.

(٣) ما يتساقط من الشيء ـــ بالفرك.

(٤) ورق السلم يدبغ به.

(٥) القراضة بالضم. ما سقط بالقرض أي القطع. والجلم : المقص.

خطبة للحجاج بن يوسف

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أهل العراق، ويا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، وبني اللكيعة[1]، وعبيد العصا وأولاد الإماء، والفقع[2] بالقرقر،[3] إني سمعت تكبيراً لا يراد به الله وإنما يراد به الشيطان، وإنما مثلي ومثلكم ما قاله ابن براقة الهمداني :

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالم ؟
متى تجمع القلب الذكي وصارما[4] وأنفا حميا تجتنبك المظالم

أما والله لا تقرع عصا عصا الا جعلتها كأمس الدابر.

خطبة لقس بن ساعدة الايادي

أخبرني محمد بن علي الانصاري بن محمد بن عامر، قال : حدثنا علي بن ابراهيم، حدثنا عبد الله بن داود بن عبد الرحمن العمري، قال : حدثنا الانصاري علي بن محمد الحنظلي من ولد حنظلة الغسيل، حدثنا جعفر بن محمد، عن محمد بن حسان، عن محمد بن حجاج اللخمي، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس، قال :

لما وَفَدَ وَفْدُ عبد القيس على رسول الله ﷺ قال : أيكم يعرف قس بن ساعدة قالوا : كلنا نعرفه يا رسول الله، قال: لست أنساه بعكاظ اذ وقف على بعير له أحمر فقال : أيها الناس اجتمعوا، واذا اجتمعتم فاسمعوا، واذا سمعتم فعوا، وإذا وعيتم فقولوا واذا قلتم فاصدقوا : مَنْ عاش مات ومَنْ مات فات، وكلُّ ما هو آت آت.

---

(١) اللئيم.

(٢) فقع لونه اي اشتدت صفرته وفقع أصابعه تفقيعا فرقعها.

(٣) الظهر.

(٤) الصارم السيف القاطع.

أما بعد، فإن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً. مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور[1]، وبحار لا تغور. أقسم بالله قس قسماً حقاً لا كاذباً فيه ولا آثماً لئن كان في الأرض رضاً ليكون سخط، إن لله تعالى ديناً هو أحب اليه من دينكم الذي أنتم عليه، وقد أتاكم أوانه ولحقتكم مدته. ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا.

ثم قال رسول الله ﷺ : أيكم يروي شعره ؟ فأنشدوه :

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي اليّ ... ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا ... لة حيث صار القوم صائر

أخبرني الحسن بن عبدالله بن سعيد، حدثنا علي بن الحسين بن اسماعيل، حدثنا محمد بن زكريا، حدثنا عبدالله بن الضحاك، عن هشام، عن أبيه أن وفداً من اياد قدموا على رسول الله ﷺ، فسألهم عن حال قس ابن ساعدة، فقالوا : قال قس :

يا ناعي الموت والأموات في جدث ... عليهم من بقايا بزهم خرقُ
دعهم فإن لهم يوماً يُصاح بهم ... كما ينبه من نوماته الصعقُ
منهم عراة ومنهم في ثيابهم ... منها الجديد ومنها الأورق الخلقُ

مطر ونبات، وآباء وأمهات، وذاهب وآت، وآيات في اثر آيات، وأموات بعد أموات. ضوء وظلام، وليال وأيام، وغني وفقير، وشقي وسعيد، ومحسن ومسيء. أين الأرباب الفعلة ؟ ليصلحَنَّ كلُّ عاملٍ عمله. كلا بل هو الله

---

(١) مار الشي على وزن قال : تحرك وجاء وذهب.

واحد؛ ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى، واليه المآب غدا. أما بعد يا معشر أياد، أين ثمود وعاد ؟ واين الآباء والأجداد ؟ اين الحسن الذي لم يشكر ؟ أين الظالم الذي لم ينقم ؟ كلا ورب الكعبة ليعودن ما بدا، ولئن ذهب يوم ليعودن يوم.

قال : وهو قس بن ساعدة بن حداق بن ذهل بن أياد بن نزار، أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأول من توكأ على عصا، وأول من تكلم بأما بعد.

خطبة لأبي طالب

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوباً، وجعلنا الحكام على الناس. وإن محمد بن عبد الله ابن أخي لا يوازن فتى من قريش الا رجح به بركةً وفضلاً ومجداً ونبلاً. وإن كان في المال مقلًّا، فإن المال عارية مسترجعة، وظل زائل، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أردتم من الصداق فعليَّ.

(الفرق ظاهر بين كلام البشر وكلام الله)

قد نسخت لك جملاً من كلام الصدر الأول ومحاوراتهم وخطبهم، وأحيلك فيما لم أنسخ على التواريخ والكتب المصنفة في هذا الشأن، فتأمل ذلك، وسائر ما هو مسطر من الأخبار المأثورة عن السلف وأهل البيان واللسن، والفصاحة والفطن، والألفاظ المنثورة، والمخاطبات الدائرة بينهم، والأمثال المنقولة عنهم .. ثم أنظر بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لبٍّ، وجَمْعِ عقلٍ، في ذلك، فسيقع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام ربِّ العالمين، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين، وتعلم الحدَّ الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ، والخطيب والخطيب، والشاعر والشاعر، وبين نظم القرآن جملة.

فان خيل اليك أو شبه عليك، وظننت أنه يحتاج أن يوازن بين نظم الشعر والقرآن، لأن الشعر أفصح من الخطب وأبرع من الرسائل وأدق مسلكاً من جميع أصناف المحاورات، ولذلك قالوا له ﷺ : هو شاعر أو ساحر. وسوّل اليك الشيطان أن الشعر أبلغ وأعجب وأرق وأبرع، وأحسن الكلام وأبدع، فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين وكلام بين المحققين.

أسمعت أفضل من رأيت من أهل العلم بالأدب والحذق بهذه الصناعة مع تقدُّمه في الكلام يقول : إن الكلام المنثور يتأتّى فيه من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأتى في الشعر، لأن الشعر يضيق نطاق الكلام، ويمنع القول من انتهائه، ويصدُّه عن تصرُّفه على سننه ... وحضره مَنْ يتقدم في صنعة الكلام فراجعه في ذلك، وذكر أنه لا يمتنع أن يكون الشعر أبلغ إذا صادف شروط الفصاحة، وأبدع إذا تضمن أسباب البلاغة.

ويشهد عندي للقول الأخير [1] أن معظم براعة كلام العرب في الشعر، ولا نجد في منثور قولهم ما نجد في منظومه. وإن كان قد أحدثت البراعة في الرسائل على حدٍّ لم يعهد في سالف أيام العرب. ولم ينقل من دواوينهم وأخبارهم، وهو وإن ضيق نطاق القول فهو يجمع حواشيه، ويضمُّ أطرافه ونواحيه، فهو إذا تهذب في بابه، وَوَفّى له جميع أسبابه، لم يقاربه من كلام الآدميين كلام، ولم يعارضه من خطابهم خطاب ... وقد حكي عن المتنبي أنه كان ينظر في المصحف، فدخل اليه بعض أصحابه، فأنكر نظره فيه لما كان رآه عليه من سوء اعتقاده، فقال له : هذا المكي على فصاحته كان مفحماً ... فإن صحت هذه الحكاية عنه في إلحاده، عرف بها أنه كان يعتقد أن الفصاحة في قول الشعر أبلغ. واذا كانت الفصاحة في قول الشعر، أو لم تكن، وبينا أن نظم القرآن يزيد في فصاحته على كلِّ نَظْمٍ، ويتقدم في بلاغته على كلِّ قَوْلٍ، بما يتضح به الأمر اتضاحَ

(١) وهو أن الشعر يتأتى فيه من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأتى في النثر.

الشمس، ويتبين به بيان الصبح، وقفت على جلية هذا الشأن.

فانظر فيما نعرضه عليك ما نعرضه، وتصوَّرْ بفهمك ما نصوِّره، ليقع لك موقع عظيم شأن القرآن، وتأمل ما نرتبه ينكشف لك الحق.

إذا أردنا تحقيق ما ضمناه لك، فمن سبيلنا أن نعمد الى قصيدة، متفق على كبر محلها، وصحة نظمها، وجودة بلاغتها ومعانيها، وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها، مع كونه من الموصوفين بالتقدم في الصناعة، والمعروفين بالحذق في البراعة، فنقفك[1] على مواضع خللها، وعلى تفاوت نَظْمها، وعلى اختلاف فصولها، وعلى كثرة فضولها، وعلى شدَّة تعسُّفها، وبعض تكلُّفها، وما تجمع من كلام رفيع، يقرن بينه وبين كلام وضيع، وبين لفظ سوقي يقرن بلفظ ملوكي، وغير ذلك من الوجوه التي يجيء تفصيلها، ونبين ترتيبها وتنزيلها.

فأما كلام مسيلمة الكذاب، وما زعم أنه قرآن، فهو أخس من أن نشتغل به، وأسخف من أن نفكر فيه .. وإنما نقلنا منه طرفاً ليتعجب القارئ، وليتبصر الناظر، فإنه على سخافته قد أضل، وعلى ركاكته قد أزل[2]؛ وميدان الجهل واسع، ومَنْ نظر فيما نقلناه عنه، وفهم موضع جهله، كان جديراً أن يحمد الله على ما رَزَقَهُ من فهم، وآتاه من علم.

فمما كان يزعم أنه نزل عليه من السماء : « والليل الأطخم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم : ما انتهكت «أسيد» من محرم ». وذلك قد ذكر في خلاف وقع بين قوم أتوه من أصحابه .. وقال أيضاً : « والليل الدامس، والذئب الهامس : ما قطعت « أسيد » من رطب ولا يابس » ... وكان يقول : « والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء واللبن الأبيض : إنه لعجب محض، وقد حرم المذق، فما لكم لا تجتمعون ».

---

(١) في الطبعة الأولى فنوقفك.

(٢) في الطبعة الاولى أذل.

وكان يقول : « ضفدع بنت ضفدعين، نقى ما تنقين، أعلاك في الماء، وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين : لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشا قوم يعتدون » ... وكان يقول : « والمبديات زرعا، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه[1] والمعتر[2] فآووه، والباغي فناوئوه ...

وقالت سجاح بنت الحارث بن عقبان — وكانت تتنبأ فاجتمع مسيلمة معها — فقالت له : ما أوحي اليك ؟ فقال : « ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا » .. وقالت : فما بعد ذلك ؟ قال : أوحي إليّ : « إن الله خلق النساء أفواجاً، وجعل الرجال لهن أزواجاً، فنولج فيهن قعساً إيلاجاً، ثم نخرجها اذا شئنا إخراجاً، فينتجن لنا سخالاً، نتاجاً »، فقالت : أشهد أنك نبي.

ولم ننقل كل ما ذكر من سخفه كراهية التثقيل .. ورُوي أنه سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه أقواماً قدموا عليه من بني حنيفة، عن هذه الألفاظ، فحكوا بعض ما نقلناه، فقال أبو بكر : سبحان الله، ويحكم إن هذا الكلام لم يخرج عن آل[3] : فأين كان يذهب بكم ؟ ومعنى قوله « لم يخرج عن آل » أي عن ربوبية ... ومن كان له عقل لم يشتبه عليه سخف هذا الكلام.

فنرجع الآن الى ما ضمناه، من الكلام على الأشعار المتفق على جودتها، وتقدُّم أصحابها في صناعتهم، ليتبين لك تفاوت أنواع الخطاب، وتباعد مواقع البلاغة، وتستدل على مواضع البراعة.

---

(١) من هنا تغيرت النسخة الخطية وكُتب على هامش الصحيفة : هذه التكملة نقلت من نسخة عبدالله باشا.

(٢) الجائع.

(٣) أي عن ربوبية.

(امرؤ القيس ومعلقته)

وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس، ولا ترتاب في براعته، ولا تتوقف في فصاحته، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أموراً اتبع فيها : من ذكر الديار، والوقوف عليها، الى ما يتَّصل بذلك من البديع الذي أبدعه، والتشبيه الذي أحدثه، والتمليح الذي يوجد[1] في شعره، والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله، والوجوه التي ينقسم اليها كلامه، من صناعة وطبع، وسلاسة وعلو، ومتانة ورقة، وأسباب تحمد، وأمور تؤثر وتمدح.

وقد ترى الأدباء أولاً يوازنون بشعره فلاناً وفلاناً، ويضمون أشعارهم الى شعره، حتى ربما ازنوا بين شعر مَنْ لقيناه وبين شعره[2]، في أشياء لطيفة، وأمور بديعة ... وربما فضلوهم عليه، أو سووا بينهم وبينه أو قربوا موضع تقدمهم عليه، وبرزوه بين أيديهم ... ولما اختاروا قصيدته في السبعينات[3]، أضافوا اليها أمثالها، وقرنوا بها نظائرها، ثم تراهم يقولون : لفلان لاميَّة مثلها، ثم ترى أنفس الشعراء تتشوَّق الى معارضته، وتساويه في طريقته، وربما غبرت في وجهه في أشياء كثيرة[4]، وتقدمت عليه في أسباب عجيبة، واذا

---

(١) في المخطوطة : والمليح الذي تجد في شعره.

(٢) هكذا في الطبعة الأولى والثانية وليست هذه الكلمة موجودة في المخطوطة.

(٣) وهي معلقة امرئ القيس.

(٤) هكذا في المخطوطة وفي الطبعة الأولى : وربما عثرت في وجهه على أشياء كثيرة.

جاءوا الى تعداد محاسن شعره، كان أمراً محصوراً، وشيئاً معروفاً، أنت تجد من ذلك البديع أو أحسن منه في شعر غيره، وتشاهد مثل ذلك البارع في كلام سواه، وتنظر الى المحدثين كيف توغلوا الى حيازة المحاسن، منهم مَنْ جمع رصانة الكلام الى سلاسته، ومتانته الى عذوبته، والإصابة في معناه الى تحسين بهجته، حتى إن منهم مَنْ إن قصر عنه في بعضٍ تقدَّم عليه في بعضٍ، لأن الجنس الذي يرمون اليه، والغرضَ، الذي يتواردون عليه، مما للآدميّ فيه مجال، وللبشريّ فيه مثال، فكلٌّ يضرب فيه بسهم، ويفوز فيه بقدح، ثم قد تتفاوت السهام تفاوتاً، وتتباين تبايناً، وقد تتقارب تقارباً، على حسب مشاركتهم في الصنائع، ومساهمتهم في الحرف ... ونظم القرآن جنس مميز، وأسلوب متخصص، وقبيل عن النظير[1] متخلص.

فاذا شئت أن تعرف عظم شأنه، فتأمل ما نقوله في هذا الفصل لامرئ القيس، في أجود أشعاره، وما نبين لك من عواره على التفصيل ..

وذلك قوله :

قفا نَبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ   بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ
فتوضحَ فالمقراةِ لم يَعْفُ رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمألِ [2]

الذين يتعصبون له، أو يدعون محاسن الشعر، يقولون : هذا من البديع؛ لأنه وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر العهد والمنزل والحبيب، وتوجع واسترجع، كله في بيت، ونحو ذلك ... وإنما بيَّنا هذا، لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن إن كانت، ولا غفلتنا عن مواضع الصناعة إن وجدت.

---

(١) في المخطوطة : النظم.

(٢) السقط : منقطع الرمل حيث يستدق من طرفه .. اللوى : رمل يعوج ويلتوي. الدخول وحومل موضعان، وكذلك توضح والمقراة. وسقط اللوى موضع بين هذه المواضع الأربعة. لم يعف رسمها : أي لم ينمح أثرها، والرسم : ما لصق بالأرض من آثار الديار ونسج الريحين اختلافهما عليها وستر أحدهما إياها بالتراب وكشف الأخرى التراب عنها.

تأمل أرشدك الله، وانظر هداك الله : أنت تعلم أنه ليس في البيتين شيء قد سبق في ميدانه شاعراً، ولا تقدَّم به صانعاً .. وفي لفظه ومعناه خلل :

فأول ذلك : أنه استوقف من يبكي لذكرى الحبيب[1]، وذكراه لا تقتضي بكاء الخلي، وإنما يصحُّ طلب الإسعاد في مثل هذا، على أن يبكي لبكائه، ويرق لصديقه في شدة برحائه، فأما أن يبكي على حبيب صديقه، وعشيق رفيقه، فأمر محال. فإن كان المطلوب وقوفه وبكاءه أيضاً عاشقاً، صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر، لأنه من السخف أن لا يغار على حبيبه، وأن يدعو غيره الى التغازل عليه، والتواجد، معه فيه[2].

ثم في البيتين ما لا يفيد، من ذكر هذه المواضع، وتسمية هذه الأماكن، من : « الدخول »؛ « وتوضح »، « والمقراة »، « وسقط اللوى »، وقد كان يكفيه أن يذكر في التعريف بعض هذا، وهذا التطويل اذا لم يفد كان ضرباً من العيّ[3].

ثم إن قوله « لم يعف رسمها »، ذكر الاصمعي من محاسنه أنه باقٍ، فنحن نحزن على مشاهدته، فلو عفا لاسترحنا، وهذا بأن يكون من مساويه أولى : لأنه إن كان صادق الود فلا يزيده عفاء الرسوم إلَّا جدَّة عَهْدٍ، وشدة وجد، وإنما قرع له الأصمعي الى[4] إفادته هذه الفائدة خشية أن يعاب عليه، فيقال : أي فائدة لأن يعرفنا أنه لم يعف رسم منازل حبيبه ؟ وأي معنى لهذا الحشو ؟ فذكر ما يمكن أن يذكر، ولكن لم يخلصه بانتصاره له من الخلل.

ثم في هذه الكلمة خلل آخر، لأنه عقب البيت بأن قال : « فهل عند

---

(١) هكذا في الطبعة الأولى. وفي المخطوطة : استوقف ثم بكى لذكرى الحبيب.

(٢) لا شك أن في هذا تحاملا شديدا في النقد.

(٣) في ذلك تعسف شديد في النقد.

(٤) في المخطوطة : لما.

رسم دارس من معول ؟ »، فذكر أبو عبيدة أنه رجع فأكذب نفسه، كما قال زهير :

قف بالديار التي لم يعفها القدم   نعـم وغيرهـا الأرواح والديـــم[1].

وقال غيره : أراد بالبيت الأول أنه لم ينطمس أثره كله، وبالثاني أنه ذهب بعضه، حتى لا يتناقض الكلامان؛ وليس في هذا انتصار، لأن معنى « عفا ودرس » واحد، فاذا قـال لم يعف رسمها ثم قال قد عفا فهو تناقض لا محالة، واعتذار أبي عبيدة أقرب لو صحَّ، ولكن لم يرد هذا القول مورد الاستدراك كما قاله زهير، فهو الى الخلل أقرب.

وقوله : « لما نسجتها »، كان ينبغي أن يقول : لما نسجها ولكنه تعسُّف، فجعل ما في تأويل التأنيث لانها في معنى الريح، والأَوْلى التذكير دون التأنيث، وضرورة الشعر قد دلته على هذا التعسُّف.

وقوله : « لم يعف رسمها »، كان الأَوْلى أن يقول « لم يعف رسمه »، لأنه ذكر المنزل، فإن كان ردَّ ذلك الى هذه البقاع والأماكن التي المنزل واقع بينها فذلك خلل، لأنه إنما يريد صفة المنزل الذي نزله حبيبه بعفائه، أو بأنه لم يعف دون ما جاوره، وإن أراد بالمنزل الدار حتى أَنَّث فذلك أيضاً خلل، ولو سلم من هذا كله ومما نكره ذكره كراهية التطويل لم نشكَّ في أن شعر أهل زماننا لا يقصر عن البيتين، بل يزيد عليهما ويفضلهما.

ثم قال :

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيهـم   يقولون لا تهلك أسى وتجمَّـلِ[2]

---

(١) ويروى : بلى مكان : نعم — الأرواح جمع ريح. والديم جمع ديمة وهي السحابة الممطرة — وهذا الأسلوب هو الرجوع عند علماء البديع ويشرحون محاسنه بوجوه كثيرة ينقد رأي الباقلاني فيه.

(٢) ويروى : تحمل.

وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسمٍ دارسٍ من معولِ ؟

وليس في البيتين أيضاً معنى بديع، ولا لفظ حسن كالأولين .. والبيت الأول منهما متعلق بقوله : «قفا نبك»، فكأنه قال : قفا وقوف صحبي بها على مطيِّهم، أو قفا حال وقوف صحبي، وقوله « بها » متأخر في المعنى وإن تقدم في اللفظ، ففي ذلك تكلُّف، وخروج من[2] اعتدال الكلام .. والبيت الثاني مختلٌّ من جهة أنه قد جعل الدمع في اعتقاده شافياً كافياً. فما حاجته بعد ذلك الى طلب حيلة أخرى؛ وتجمل ومعول عند الرسوم ؟ ولو أراد أن يحسن الكلام لوجب أن يدخل على أن الدمع لا يشفيه لشدة ما به من الحزن، ثم يسائل هل عند الربع من حيلة أخرى ؟

وقوله :

كدأبك من أُمّ الحويرث قبلها وجارتها أُمِّ الرباب بمأسلِ
إذا قامتا تضوَّعَ المسكُ منهما نسيمَ الصبا يأتي[3] بريَّا القرنفلِ[4]

أنت لا تشك في أن البيت الأول قليل الفائدة ليس له مع ذلك بهجة، فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ وإن كان منزوع المعنى ... وأما البيت الثاني فوجه التكلُّف فيه قوله : « إذا قامتا تضوَّع المسك منهما »، ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيباً على كلِّ حال، فأما في حال القيام فقط فذلك تقصير .. ثم فيه خلل آخر، لأنه بعد أن شبه عرفها بالمسك، شبه ذلك بنسيم القرنفل، وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص .. وقوله « نسيم الصبا » في تقدير المنقطع عن المصراع الأول لم يصله به وصل مثله.

---

(١) الصحب : جمع صاحب. المطي : الرواحل واحدتها مطية .. المهراق المصبوب. المعول : المعتمد. العبرة : الدمع.

(٢) في المخطوطة : عن.

(٣) رواية ديوان امرىء القيس وكذلك المخطوطة : جاءت.

(٤) الدأب : العادة ــ ومأسل : بفتح السين جبل بعينه، وبكسرها موضع ــ ضاع الطيب وتضوع : انتشرت رائحته ــ الريا : الرائحة الطيبة.

وقوله :

ففاضت دموع العين منى صبابة على النحر حتى بل دمعي محملي
ألا رُبَّ يومٍ لك منهـن صالـح ولا سيمـا يوم بدارة جلجـلِ[1]

قوله : « ففاضت دموع العين »، ثم استعانته بقوله « مني » استعانة ضعيفة عند المتأخرين في الصنعة، وهو حشو غير مليح ولا بديع ... وقوله : « على النحر » حشو آخر. لان قوله « بلَّ دمعي محملي » [يغني عنه ويدل عليه، وليس بحشو حسن، ثم قوله « حتى بل دمعي محملي »[2]]، إعادة ذكره الدمع حشو آخر، وكان يكفيه أن يقول حتى بلّت محملي، فاحتاج لإقامة الوزن الى هذا كله، ثم تقديره أنه قد أفرط في إفاضة الدمع حتى بلَّ محمله تفريط منه وتقصير، ولو كان أبدع لكان يقول : حتى بلَّ دمعي مغانيهم وعراصهم، ويشبه أن يكون غرضه إقامة الوزن والقافية، اذ الدمع يبعد أن يبلَّ المحمل وإنما يقطر من الواقف والقاعد على الأرض أو على الذيل، وان بَلَّه فلقلته وانه لا يقطر، وأنت تجد في شعر الخبزرزي[3] ما هو أحسن من هذا البيت وأمتن وأعجب منه، والبيت الثاني خالٍ من المحاسن والبديع، خلوّه من المعنى، وليس له لفظ يروق ولا معنى يروع، من طبائع السوقة، فلا يرعك تهويله باسم موضع غريب.

وقال :

ويـوم عقـرتُ للعـذارى مطيتـي فيا عجباً من رحلها المتحمل !!

---

(١) الصبابة رقة الشوق ــ المحمل حمال السيف ــ دارة جلجل : ماء بعينه.

(٢) ما بين القوسين في الطبعة الأولى لا في المخطوطة.

(٣) من شعراء اليتيمة وأحد المجددين في الأوصاف. توفي نحو عام ٤٠٠ هـ (٣٨٣ جـ ٤ اليتيمة نشر محيي الدين عبد الحميد).

فظَلَّ العذارى يرتمين بلحمِهَا وشحمٍ كهدَّابِ الدِّمقس المفتَّلِ [1]

تقديره : أذكر يوم عقرت مطيتي، أو يرده على قوله : « يوم بدارة جلجل ». وليس في المصراع الأول من هذا البيت إلَّا سفاهته[2]. قال بعض الأدباء : قوله « يا عجبا » يعجبهم من سفهه في شبابه من نحره ناقته لهم، وانما أراد أن لا يكون الكلام من هذا المصراع منقطعاً عن الأول، وأراد أن يكون الكلام ملائماً له. وهذا الذي ذكره بعيد، وهو منقطع عن الأول، وظاهره أنه يتعجب من تحمُّل العذارى رحله، وليس في هذا تعجُّبٌ كبير، ولا في نحر الناقة لهنَّ تعجُّب، وإن كان يعني به أنهن حمَلْنَ رحله، وأنَّ بعضهن حملنه، فعبر عن نفسه برحله، فهذا قليلا يشبه أن يكون عجباً، لكن الكلام لا يدلُّ عليه ويتجافى عنه. ولو سلم البيت من العيب لم يكن فيه شيء غريب، ولا معنى بديع، أكثر من سفاهته مع قلة معناه، وتقارب أمره. ومشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا ... وإلى هذا الموضع لم يمر له بيت رائع، وكلام رائق .. وأما البيت الثاني فيعدُّونه حسنا، ويعدُّون التشبيه مليحاً واقعاً، وفيه شيء، وذلك أنه عرف اللحم ونكر الشحم، فلا يعلم أنه وصف شحمها، وذكر تشبيه أحدهما بشيء، واقع، وعجز عن تشبيه القسمة الأولى فمرت مرسلة، وهذا نقص في الصنعة، عجز عن إعطاء الكلام حقه. وفيه شيء آخر من جهة المعنى، وهو أنه وصف طعامه [الذي أطعم من أضاف] بالجودة، وهذا قد يعاب، وقد يقال : إن العرب تفتخر بذلك ولا يرونه عيباً، وإنما الفرس هم الذين يرون هذا عيباً شنيعاً، وأما تشبيه الشحم بالدمقس فشيء يقع للعامة، ويجري على ألسنتهم، فليس بشيء قد سبق اليه، وإنما زاد « المفتل » للقافية، وهذا مفيد، ومع ذلك فلست أعلم العامة تذكر هذه الزيادة، ولم يعدَّ أهل الصنعة ذلك من البديع،

---

(١) العذراء من النساء البكر — ويروى بدل رحلها : كورها والكور : الرحل — المتحمل : المحمول — الهداب والهدب : ما استرسل من الشيء — الدمقس الحرير.

(٢) هكذا في الطبعة الأولى وفي الخطية سلامته.

ورأوه قريباً. وفيه شيء آخر، وهو أن تبجُّحه بما أطعم للأحباب مذموم وإن سوغ التبجُّح بما أُطعم للأضياف، الا أن يورد الكلام مورد المجون، وعلى طريق أبي نواس في المزاح والمداعبة.

وقوله :

ويوم دخلتُ الخدرَ خدرَ عنيزةٍ   فقالَتْ لكَ الويلاتُ إنك مرجلي
تقـول وقـد مالَ الغبيـطُ بنـــا معـــاً   عَقَرْتَ بعيري يا امرأ القيسِ فانزلِ [1]

قوله : « دخلت الخدر خدر عنيزة » ذكره تكريراً لإقامة الوزن، لا فائدة فيه غيره، ولا ملاحة ولا رونق، وقوله في المصراع الأخير من هذا البيت : « فقالت لك الويلات انك مرجلي »، كلام مؤنث من كلام النساء، نقله من جهته الى شعره، وليس فيه غير هذا، وتكريره بعد ذلك : « تقول وقد مال الغبيط »، يعني قتب الهودج بعد قوله : « فقالت لك الويلات إنك مرجلي » لا فائدة فيه غير تقدير الوزن، والا فحكاية قولها الأول كافٍ، وهو في النظم قبيح، لأنه ذكر مرة « فقالت » ومرة « تقول » في معنى واحد وفصل خفيف. وفي مصراع الثاني أيضاً تأنيث من كلامهن .. وذكر أبو عبيدة[2] أنه قال : « عقرت بعيري » ولم يقل ناقتي لأنهم يحملون النساء على ذكور الابل لأنها اقوى، وفيه نظر لأن الأظهر أن البعير اسم للذكر والانثى، واحتاج الى ذكر البعير لاقامة الوزن.

وقوله :

فقلت لها سيري وأرخي زمامه   ولا تبعديني من جناك المعلل[3]

---

(١) الخدر هنا : الهودج — عنيزة اسم محبوبته — مرجلي : أي مصيري راجلا — الغبيط نوع من الهوادج.

(٢) العالم اللغوي الراوية الأديب المتوفي ٢٠٧ هـ.

(٣) المعلل : الملهي من علّلت الصبي بفاكهة أي الهيته بها والجني اسم لما يُجتنى من الشجر.

فمثلك حُبلَى قد طرقت ومرضعٍ فألهيتها عن ذي تمائمٍ مغيلِ [1]

البيت الأول قريب النسج، ليس له معنى بديع، ولا لفظ شريف، كأنه من عبارات المنحطين في الصنعة : وقوله « فمثلك حبلى قد طرقت » عابه عليه أهل العربية، ومعناه عندهم حتى يستقيم الكلام : فرب مثلك حبلى قد طرقت. وتقديره أنه زير نساء وأنه يفسدهن ويلهيهن عن حبلهن ورضاعهن، لأن الحبلى والمرضعة أبعد من الغزل وطلب الرجال ... والبيت الثاني في الاعتذار والاستهتار [2] والتهيام، وغير منتظم مع المعنى الذي قدمه في البيت الأول، لأن تقديره لا تبعديني عن نفسك فإني أغلب النساء، وأخدعهن عن رأيهن، وأفسدهن بالتغازل. وكونه مفسدة لهن لا يوجب له وصلهن وترك إبعادهن إيّاه، بل يوجب هجره والاستخفاف به، لسخفه ودخوله كلَّ مدخلٍ فاحش وركوبه كلَّ مركبٍ فاسد، وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم من مثله، ويأنف من ذكره.

وكقوله :

إذا ما بكى من خلفها انصرفَتْ له بشقٍّ وتحتي شقُّها لم يحوَّلِ
ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت عليَّ وآلت حلفة لم تحللِ [3]

فالبيت الأول غاية في الفحش ونهاية في السخف، وأي فائدة لذكره لعشيقته كيف كان يرتكب هذه القبائح، ويذهب هذه المذهب، ويرد هذه الموارد ؟ إن هذا ليبغضه كل من سمع كلامه، ويوجب له المقت، وهو لو صدق لكان قبيحاً، فكيف ويجوز أن يكون كاذباً ؟ ثم ليس في البيت لفظ بديع ولا معنى حسن، وهذا البيت متصل بالبيت الذي قبله من ذكر

(١) ويُروى : محول أي مضى عليه حول.

(٢) رواية المخطوطة : والاشتهار.

(٣) شق الشيء : نصفه — الكثيب : رمل كثير. التعذر : التشدد — آلت : حلفت — التحلل في اليمين : الاستثناء.

المرضع التي لها ولد محول ... فأما البيت الثاني وهو قوله : « ويوما » يتعجب منه، وإنما تشدّدت وتعسَّرت عليه وحلفت عليه، فهو[1] كلام رديء النسج، [و] لا فائدة لذكره لنا أن حبيبته تمنعت عليه يوما بموضع يسميه ويصفه، وأنت تجد في شعر المحدثين من هذا الجنس في التغزل ما يذوب معه اللب، وتطرب عليه النفس. وهذا مما تستنكره النفس، ويشمئز منه القلب، وليس فيه شيء من الإحسان والحسن.

وقوله :

أفاطمَ مهلاً بعض هذا التدلُّلِ — وإن كنتِ قد أزمَعْتِ صَرْمي فأجملي
أغرَّك مني أنَّ حبَّك قاتلي — وانك مهما تأمري القلب يفعلِ [2]

فالبيت الأول فيه ركاكة جداً، وتأنيث ورقة ولكن فيها تخنيث ... ولعل قائلا يقول : إن كلام النساء بما يلائمهن من الطبع أوقع وأغزل. وليس كذلك، لأنك تجد الشعراء في الشعر المؤنث لم يعدلوا عن رصانة قولهم ... والمصراع الثاني منقطع عن الأول لا يلائمه ولا يوافقه، وهذا يبين لك إذا اعترضت[3] معه البيت الذي تقدمه. وكيف ينكر عليها تدللها، والمتغزل يطرب على دلال الحبيب وتدلله ؟

والبيت الثاني قد عيب عليه، لأنه قد أخبر أن من سبيلها أن لا تغتر بما يريها من أن حبها يقتله، وأنها تملك قلبه فما أمرته فعله، والمحب إذا أخبر عن مثل هذا صدق، وإن كان المعنى غير هذا الذي عيب عليه، وإنما ذهب مذهباً آخر، وهو أنه أراد أن يظهر التجلد. فهذا خلاف ما أظهر من نفسه فيما تقدم من الأبيات، من الحب والبكاء على الأحبة، فقد دخل في وجه آخر من المناقضة والإحالة في الكلام. ثم قوله : « تأمري القلب

---

(١) الأسلوب هنا مختل بعض الاختلال. وقوله : فهو، جواب لأما.

(٢) الصرم : الهجر. مهلا : رفقا. أزمعت عليه : وطنت نفسي عليه.

(٣) في المخطوطة : عرضت.

يفعل » معناه تأمريني والقلب لا يؤمر، والاستعارة في ذلك غير واقعة ولا حسنة.

وقوله :

فان كنتِ قد ساءتك مني خليقةٌ فسلّي ثيابي عن[1] ثيابك تنسلِ
ومــا ذرفَتْ عينــاك إلا لتضربــي بسهمَيْكِ في أعشارِ قلبٍ مقتَّلٍ[2]

البيت الأول قد قيل في تأويله : إنه ذكر الثوب وأراد البدن، مثل قول الله تعالى : ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾[3]، وقال أبو عبيدة : هذا مثل للهجر، وتنسل : تبين وهو بيت قليل المعنى ركيكه وضيعه، وكل ما أضاف الى نفسه ووصف به نفسه سقوط وسفه وسخف يوجب[4] قطعه، فلم لم يحكم على نفسه بذلك، ولكن يورده مورد أن ليست له خليقة توجب هجرانه والتقصي من وصله، وأنه مهذب الأخلاق، شريف الشمائل، فذلك يوجب أن لا ينفك من وصاله .. والاستعارة في المصراع الثاني فيها تواضع وتقارب، وإن كانت غريبة ...

وأما البيت الثاني فمعدود من محاسن القصيدة وبدائعها، ومعناه ما بكيت إلا لتجرحي قلباً معشراً ـــ أي مكسراً ـــ من قولهم « برمة أعشار » إذا كانت قطعاً ـــ هذا تأويل ذكره الأصمعي رضي الله عنه، وهو أشبه عند أكثرهم، وقال غيره : وهذا مثل للأعشار التي تقسم الجزور عليها، ويعني بسهمَيْك : المعلى وله سبعة أنصباء، والرقيب وله ثلاثة أنصباء. فأراد أنك ذهبت بقلبي أجمع .. ويعني بقوله : « مقتل » : مذلل، وأنت تعلم أنه

---

(١) ويروى : من ـــ كما يروى : فإن تك قد ساءتك.
(٢) الثياب هنا قيل معناها القلب. الخليقة : الخلق. ذرف الدمع : سال. استعار للحظ عينيها ودمعهما اسم السهم لتأثيرهما في القلوب. والأعشار : الأجزاء. المقتل : المذلل.
(٣) سورة المدثر آية ٤.
(٤) هكذا في الطبعة الأولى. وفي المخطوطة : ويوجب.

على ما يعني به، فهو غير موافق للأبيات المتقدمة، لما فيها من التناقض الذي بيَّنا، ويشبه أن يكون من قال بالتأويل الثاني فزع اليه، لأنه رأى اللفظ مستكرهاً على المعنى الأول، لأن القائل إذا قال : « ضرب فلان بسهمه في الهدف » بمعنى أصابه، كان كلاماً ساقطاً مرذولاً، وهو يرى أن معنى الكلمة أن عينيها كالسهمين النافذين في إصابة قلبه المجروح، فلما بكتا وذرَّفتا بالدموع كانتا ضاربتين في قلبه، ولكن مَنْ حمل على التأويل الثاني سلم من الخلل الواقع في اللفظ، ولكنه إذا حمل على الثاني فسد المعنى واختلّ، لأنه إن كان محتاجاً ــ على ما وصف به نفسه من الصبابة ــ فقلبه كله لها، فكيف يكون بكاؤها هو الذي يخلص قلبه لها ؟

واعلم بعد هذا أن البيت غير ملائم للبيت الأول ولا متصل به في المعنى، وهو منقطع عنه، لأنه لم يسبق كلام يقتضي بكاءها، ولا سبب يوجب ذلك، فتركيبه هذا الكلام على ما قبله فيه اختلال، ثم لو سلم له بيت من عشرين بيتاً وكان بديعاً ولا عيب فيه فليس بعجيب، لأنه لا يُدَّعَى على مثله ان كلامه كله متناقض، ونظمه كله متباين. وإنما يكفي أن نبين أن ما سبق من كلامه الى هذا البيت مما لا يمكن إن يقال إنه يتقدم فيه أحداً من المتأخرين، فضلاً عن المتقدمين، وإنما قدَّم في شعره لأبيات قد برع فيها، وبان حذقه بها، وإنما أنكرنا أن يكون شعره متناسباً في الجودة، ومتشابهاً في صحة المعنى واللفظ، وقلنا : إنه يتصرف بين وحشي غريب مستنكر وعربية كالمهل[1] مستنكرة[2]، وبين كلام سليم متوسط، وبين عامي سوقي في اللفظ والمعنى، وبين حكمة حسنة، وبين سخف مستشنع، ولهذا قال الله عز اسمه : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾[3].

(١) المهل : القيح والصديد.

(٢) وفي المخطوطة : مستكرهة.

(٣) سورة النساء آية ٨.

فأما قوله :

وبيضة خدرٍ لا يُرام خباؤهـا   تمتَّعْتُ من لَهْوٍ بها غير معجلِ
تجاوزتُ أحراساً اليها ومعشراً   عليَّ حراصاً لو يسرُّون مقتلي[1]

فقد قالوا : عنى بذلك أنها كبيضة خدر في صفائها ورقتها، وهذه كلمة حسنة ولكن لم يسبق اليها، بل هي دائرة في أفواه العرب، وتشبيه سائر، ويعني بقوله : « غير معجل » أنه ليس ذلك مما يتفق قليلا وأحيانا، بل يتكرر له الاستمتاع بها، وقد يحمله غيره على أنه رابط الجأش فلا يستعجل إذا دخلها خوف حصانتها ومنعتها. وليس في البيت كبير فائدة، لأنه الذي حكى في سائر أبياته، فلا تتضمَّن مطاولته في المغازلة واشتغاله بها، فتكريره في هذا البيت مثل ذلك قليل المعنى إلا الزيادة التي ذكر من منعتها، وهو ـــ مع ذلك ـــ بيت سليم اللفظ في المصراع الأول دون الثاني.

والبيت الثاني ضعيف. وقوله : « لو يسرون مقتلي » أراد أن يقول لو أسروا، فاذا نقله الى هذا ضعف ووقع في مضمار الضرورة. والاختلال على نظمه بيِّنٌ، حتى ان المتحرِّز يحترز من مثله.

وقوله :

إذا ما الثريَّا في السماء تعرَّضَتْ   تعرض أثناء الوشاح المفصل[2]

قد أنكر عليه قوم قوله : « إذا ما الثريا في السماء تعرضت » وقالوا : الثريا لا تتعرض، حتى قال بعضهم : سمى الثريا وإنما أراد الجوزاء، لأنها

---

(١) شبه المرأة بالبيضة في الصحة والصيانة وصفاء اللون. يرام بطلب. الخباء : البيت عن وبر أو صوف أو شعر أو قطن ـــ الاحراس جمع حارس ـــ المعشر : القوم. الحراص : جمع حريص ـــ الاسرار : الاظهار أو الاضمار.

(٢) التعرض : الاستقبال أو ابداء العرض وهو الناحية أو الاخذ في الذهاب عرضا. الأثناء: النواحي والأوساط ـــ المفصل. الذي فصل بين خرزه بالذهب أو غيره.

تعرض، والعرب تفعل ذلك، كما قال زهير : « كأحمر عاد » وإنما هو أحمر ثمود.

وقال بعضهم في تصحيح قوله : « تعرض » : أول ما تطلع، كما أن الوشاح إذا طرح يلقاك بعرضه وهو ناحيته، وهذا كقول الشاعر :

تعرضت لي بمجان خل   تعرض المهرة في الطول[1]

يقول : تريك عرضها وهي في الرسن.

وقال أبو عمرو : يعني اذا أخذت الثريا في وسط السماء، كما يأخذ الوشاح وسط المرأة. والأشبه عندنا أن البيت غير معيب من حيث عابوه به، وأنه من محاسن هذه القصيدة، ولولا أبيات عدة فيه لقابله ما شئت من شعر غيره، ولكن لم يأتِ فيه بما يفوت الشأو ويستولي على الأمد.

أنت تعلم أنه ليس للمتقدمين ولا للمتأخرين في وصف شيء من النجوم مثل ما في وصف الثريا وكلٌّ قد أبدع فيه وأحسن، فإما أن يكون قد عارضه أو زاد عليه .. فمن ذلك قول ذي الرمة[2].

وردت اعتسافا والثريا كأنها   على قمة الرأس ابن ماء محلق[3]

ومن ذلك قول ابن المعتز[4] :

وترى الثريا في السماء كأنها   بيضات أدحى يلحن بفدفدِ[5]

---

(١) المجان. المجون واللهو. الخل : الصديق ـــ المهرة : معروفة.

(٢) شاعر اسلامي مجيد توفي عام ١١٧ هـ.

(٣) ابن الماء : هو الطير. المحلق : المبعد في الطيران وتحليق الطائر : ارتفاعه في الطيران. قمة الرأس : ذروة جبل بعينه. الاعتساف : الأخذ على غير الطريق.

(٤) شاعر عباسي مجيد تولى الخلافة يوما وليلة وقتل عام ٢٩٦ هـ.

(٥) الفدفد : الصحراء ـــ يلوح : يظهر ـــ أدحى : جمع ادحية وهي النعامة أو الموضع الذي تفرخ فيه.

وكقوله :

كأن الثريا في أواخر ليلها ... تفتح نور أو لجام مفضض[1]

وقوله أيضا :

فناولنيها والثريا كأنها ... جنى نرجس حيا الندامَى به الساقي[2]

وقول الأشهب بن رميلة :

ولاحت لساريها الثريا كأنها ... لدى الأفق الغربيِّ قرطٌ مسلسلُ[3]

ولابن المعتز :

وقد هوى النجم والجوزاء تتبعه ... كذات قرطٍ أرادته وقد سقطا[4]

أخذه من ابن الرومي[5] في قوله :

طيب ريقه اذا ذقت فاه ... والثريا بجانب الغرب قرطُ

ولابن المعتز :

قد سقاني المدام ... والصبح بالليل مؤتزر

والثريا كنور غصنٍ ... على الأرض قد نثر[6]

وقوله :

وتروم الثريا ... في السماء مراما

---

(١) النور : الزهرة ـــ المفضض المطلي بالفضة.

(٢) الجنى : الثمر.

(٣) القرط : الذي يعلق في شحمة الأذن.

(٤) النجم هو الثريا كذات قرط : أي كامرأة صاحبة قرط.

(٥) شاعر عباسي مشهور توفي عام ٢٨٣ هـ.

(٦) المدام الخمر. النور الزهرة.

كانكبـــــاب طــمـــــــر كـــاد يـلـقـــى لـجـامـــا[1]

ولابن الطثرية[2] :

اذا ما الثريا في السماء كأنها جمان وهي من سلكه فتبددا[3]

ولو نسخت لك كل ما قالوا من البديع في وصف الثريا، لطال عليك الكتاب، وخرج عن الغرض، وانما نريد أن نبين لك أن الابداع في نحو هذا أمر قريب، وليس فيه شيء غريب، وفي جملة ما نقلناه ما يزيد على تشبيهه في الحسن أو يساويه أو يقاربه.

فقد علمت أن ما حلق فيه، وقدر المتعصب له أنه بلغ النهاية فيه، أمر مشترك، وشريعة مورودة، وباب واسع، وطريق مسلوك. واذا كان هذا بيت القصيدة، ودرة القلادة، وواسطة العقد، وهذا محله فكيف بما تعداه ؟ .. ثم فيه ضرب من التكلُّف، لأنه قال: « اذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح »، فقوله : « تعرضت » من الكلام الذي يُستغنى عنه، لأنه يشبه أثناء الوشاح سواء كان في وسط السماء أو عند الطلوع والمغيب، فالتهويل بالتعرض، والتطويل بهذه الألفاظ، لا معنى له .. وفيه أن الثريا كقطعة من الوشاح المفصل، فلا معنى لقوله : « تعرض أثناء الوشاح » وإنما أراد أن يقول : تعرض قطعة من أثناء الوشاح، فلم يستقم له اللفظ، حتى شبه ما هو كالشيء الواحد بالجمع.

---

(١) ويروى البيتان هكذا :

وتـــــــروم الثريــــــا في الغـــــروب مرامــــا
كانكبـــــاب طمـــــــر كاد يلقـــى اللجامـــا

الطمر : الفرس السابح في العدو.

(٢) شاعر أموي مشهور غزل.

(٣) وهي : ضعف. والجمان حب يعمل من الفضة كالدرة. تبدد : تفرق.

وقوله :

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها   لدى الستر الا لبسة المتفضل
فقالت : يمين الله ما لك حيلة   وما ان أرى عنك العماية تنجلي[1]

انظر الى البيت الأول والأبيات التي قبله، كيف خلط في النظم، وفرط في التأليف، فذكر التمتع بها، وذكر الوقت والحال والحراس، ثم يذكر كيف كان صفتها لما دخل عليها، ووصل اليها، من نزعتها ثيابها إلا ثوباً واحداً، والمتفضل الذي في ثوب واحد وهو الفضل، فما كان من سبيله أن يقدمه انما ذكره مؤخراً .. وقوله : « لدى الستر » حشو، وليس بحسن ولا بديع، وليس في البيت حسن، ولا شيء يفضل لأجله.

وأما البيت الثاني ففيه تعليق واختلال، ذكر الأصمعي أن معنى قوله : « ما لك حيلة » : أي ليست لك جهة تجيء فيها والناس حوالي[2] والكلام في المصراع الثاني منقطع عن الأول، ونظمه اليه فيه ضرب من التفاوت.

وقوله :

فقمت بها أمشي تجر وراءنا   على إثرنا أذيال مرط مرجل[3]
فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى   بنابطن خبت ذي حقاف عقنقل[4]

البيت الأول من مساعدتها إياه، حتى قامت معه، ليخلوا، وانما كانت تجر على الأثر أذيال مرط مرجل، والمرجل : ضرب من البرود يقال لوشيه

---

(١) نضت : خلعت اللبسة : هيئة ليس الثياب. المتفضل اللابس ثوبا واحدا إذا أراد الخفة في العمل ــ العماية : الضلال. تنجلي : تنكشف، ويروى : الغواية بدل العماية.

(٢) هكذا في الطبعة الأولى ــ وفي المخطوطة : أحوالي.

(٣) ويروى البيت : خرجت بها أمشي تجر وراءنا * على أثرينا ذيل مرط مرحل المرط : كساء من خز أو صوف وقد تسمى الملاءة مرطا. المرجل : المنقوش بنقوش تشبه رحال الأبل. ويروى : مرجل.

(٤) أجزت المكان : قطعته. الحي : القبيلة. الانتحاء : الاعتماد على شيء. البطن : مكان مطمئن حوله أماكن مرتفعة. الخبت : أرض مطمئنة. الحقف : رمل مشرف معوج.

الترجيل، وفيه تكلف، لانه قال : « وراءنا على اثرنا » : ولو قال « على إثرنا »، كان كافياً، والذيل إنما يجر وراء الماشي، فلا فائدة لذكره « وراءنا »، وتقدير القول فقمت أمشي بها، وهذا أيضاً ضرب من التكلف، وقوله : « أذيال مرط » كان من سبيله أن يقول : ذيـل مرط، على أنه لو سلم من ذلك كان قريباً ليس مما يفوت بمثله غيره، ولا يتقدم به سواه، وقول ابن المعتز [1] أحسن منه :

فبت أفرش خدي في الطريق له ذلا، وأسحب أذيالي [2] على الأثر

وأما البيت الثاني فقوله « أجزنا » بمعنى قطعنا، والخبت : بطن من الأرض، والحقف : رمل معوج [3]، والعقنقل : المنعقد من الرمل الداخل بعضه في بعض، وهذا بيت متفاوت [4] مع الأبيات المتقدمة، لأن فيها ما هو سلس قريب يشبه كلام المولدين وكلام البذلة، وهذا قد أغرب فيه، وأتى بهذه اللفظة الوحشية المتعقدة، وليس في ذكرها والتفضيل بالحاقها بكلامها فائدة.

والكلام الغريب، واللفظة الشديدة المباينة لنسج الكلام، قد تحمد اذا وقعت موقع الحاجة في وصف ما يلائمها، كقوله عز وجل في وصف يوم القيامة : ﴿ **يوماً عبوساً قطريرا** ﴾ [5]، فأما اذا وقعت في غير هذا الموقع فهي مكروهة مذمومة بحسب ما تحمد في موضعها، وروي أن جريراً أنشد بعض خلفاء بني أمية قصيدته :

بان الخليـط برامتيـــن فودعـــوا أوكلمـا جدوا لبيـن تجـــزع [6] ؟

---

(١) شاعر عباسي مشهور توفي عام ٢٩٦ هـ.

(٢) هكذا رواية الطبعة الأولى : وفي المخطوطة : أكمامي.

(٣) رواية النسخ كلها : منعرج.

(٤) رواية الطبعة الأولى : متقارب.

(٥) آية ١٠ من سورة الانسان ــ القمطرير : الشديد العبوس والظلام.

(٦) الخليط : القوم المخالطون أي المجاورون يريد الأحباب. رامتين : اسم موضع. البين : الفراق.

كيف العزاء ولم أجد مذ بنتم　　قلبا يقر ولا شرابا ينقع[1] ؟

قال : وكان يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله :

وتقول بوزع : قد دببت على العصا　　هلا هزئت بغيرنا يا بوزع[2]

فقال أفسدت شعرك بهذا الاسم[3].

وأما قوله :

هصرت بغصني دوحة فتمايلت[4]　　عليَّ هضيم الكشحِ ريَّا المخلخلِ

مهفهفةٌ بيضاءُ غيرُ مفاضةٍ　　ترائبُها مصقولةٌ كالسجنجلِ[5]

فمعنى قوله « هصرت » : جذبت وثنيت، وقوله « بغصني دوحة » تعسُّفٌ، ولم يكن من سبيله أن يجعلهما اثنين : والمصراع الثاني أصح، وليس فيه شيء إلا ما يتكرر على ألسنة الناس من هاتين الصفتين. وأنت تجد ذلك في وصف كل شاعر، ولكنه مع تكرُّره على الألسن صالح. ومعنى[6] قوله « مهفهفة » أنها مخففة ليست مثقلة، والمفاضة التي اضطرب طولها، والبيت — مع مخالفته في الطبع الأبيات المتقدمة، ونزوعه فيه الألفاظ المستكرهة، وما فيه من الخلل من تخصيص الترائب بالضوء بعد ذكر جميعها بالبياض — ليس[7] بطائل، ولكنه قريب متوسط.

---

(١) نقع الماء العطش : سكنه.

(٢) بوزع : اسم محبوبته.

(٣) راجع الرواية ايضا في الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٢ طبعة ١٩٣٢.

(٤) رواية الديوان : هصرت بفودي رأسها.

(٥) الهصر : الجذب. الفودان : جانبا الرأس. تمايلت : مالت. هضيم : ضامر. الكشح : منقطع الأضلاع. ريا مؤنث الريان. المخلخل : موضع الخلخال. المهفهفة : اللطيفة الخصر الضامرة البطن. المفاضة : المرأة العظيمة البطن المسترخية اللحم. الترائب : موضع القلادة من الصدر. مصقولة : مجلوة. السجنجل : المرآة.

(٦) رواية النسخ كلها : وأما معنى، وهو غير الصحيح.

(٧) رواية النسخ كلها : فليس، والفاء هنا لا وجه لها الا حملها على أنها زائدة.

وقوله:

تصدُّ وتبدي عن أسيلٍ وتتَّقي بناظرةٍ من وحش وجرةِ مطفلِ
وجيدٍ كجيدِ الرِّيمِ ليسَ بفاحشٍ اذا هي نَصَّتْهُ ولا بمعطـــلِ [1]

معنى قوله « عن أسيل » أي بأسيل، وإنما يريد خدّ ليس بكزّ، وقوله « تتقي » يقـال : اتقاه برأسه أي جعله بينه وبينه. وقوله : « تصدّ وتبدي عن أسيل « متفاوت، لأن الكشف عن الوجه مع الوصل دون الصد، وقوله : « تتقي بناظرة » لفظة مليحة، ولكن أضافها الى ما نظم به كلامه وهو مختلف وهو قوله : « من وحش وجرة »، وكان يجب أن تكون العبارة بخلاف هذا، كان من سبيله أن يضيف الى عيون الظباء أو المها دون إطلاق الوحش، ففيهن ما تستنكر عيونها، وقوله : « مطفل » فسَّروه على أنها ليست بصبية وأنها قد استحكمت، وهذا اعتذار متعسف، وقوله : « مطفل » زيادة لا فائدة فيها على هذا التفسير الذي ذكره الأصمعي، ولكن قد يحتمل عندي أن يفيد غير هذه الفائدة فيقال إنها اذا كانت مطفلاً لحظت أطفالها بعين رقة، ففي نظر هذه رقة نظر المودة، ويقع الكلام معلقاً تعليقاً متوسطاً.

وأما البيت الثاني فمعنى قوله : « ليس بفاحشٍ » أي ليس بفاحشِ الطول، ومعنى قوله : « نصته » رفعته، ومعنى قوله : « ليس بفاحش » — في مدح الأعناق — كلام فاحش موضوع منه .. واذا نظرت في أشعار العرب رأيت في وصف الأعناق ما يشبه السحر، فكيف وقع على هذه الكلمة، ودفع إلى هذه اللفظة ؟ وهلا قال كقول أبي نواس[2] :

---

(١) الصدود : الإعراض. الابداء : الاظهار. الاسالة : امتداد وطول في الخد. الاتقاء : الحجز بين الشيئين. وجرة : موضع. مطفل : التي لها طفل. الرئم : الظبي الأبيض الخالص البياض. النص : الرفع. فاحش : شديد الطول أو ما جاوز القدر المحمود من كل شيء. معطل : خلو من الحلي.

(٢) شاعر عباسي ماجن مشهور توفي عام ١٩٧ هـ.

مثـــل الظبـــاء سمت إلـــــى روضٍ صوادر عن غديـــــرِ [1]

ولست أطول عليك فتستثقل، ولا أكثر القول في ذَمِّهِ فتستوحش، وَأَكِلُكَ الآن الى جملة من القول، فإن كنت من أهل الصنعة فطنت واكتفيت وعرفت ما رمينا إليه واستغنيت؛ وإن كنت من الطبقة خارجاً، وعن الاتقان بهذا الشأن خالياً، فلا يكفيك البيان وإن استقرينا جميع شعره، وتتبعنا عامة ألفاظه، ودللنا على ما في كل حرف منه.

اعلم أن هذه القصيدة قد ترددت بين أبيات سوقية مبتذلة، وأبيات متوسطة، وأبيات ضعيفة مرذولة، وأبيات وحشية غامضة مستكرهة وأبيات معدودة بديعة، وقد دللنا على المبتذل منها، ولا يشتبه عليك الوحشي المستنكر الذي يروع السمع، ويهول القلب، ويكدُّ اللسان، ويعبس معناه في وجه كل خاطر، ويكفهر مطلعه على كلِّ متأمل أو ناظر، ولا يقع بمثله التمدح والتفاصح، وهو مجانب لما وضع له أصل الأفهام، ومخالف لما بُني عليه التفاهم بالكلام، فيجب أن يسقط عن الغرض المقصود، ويلحق باللغز والاشارات المستبهمة.

* * *

فأما الذي زعموا أنه من بديع هذا الشعر فهو قوله :

ويضحى [2] فتيت المسك فوق فراشها نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضل [3]

والمصراع الأخير عندهم بديع، ومعنى ذلك أنها مترفة متنعمة، لها مَنْ يكفيها، ومعنى قوله : « لم تنتطق عن تفضل » يقول لم تنتطق وهي

---

(١) يروى : وتضحى.

(٢) الاضحاء : الضحى. الفتيت : اسم لدقائق الشيء الحاصل بالفت.

(٣) سمت : نهضت : صوادر جمع صادرة ضد الواردة. الغدير : موضع الماء أو النهر الصغير.

فضل[1] و «عن» هي بمعنى بعد، قال أبو عبيدة : لم تنتطق فتعمل ولكنها تتفضل.

ومما يعدونه من محاسنها :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   عليَّ بأنواع الهموم[2] ليبتلي[3]
فقلت له لمَّا تمطَّى بصلبه   وأردف أعجازاً وناءَ بكلكلِ[4]
ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انجلي   بصبحٍ وما الإصباح منك بأمثلِ

وكان بعضهم يعارض هذا بقول النابغة :

كليني لهمٍّ يا أميمةُ[5] ناصبِ   وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب
وصدرٍ أراح الليل عازبَ همه   تضاعف فيه الحزنُ من كل جانبِ
تقاعس حتى قلت ليس بمنقض   وليس الذي يتلو النجوم بآيب

وقد جرى ذلك بين يدي بعض الخلفاء، فقدمت أبيات امرئ القيس واستحسن استعارتها، وقد جعل لليل صدراً يثقل تنحيه، ويبطئ تقضيه، وجعل له أردافاً كثيرة، وجعل له صلباً يمتد ويتطاول، ورأوا هذا بخلاف ما يستعيره أبو تمام من الاستعارات الوحشية البعيدة المستنكرة، ورأوا أن الألفاظ جميلة .. واعلم أن هذا صالح جميل، وليس من الباب الذي يقال إنه متناهٍ عجيب، وفيه إلمامٌ بالتكلُّف، ودخولٌ في التعمُّل.

---

(١) يقال رجل أو امرأة فضل ــ بضمتين، أي متفضل في ثوب واحد، والمتفضل الذي يبقى في ثوب واحد لينام أو يعملا عملا.

(٢) رواية النسخ كلها : الغموم وهي جمع غم.

(٣) السدول : الستور. الارخاء : ارسال الستر. الابتلاء : الاختبار : الهموم الأحزان.

(٤) تمطى : تمدد أي مد ظهره. الصلب : فقار الظهر. الأرداف: الاتباع. الاعجاز : المآخير. ناء : نهض. الكلكل : الصدر.

(٥) الهم : الحزن. أميمة : اسم محبوبته. ناصب : شديد. أراح : رد. عازب : بعيد. تقاعس : تأخر. الانقضاء : الانتهاء. آيب من الأوبة وهي الرجوع. ويروى :

تطاول حتى قلت ليس بمنقض   وليس الذي يرعى النجوم بآيب

وقد خرجوا له في البديع من القصيدة قوله :

وقد اغتدي والطيرُ في وكناتها بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ
مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مُدْبرٍ معاً
كجلمودِ صَخْرٍ حطَّه السيلُ من علِ (١)

وقوله أيضاً (٢) :

له أيطلا ظَبْيٍ وساقَا نعامةٍ وإرخاءُ سرحانٍ وتقريبُ تتفلِ (٣)

فأما قوله : قيد الأوابد » فهو مليح، ومثله في كلام الشعراء وأهل الفصاحة كثير، والتعمل بمثله ممكن .. وأهل زماننا الآن يصنفون نحو هذا تصنيفا، ويؤلفون المحاسن تأليفاً، ثم يوشحون به كلامهم. والذين كانوا من قبل لغزارتهم وتمكنهم لم يكونوا يتصنعون لذلك، إنما كان يتفق لهم اتفاقاً، ويطرد في كلامهم اطراداً ... وأما قوله في وصفه : « مكر مفر » فقد جمع فيه طباقاً وتشبيهاً، وفي سرعة جَرْي الفرس للشعراء ما هو أحسن من هذا وألطفُ، وكذلك في جَمْعه بين أربعة وجوه من التشبيه في بيتٍ واحد صنعة، ولكن قد عورض فيه وزوحم، والتوصل اليه يسير، وتطلُّبُهُ سَهْلٌ قريب.

* * *

وقد بيَّنا لك أن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتاً بيِّناً، في الجودة والرداءة، والسلاسة والانعقاد، والسلامة والانحلال، والتمكُّن والتسهُّل، والاسترسال والتوحُّش والاستكراه.

---

(١) الوكنات جمع وكنة وهي عش الطائر. المنجرد : الماضي في السير أو قليل الشعر. الأوابد: الوحوش. الهيكل : الفرس العظيم الجرم. مكر مفر : شديد الكر والفر. الجلمود الحجر العظيم الصلب. حطه : القاه. عل : فوق.

(٢) هذه الكلمات زيادة عن المخطوطة ومثبتة بالنسختين.

(٣) الأيطل : الخاصرة. الإرخاء : ضرب من عدو الذئب. السرحان : الذئب. التقريب : وضع الرجلين موضع اليدين في العدو. التتفل : ولد الثعلب.

وله شركاء في نظائرها، ومنازعون في محاسنها، ومعارضون في بدائعها، ولا سواء كلام ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة، ويتلوَّن تلون الحرباء ويختلف اختلاف الأهواء، ويكثر في تصرفه اضطرابه، وتتقاذف به أسبابه، وبين قول يجرى في سبكه على نظام، وفي رصفه على منهاج، وفي وضعه على حدّ، وفي صفائه على باب، وفي بهجته ورونقه على طريق. مختلفه مؤتلف، ومؤتلفه متحد، ومتباعده متقارب، وشارده مطيع، ومطيعه شارد. وهو على متصرفاته واحد، لا يستصعب في حال، ولا يتعقد في شأن.

* * *

وكنا أردنا أن نتصرف في قصائد مشهورة فنتكلم عليها، وندلُّ على معانيها ومحاسنها، ونذكر لك من فضائلها ونقائصها، ونبسط لك القول في هذا الجنس، ونفتح عليك في هذا النهج.

ثم رأينا هذا خارجاً عن غرض كتابنا، والكلام فيه يتصل بنقد الشعر وعياره، ووزنه بميزانه ومعياره، ولذلك كتب وإن لم تكن مستوفاة، وتصانيف وإن لم تكن مستقصاة .. وهذا القدر يكفي في كتابنا.

ولم نحب أن ننسخ لك ما سطَّره الأدباء في خطأ امرئ القيس في العروض والنحو والمعاني، وما عابوه عليه في أشعاره، وتكلموا به على ديوانه، لأن ذلك أيضاً خارج عن غرض كتابنا، ومجانب لمقصوده .. وإنما أردنا أن نبيِّن الجملة التي بينَّاها، لتعرف أن طريقة الشعر شريعة موردوة، ومنزلة مشهودة، يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم، ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم. وأنت تجد للمتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أبرَّ عليه فيه، وتجد للمتأخر معنى قد أغفله المتقدم، وتجد معنى قد توافدا عليه، وتوافيا اليه، فهما فيه شريكا عنان، وكأنهما فيه رضيعا لبان، والله يؤتي فضله من يشاء.

* * *

عود الى إعجاز القرآن

فأما نهج القرآن ونَظْمه وتأليفه ورَصْفه، فإن العقول تتيه في جهته، وتحار في بحره، وتضلُّ دون وصفه. نحن نذكر لك في تفصيل هذا ما تستدلُّ به على الغرض، وتستولي به على الأمد، وتصل به الى المقصد، وتتصور إعجازه كما تتصوَّر الشمس، وتتيقَّن تناهي بلاغته كما تتيقَّن الفجر، وأقرب عليك الغامض، وأسهل لك العسير.

واعلم أن هذا[1] علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه. وهو أدقُّ من السحر، وأهولُ من البحر، وأعجبُ من الشعر، وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وَضْعَ الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام إلّا أن يكون شعراً أو سجعاً، وليس كذلك، فإنَّ إحْدَى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها، وتراها في مظانها، وتجدها فيه غير منازعة الى أوطانها، وتجد الاخرى ــ لو وضعت موضعها ــ في محل نفار ومرمى شراد، ونابية عن استقرار.

* * *

(١) يريد علم الإعجاز أو تحليل أسرار اعجاز القرآن الكريم.

ولا أكثر عليك المثال، ولا أضرب لك فيه الأمثال، وأرجع بك الى ما وعدتك من الدلالة، وضمنت لك من تقريب المقالة، فإن كنت لا تعرف الفصل[1] — الذي بينا — بين اللفظتين على اختلاف مواقع الكلام، ومتصرِّفات مجاري النظام، لم تستفد مما نقربه عليك شيئاً، وكان التقليد أولى بك، والإتباع أوجبُ عليك، ولكل شيء سبب ولكل علم طريق، ولا سبيل الى الوصول الى الشيء من غير طريقه، ولا بلوغ غايته من غير سبيله.

خذ الآن — هداك الله — في تفريغ الفكر، وتخلية البال، وانظر فيما تعرض عليك، ونهديه إليك، متوكِّلاً على الله، ومعتصماً به، ومستعيذاً به من الشيطان الرجيم، حتى تقف على إعجاز القرآن العظيم.

سمَّاه الله عز ذكره حكيما وعظيما ومجيداً، وقال: ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[2] وقال : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾[3]، وقال : ﴿ **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا** ﴾[4] وقال : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾[5].

وأخبرنا أحمد بن محمد بن الحسين القزويني، حدثنا أبو عبد الرحمن أحمد بن عثمان، حدثنا أبو يوسف الصيدلاني، حدثنا محمد بن سلمة، عن أبي سنان، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري الطائي، عن الحارث

---

(١) أي الفرق.

(٢) آية ٤٢ سورة فصلت.

(٣) آية ٢١ سورة الحشر.

(٤) من آية ٣١ سورة الرعد.

(٥) آية ٨٨ سورة الاسراء.

الأعور، عن علي رضي الله عنه، قال : قيل يا رسول الله ان أمتك ستفتتن من بعدك، فسأل أو سئل ـــ ما المخرج من ذلك ؟ فقال : « بكتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، من ابتغى العلم في غيره أضلَّه الله، ومن ولي هذا من جبار فحكم بغيره قصمه الله وهو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم. فيه خبر من قبلكم، وتبيان من بعدكم، وهو فصل ليس بالهزل. وهو الذي سمعته الجن فقالوا : ﴿**انا سمعنا قرآنا عجباً، يهدي إلى الرشد فآمنا به**﴾[1] لا يخلق على طول الرد، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه ».

وأخبرني أحمد بن علي بن الحسن، أخبرنا أبي، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب، أخبرنا هشام بن عبيدالله، حدثنا المسيب بن شريك، عن عبيدة، عن أسـامة بـن أبي عطاء، قال : أرسل النبي ﷺ الى علي رضي الله عنه في ليلة. فذكر نحو ذلك في المعنى، وفي بعض ألفاظه اختلاف.

وأخبرنا أحمد بن علي بن الحسن، أخبرنا أبي، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب، أخبرنا هشام بن عبيدالله، حدثنا المسيب بن شريك، عن بشر بن نمير، عن القاسم، عن أبي أمامة، قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ ثلث القرآن اعطي ثلث النبوة، ومن قرأ نصف القرآن أعطي نصف النبوة، ومن قرأ القرآن كله أعطي النبوة كلها، غير أنه لا يُوحَى اليه » .. وذكر الحديث.

ولو لم يكن من عظم شأنه الا أنه طبق الأرض أنواره، وجلل الآفاق ضياؤه، ونفذ في العالم حكمه، وقُبِلَ في الدنيا رسمه، وطمس ظلام الكفر بعد ان كان مضروب الرواق، ممدود الأطناب، مبسوط الباع، مرفوع العماد، ليس على الأرض مَنْ يعرف الله حَقَّ معرفته، أو يعبده حق عبادته، أو يدين

(١) سورة الجن الآيتان ١ و٢.

بعظمته، أو يعلم علوَّ جلالته، أو يتفكَّر في حكمته، لكان[1] كما وصفه الله تعالى جل ذكره من أنه نور فقال : ﴿ **وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا، ما كنت تدري الكتاب ولا الايمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به مَنْ نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي الى صراط مستقيم** ﴾[2].

فانظر إن شئت إلى شريف هذا النظم، وبديع هذا التأليف، وعظيم هذا الرصف كل كلمة من هذه الآية تامة، وكل لفظ بديع واقع .. قوله ﴿ **وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا** ﴾[2] يدل على صدوره من الربوبية، ويبين عن وروده عن الآلهية، وهذه الكلمة بمنفردها وأخواتها كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير تميز عن جميعه، وكان واسطة عقده، وفاتحة عقده، وغرة شهره، وعين دهره ... وكذلك قوله : ﴿ **ولكن جعلناه نوراً نهدي به مَنْ نشاء من عبادنا** ﴾[2]، فجعله روحاً لأنه يحيي الخلق، فله فضل الأرواح في الأجساد، وجعله نوراً، لأنه يضيء ضياء الشمس في الآفاق، ثم أضاف وقوع الهداية به الى مشيئته، ووقف وقوف الاسترشاد به على إرادته، وبيَّن أنه لم يكن ليهتدي اليه لولا توفيقه، ولم يكن ليعلم ما في الكتاب ولا الإيمان لولا تعليمه، وأنه لم يكن ليهتدي فكيف كان يهدي لولاه، فقد صار [يهدي ولم يكن[3]] من قبل ذلك ليهتدي، فقال : ﴿ **وانك لتهدي الى صراط مستقيم**[4] * **صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا الى الله تصير الأمور** ﴾[5] فانظر الى هذه الكلمات الثلاث، فالكلمتان الأوليان مؤتلفتان، وقوله : ﴿ **ألا الى الله تصير الأمور** ﴾ كلمة منفصلة مباينة للأولى، قد صيرها[6] شريف النظم أشد

---

(١) في النسخ كلها : فكان. وعليها لا يكون هناك جواب لقوله سابقا : « ولو لم يكن ».
(٢) آية ٥٢ سورة الشورى.
(٣) زيادة في الطبعة الأولى في المخطوطة بياض مكانها. وقد أثبتت في الطبعة الثانية أيضا.
(٤) آخر آية ٥٢ الشورى.
(٥) آية ٥٣ سورة الشورى.
(٦) رواية النسخ كلها : صيرهما.

ائتلافاً من الكلام المؤالف وألطف انتظاماً من الحديث الملائم، وبهذا يبين فضل الكلام وتظهر فصاحته وبلاغته.

الأمر أظهر والحمد لله، والحال أبين من أن يحتاج الى كَشْفٍ، تأمل قوله : ﴿ **فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾[1]. انظر الى هذه الكلمات الأربع التي الف بينها، واحتج بها على ظهور قدرته، ونفاذ أمره، أليس كل كلمة منها في نفسها غرّة، وبمفردها درّة ؟ وهو مع ذلك يبيِّن أنه يصدر عن علو الأمر، ونفاذ القهر، ويتجلَّى في بهجة القدرة ويتحلَّى بخالصة العزة، ويجمع السلاسة الى الرصانة، والسلامة الى المتانة، والرونق الصافي، والبهاء الضافي . ولست أقول إنه شمل الإطباق[2] المليح، والإيجاز اللطيف، والتعديل والتمثيل، والتقريب والتشكيل، وإن كان قد جمع ذلك وأكثر منه، لأن العجيب ما بيَّنا من انفراد كل كلمة بنفسها، حتى تصلح أن تكون عين رسالة أو خطبة، أو وجه قصيدة أو فقرة، فاذا ألفت ازدادت حسناً وزادتك اذا تأملت معرفةً وايماناً.

ثم تأمل قوله : ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون * والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم** ﴾[3]. هل تجد كل لفظة، وهل تعلم كل كلمة، تستقل بالاشتمال على نهاية البديع، وتتضمن شرط القول البليغ ؟ .. فاذا كانت الآية تنتظم من البديع، وتتألف من البلاغات، فكيف

---

(١) آية ٩٦ سورة الأنعام.

(٢) يريد : الطباق.

(٣) الآيات ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ من سورة يس ــ والعرجون : أصل العذق الذي يعوج ويقطع منه الشماريخ. فيبقى على النخل يابسا.

لا تفوت حد المعهود، ولا تحوز[1] شأو المألوف ؟ فكيف لا تحوز قصب السبق، ولا تتعالى عن كلام الخلق ؟

* * *

ثم اقصد الى سورة تامة، فتصرَّفْ في معرفة قصصها، وَرَاعِ ما فيها من براهينها وقصصها، تأمَّلِ السورة التي يذكر فيها النمل، وانظُرْ في كلمةٍ كلمة وفصلٍ فصل :

بدأ بذكر السورة، الى أن بيَّن أن القرآن من عنده، فقال : ﴿ **وإنك لَتُلَقَّى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾[2]، ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام وأنه رأى ناراً فقال لأهله امكثوا : ﴿ **إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبسٍ لعلكم تصطلون** ﴾[3]. وقال في سورة طه في هذه القصة : ﴿ **لعلي آتيكم منها بقبسٍ أو أجد على النار هدىً** ﴾[4]. وفي موضع : ﴿ **لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون** ﴾[5]، قد تصرف في وجوه، وأتى بذكر القصة على ضروبٍ، ليعلمهم عَجْزهم عن جميع طرق ذلك، ولهذا قال : ﴿ **فليأتوا بحديث مثله** ﴾[6]، ليكون أبلغَ في تعجيزهم، وأظهرَ للحجة عليهم .. وكل كلمة من هذه الكلمات وإن أنبأت عن قصة، فهي بليغةٌ بنفسها، تامَّةٌ في معناها.

ثم قال : ﴿ **فلما جاءها نودي أن بُورك مَنْ في النار ومَنْ حولها**

---

(١) رواية المخطوطة : ولا يجوز.

(٢) آية ٦ سورة النمل.

(٣) من آية ٧ سورة النمل.

(٤) من آية ١٠ سورة طه.

(٥) من آية ٢٩ سورة القصص.

(٦) من آية ٣٤ سورة الطور.

وسبحان الله رب العالمين ﴾[1]. فانظر الى ما أجرى له الكلام، من علو أمر هذا النداء، وعظم شأن هذا الثناء، وكيف انتظم مع الكلام الأول، وكيف اتصل بتلك المقدمة، وكيف وصل بها ما بعدها من الأخبار عن الربوبية، وما دلَّ به عليها من قلب العصا حية، وجعلها دليلاً يدله عليه ومعجزة تهديه اليه ... وانظر الى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة، ثم ما شفع به هذه الآية، وقرن به هذه الدلالة : من اليد البيضاء — عن نور البرهان — من غير سوء.

ثم انظر في آية آية، وكلمة كلمة، هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم، وبديع الرصف ؟ فكلُّ كلمةٍ لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف اذا قارنتها أخواتها، وضامتها ذواتها، تجري في الحسن مُجراها، وتأخذ في معناها .. ثم من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل الى الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلاً، ببديع التأليف، وبليغ التنزيل.

* * *

وان أردت أن تتبين ما قلناه فضل تبيُّن !، وتتحقق بما ادَّعيناه زيادة تحقُّق، فان كنت من أهل الصنعة فاعمد الى قصةٍ من هذه القصص، وحديث من هذه الأحاديث، فعبر عنه بعبارة من جهتك، وأخبر عنه بألفاظ من عندك، حتى ترى فيما جئت به النقص الظاهر، وتتبين في نظم القرآن الدليل الباهر .. ولذلك أعاد قصة موسى في سور، وعلى طرق شتى، وفواصل مختلفة، مع اتفاق المعنى.

فلعلك ترجع الى عقلك، وتستر ما عندك، إن غلطت في أمرك، أو ذهبت في مذاهب وهمك، أو سلطت على نفسك وَجْهَ ظنِّك ... متى

(١) آية ٨ سورة النحل.

تهيأ لبليغ أن يتصرف في قدر آية، في أشياء مختلفة، فيجعلها مؤتلفة، من غير أن يبين على كلامه أعباء الخروج والتنقل، أو يظهر على خطابه آثار التكلُّف والتعمُّل ؟ وأحسب انه يسلم من هذا ــ ومحال أن يسلم منه ــ حتى[1] يظفر بمثل تلك الكلمات الأفراد، والألفاظ الأعلام، حتى يجمع بينها، فيجلو فيها فقرة من كلامه، وقطعة من قوله ؟ ولو اتفق له في أحرف معدودة، وأسطر قليلة، فمتى يتفق له في قدر ما تقول إنه من القرآن معجز ؟ هيهات هيهات !

إن الصبح يطمس النجوم وإن كانت زاهرة، والبحر يغمر الأنهار وإن كانت زاخرة .. متى تهيأ للآدمي أن يقول في وَصْف كتاب سليمان عليه السلام، بعد ذكر العنوان والتسمية، هذه الكلمة الشريفة العالية : ﴿ **ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين** ﴾[2]، والخلوص من ذلك الى ما صارت إليه من التدبير، واشتغلت[3] به من المشورة، ومن تعظيمها أمر المستشار، ومن تعظيمهم[4] أمرها، وطاعتها بتلك الألفاظ البديعة، والكلمات العجيبة البليغة، ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكُّن قولها : ﴿ **يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون** ﴾[5] وذكر قولهم : ﴿ **قالوا نحن أولو قوة وأُولوا بأس شديدٍ الأمر اليك فانظري ماذا تأمرين** ﴾[6]، لا تجد في صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به، وقوله[7] : ﴿ **الأمر اليك** ﴾، تعلم براعته بنفسه وعجيب معناه، وموضع اتفاقه في هذا الكلام، وتمكُّن الفاصلة، وملاءمة لما قبله، وذلك[8] قوله : فانظري ماذا تأمرين، ثم

(١) في الطبعة الثانية والمخطوطة متى.
(٢) آية ٣١ سورة النحل.
(٣) أي بلقيس ملكة سبأ.
(٤) الضمير راجع لجنود بلقيس الملكة.
(٥) آية ٣٢ سورة النحل.
(٦) آية ٣٢ سورة النحل.
(٧) الضمير يعود على المولى عز وجل.
(٨) أي الفاصلة المتمكنة : أو الكلام الذي تمكنت فيه الفاصلة.

الى هذا الاختصار، والى البيان مع الإيجاز، فإن الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والايجاز، وهذا مما يزيده الاختصار بسطاً، لتمكُّنه ووقوعه موقعه، ويتضمن الإيجاز منه تصرُّفاً يتجاوز محلَّه وموضعه، وكم جئت الى كلام مبسوط يضيق عن الأفهام، ووقعت على حديث طويل يقصر عما يُراد به من التمام. ثم لو وقع على الافهام[1] ... فما يجب فيه من شروط الاحكام، أو بمعاني القصة وما تقتضي من الإعظام، ثم لو ظفرت بذلك كله رأيته ناقصاً في وجه الحكمة، أو مدخولاً في باب السياسة، أو مصفوفاً في طريق السيادة، أو مشترك العبارات إن كان مستوجد المعنى، أو جيد البلاغة مستجلب المعنى، أو مستجلب البلاغة جيد المعنى، أو مستنكر اللفظ وحشيَّ العبارة، أو مستبهم الجانب مستكره الوضع ... وأنت لا تجد في جميع ما تلونا عليك إلا ما إذا بسط أفاد، واذا اختصر كمل في بابه وجاد، واذا سرح الحكيم في جوانبه طرف خاطره، وبعث العليم في أطرافه عيون مباحثه، لم يقع إلا على محاسن تتوالى، وبدائع تَتْرَى.

ثم فكر بعد ذلك في آية آية، أو كلمة كلمة في قوله : ﴿ **إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون** ﴾[2]، هذه الكلمات[3] الثلاث : كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره، وكالياقوت يتلألأ بين شذوره ... ثم تأمل تمكن الفاصلة — وهي الكلمة الثالثة[4] — وحسن موقعها، وعجيب حكمها، وبارع معناها.

وإن شرحت لك ما في كلِّ آيةٍ طال عليك الأمر، ولكني قد بيَّنت بما فسرت، وقررت بما فصلت، الوجه الذي سلكت، والنحو الذي قصدت، والغرض الذي اليه رميت، والسمت الذي اليه دعوت.

---

(١) هنا بياض في جميع النسخ.
(٢) آية ٣٤ سورة النمل.
(٣) أي الجمل.
(٤) وهي قوله تعالى : ﴿ **وكذلك يفعلون** ﴾.

ثم فَكِّرْ بعد ذلك في شيء أدلُّك عليه، وهو تعادلُ هذا النظم في الإعجاز في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة، فأجل الرأي في سورة سورة، وآية آية، وفاصلة فاصلة، وتدبر الخواتم والفواتح، والبوادئ والمقاطع، ومواضع الفصل والوصل، ومواضع التنقُّل والتحوُّل. ثم اقضِ ما أنت قاضٍ وإن طال عليك تأمل الجميع فاقتصِرْ على سورة واحدة أو على بعض سور.

ما رأيُك في قوله : ﴿ **إن فرعون علا في الأرض، وجعل أهلها شيعاً، ويستضعف طائفة منهم، يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين** ﴾[1]. هذه تشتمل على ست كلمات[2]، سناؤها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد، ورونقها على ما تعاين، وفصاحتها على ما تعرف، وهي تشتمل على جملة وتفصيل، وتفسير ذكر العلو في الأرض باستضعاف الخلق بذَبْح الولدان وسَبْيِ النساء، وإذا تحكَّم في هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما، لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم، والقلوب لا تقرُّ على هذا الجور، ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد، وكفت في التظليم، وردَّت آخر الكلام على أوله، وعطفت عجزه على صدره، ثم ذكر وعده تخليصهم بقوله : ﴿ **ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلَهم أئمة ونجعلهم الوارثين** ﴾[3]. وهذا من التأليف بين المؤتلف، والجمع بين المستأنس. كما أن قوله : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة. ولا تَنْسَ نصيبك من الدنيا، وأحسِنْ كما أحسن الله اليك، ولا تَبْغِ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين** ﴾[4]، وهي خمس كلمات، متباعدة في المواقع، نائية

---

(١) آية ٤ سورة القصص.

(٢) أي جمل.

(٣) آية ٥ سورة القصص.

(٤) آية ٧٧ سورة القصص.

المطارح، قد جعلها النظم البديع أشدَّ تألفاً من الشي المؤتلف في الأصل، وأحسن توافقاً من المتطابق في أول الوضع.

ومثل هذه الآية قوله : ﴿ **وربك يخلق ما يشاء، ويختار، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون** ﴾[1]، ومثلها : ﴿ **وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين** ﴾[2].

ومن المؤتلف قوله : ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان من المنتصرين** ﴾[3]، وهذه ثلاث كلمات كل كلمة منها أعز من الكبريت الأحمر ... ومن الباب الآخر قوله تعالى : ﴿ **ولا تدع مع الله إلهاً آخر، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم واليه ترجعون** ﴾[4].

كل سورة من هذه السور، تتضمن من القصص ما لو تكلفت العبارة عنها بأضعاف كلماتها لم تستوف ما استوفته، ثم تجد فيما تنظم ثقل النظم ونفور الطبع، وشراد الكلام، وتهافت القول، وتمنع جانبه، وقصورك في الإيضاح عن واجبه، ثم لا تقدر على أن تنتقل من قصة الى قصة وفصل الى فصل، حتى تتبين عليك مواضع الوصل، ويستصعب عليك أماكن الفصل، ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة، وأمثالا سائرة، وحكماً جليلة، وأدلة على التوحيد بينة، وكلمات من التنزيه والتحميد شريفة.

وإن أردت أن تتحقق ما وصفتُ لك، فتأمَّلْ شِعْرَ مَنْ شئت من الشعراء المفلقين، هل تجد كلامه في المديح والغزل والفخر والهجو يجري مُجرَى

---

(١) آية ٦٨ سورة القصص.

(٢) آية ٥٨ سورة القصص.

(٣) آية ٨١ سورة القصص.

(٤) آية ٨٨ سورة القصص.

كلامه في ذكر القصص ؟ إنك لتراه إذا جاء الى وصف واقعة، أو نقل خبر، عاميَّ[1] الكلام، سوقي الخطاب، مسترسلا في أمره، متساهلاً في كلامه، عادلاً عن المألوف من طبعه، وناكباً عن المعهود من سجيته، فإن اتفق له في قصة كلام جيد، كان قدر ثنتين أو ثلاثة، وكان ما زاد عليها حشواً، وما تجاوزها لغواً ... ولا أقول إنها تخرج من عادته عفواً، لأنه يقصر عن العفو، ويقف دون العرف، ويتعرض للركاكة.

* * *

فان لم تقع بما قلت لك من الآيات[2]، فتأمل غير ذلك من السور، هل تجد الجميع على ما وصفت لك ؟ لو لم تكن إلا سورة واحدة لكفت في الإعجاز، فكيف بالقرآن العظيم ؟ ولو لم يكن إلا حديث من سورة لكفى وأقنع وشفى، ولو عرفت قدر قصة موسى وحدها من سورة الشعراء، لما طلبت بيِّنةً سواها، بل قصة من قصصه، وهي قوله : ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي انكم متبعون** ﴾[3] إلى قوله : ﴿ **فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني اسرائيل * فاتبعوهم مشرقين** ﴾[4] حتى قال : ﴿ **فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم** ﴾[5]. ثم قصة إبراهيم عليه السلام ..

ثم لو لم تكن إلا الآيات التي انتهى اليها القول في ذكر القرآن، وهي

---

(١) مفعول ثان لتراه.

(٢) في النسخ كلها : الابيات.

(٣) آية ٥٢ سورة الشعراء.

(٤) آيات ٥٧ ــ ٦٠ سورة الشعراء.

(٥) آية ٦٣ سورة الشعراء.

قوله : ﴿ **وانه لتنزيل ربِّ العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين** ﴾[1]؛

وهذه كلمات مفردة بفواصلها، منها ما يتضمن فاتحة وفاصلة، ومنها ما هي فاتحة وواسطة وفاصلة، ومنها كلمة بفاصلتها تامة؛ دل على أنه نزله على قلبه ليكون نذيراً، وبيَّن أنه آية لكونه نبيًّا، ثم وصل بذلك كيفية النذارة فقال : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**[2]﴾ ..

فتأمل آية آية لتعرف الاعجاز، وتتبين التصرف البديع، والتنقل في الفصول الى آخر السورة، ثم راعِ المقطعَ العجيب، وهو قوله : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون** ﴾[3]، هل يحسن أن تأتي بمثل هذا الوعيد، وان تنظم مثل هذا النظم، وان تجد مثل هذه النظائر السابقة، وتصادف مثل هذه الكلمة المتقدمة ؟

* * *

ولولا كراهة الإملال، لجئت إلى كل فصل، فاستقريت على الترتيب كلماته، وبيَّنت لك ما في كلٍّ واحدة منها من البراعة، ومن عجيب البلاغة، ولعلك تستدلُّ بما قلنا على ما بعده، وتستضيءِ بنوره، وتهتدي بهداه. ونحن نذكر آياتٍ أخر، لتزداد استبصاراً، وتتقدم تيقُّناً.

تأمل من الكلام المؤتلف قوله : ﴿ **حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب ذي الطول، لا اله إلا هو اليه المصير** ﴾[4]. أنت قد تدربت الآن بحفظ أسماء الله تعالى

---

(١) ١٩٢ ــ ١٩٥ سورة الشعراء.

(٢) الآيتان : ٢١٤ و ٢١٥ سورة الشعراء.

(٣) آية ٢٢٧ سورة الشعراء.

(٤) آيات ١ ــ ٢ سورة غافر وقد سبق أن عرض المؤلف لسورة غافر ايضا.

وصفاته، فانظر متى وجدت في كلام البشر وخطبهم مثل هذا النظم في هذا القدر، وما يجمع ما تجمع هذه الآية : من شريف المعاني، وحسن الفاتحة والخاتمة، وَاتْلُ ما بعدها من الآي، واعرف وجه الخلوص من شيء الى شيء : من احتجاج الى وعيد، ومن إعذار الى إنذار، ومن فنون من الأمر شتى مختلفة تأتلف بشريف النظم، ومتباعدة تتقارب بعليِّ الضم.

ثم جاء الى قوله : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، فاخذتهم فكيف كان عقاب * وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار** ﴾[1]، الآية الأولى أربعة فصول، والثانية فصلان .. وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل موقع قوله : ﴿ **وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه** ﴾ وهل تقع في الحسن موقع قوله ليأخذوه كلمة ؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة ؟ وهل يسد مسدَّه في الاصالة نكتة ؟، لو وضع موضع ذلك : ليقتلوه أو ليرجموه أو لينفوه أو ليطردوه أو ليهلكوه أو ليذلوه، ونحو هذا، ما كان ذلك بعيداً ولا بارعاً، ولا عجيباً، ولا بالغاً .. فانقد موضع هذه الكلمة، وتعلم بها ما تذهب اليه من نخب الكلام وجميل[2] الألفاظ، والاهتداء للمعاني .. فإن كنت تقدر أن شيئاً من هذه الكلمات التي عددناها عليك أو غيرها لا تقف بك على غرضنا من هذا الكتاب، فلا سبيل لك الى الوقوف على تصاريف الخطاب، فافزع الى التقليد، واكف نفسك مؤنة التفكير، وإن فطنت فانظر الى ما قال من ردِّ عَجْز الخطاب الى صدره، بقوله : ﴿ **فأخذتهم فكيف كان عقاب** ﴾، ثم ذكر عقيبها العذاب في الآخرة، واتلاها تلو العذاب في الدنيا، على الإحكام الذي رأيت.

---

(١) الآيتان ٥ و ٦ سورة غافر.

(٢) هكذا في الطبعتين وفي الخطية مكانها بياض.

ثم ذكَّر المؤمنين بالقرآن، بعد ذكر المكذبين بالآيات والرسل، فقال : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به** ﴾[1] الى أن ذكر ثلاث آيات، وهذا كلام مفصول تعلم عجيب اتصاله بما سَبَقَ ومضَى، وانتسابه الى ما تقدَّم وتقضى، وعظم موضعه في معناه، ورفيع ما يتضمن من تحميدهم وتسبيحهم وحكاية كيفية دعاء الملائكة، بقوله : ﴿ **ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً** ﴾[1] .. هل تعرف شرف هذه الكلمة لفظاً ومعنى، ولطيف هذه الحكاية، وتلاؤم هذا الكلام، وتشاكل هذا النظام ؟ وكيف يهتدي الى وَضْع هذه المعاني بشريٌّ ؟ والى تركيب ما يلائمها من الألفاظ إنسيٌّ ..

ثم ذكر ثلاث آيات في أمر الكافرين على ما ترى، ثم نبَّه على أمر القرآن وأنه من آياته، بقوله : ﴿ **هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر الا مَنْ ينيب** ﴾[2]، وانما ذكر هذين الأمرين اللذين يختص بالقدرة عليهما لتناسبهما في أنهما من تنزيله من السماء، ولأن الرزاق الذي لو لم يرزق لم يمكن بقاء النفس تجب طاعته والنظر في آياته. ثم قال : ﴿ **فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ۞ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على مَنْ يشاء من عباده، لينذر يوم التلاق ۞ يوم هم بارزون، لا يخفى على الله منهم شيء، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار** ﴾[3].

قف على هذه الدلالة، وفكِّرْ فيها، وراجِعْ نفسك في مراعاة معاني هذه الصفات العالية، والكلمات السامية، والحكم البالغة، والمعاني الشريفة، تعلم ورودها عن الآلهية ودلالتها على الربوبية، وتتحقق أن الخطب المنقولة

---

(١) من آية ٧ سورة غافر.

(٢) آية ١٣ سورة غافر.

(٣) الآيات ١٤ ــ ١٦ سورة غافر.

عنهم، والأخبار المأثورة في كلماتهم الفصيحة، من الكلام الذي تعلق به الهمم البشرية، وما تحوم عليه الأفكار الآدمية، وتعرف مباينتها لهذا الضرب من القول، أي خاطر يتشوف الى أن يقول : ﴿ **يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون** ﴾[1] ؟ وأي لفظ يدرك هذا المضمار ؟ وأي حكيم يهتدي إلى ما لهذا من الغور ؟ وأي فصيح يهتدي إلى هذا النظم ؟

ثم استقرئ الآية إلى آخرها واعتبر كلماتها، وراعِ بعدها قوله : ﴿ **اليوم تُجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم، إن الله سريع الحساب** ﴾[2]؛ من يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث على قربها، وعلى خفتها في النظم، وموقعها من القلب ؟

ثم تأمل قوله : ﴿ **وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين. ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع * يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور * والله يقضي بالحق، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء، ان الله هو السميع البصير** ﴾[3]. كل كلمة من ذلك على ما قد وصفتها، من أنه اذا رآها الإنسان في رسالة كانت عينها، أو في خطبة كانت وجهها، أو قصيدة كانت غرة غرتها، وبيت قصيدتها، الياقوتة التي تكون فريدة العقد، وعين القلادة، ودرَّة الشذر، اذا وقع بين كلام وشَّحه، واذا ضمن في نظام زيَّنه، واذا اعترض في خطاب تميَّز عنه، وبان بحسنه منه.

* * *

---

(١) الآيات ١٤ ــ ١٦ سورة غافر.

(٢) آية ١٧ سورة غافر.

(٣) الآيات ١٨ ــ ٢٠ سورة غافر.

ولست أقول هذا لك في آية دون آية، وسورة دون سورة، وفصل دون فصل، وقصة دون قصة، ومعنى دون معنى، لأني قد شرحت لك أن الكلام في حكاية القصص والأخبار، وفي الشرائع والأحكام، وفي الديانة والتوحيد، وفي الحجج والتثبيت، هو خلاف الكلام فيما عدا هذه الأمور .. ألا ترى أن الشاعر المفلق اذا جاء الى الزهد قصر، والأديب اذا تكلم في بيان الأحكام، وذكر الحلال والحرام، لم يكن كلامه على حسب كلامه في غيره ... ونظم القرآن لا يتفاوت في شيء، ولا يتباين في أمر، ولا يختل في حال، بل له المثل الأعلى، والفضل الأسنى، وفيما شرحناه لك كفاية، وفيما بيناه بلاغ.

* * *

ونذكر في الأحكاميات وغيرها آيات اخرى، منها قوله : ﴿ **يسئلونك ماذا أحلَّ لهم ؟ قل : أحل لكم الطيبات، وما علمتم من الجوارح مكلبين، تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم، واذكروا اسم الله عليه، واتقوا الله إن الله سريع الحساب** ﴾[1]. أنت تجد في هذه الآية، من الحكمة، والتصرُّف العجيب، والنظم البارع، ما يدلُّك — إن شئت — على الإعجاز، مع هذا الاختيار والإيجاز، فكيف اذا بلغ ذلك آيات وكانت سورة ؟

ونحو هذه الآية قوله : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبيَّ الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحلُّ لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾[2]. وكالآية التي

---

(١) آية ٤ سورة المائدة.

(٢) آية ١٥٧ سورة الأعراف.

بعدها في التوحيد واثبات النبوة[1]، وكالآيات الثلاث في المواريث[2]. أي بارع يقدر على جميع أحكام الفرائض في قدرها من الكلام ؟ ثم كيف يقدر على ما فيها من بديع النظم ؟

وإن جئت الى آيات الاحتجاج كقوله تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون. لا يسئل عما يفعل وهم يُسألون** ﴾[3]. وكالآيات في التوحيد كقوله : ﴿ **هو الحي، لا إله إلَّا هو فَاْدعوه مخلصين له الدين، الحمد لله ربِّ العالمين** ﴾[4]. وكقوله : ﴿ **تبارك الذي نزل الفرقان علىٰ عبده، ليكون للعالمين نذيراً * الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك، وخلق كل شيء فقدره تقديراً** ﴾[5]. وكقوله : ﴿ **تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير** ﴾[6]، الى آخرها. وكقوله : ﴿ **والصافات صفًّاً * فالزاجرات زجراً * فالتاليات ذكراً * إن الهكم لواحد * رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق * إنَّا زيَّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظا من كل شيطان مارد * لا يسَّمَّعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحورا، ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب** ﴾[7]، هذه من الآيات التي قال فيها الله تعالى ذكره : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله، ذلك**

---

(١) وهي قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ الخ.
(٢) الآيات : ١١ و ١٢ و ١٧٦ سورة النساء.
(٣) الآيتان : ٢٢ ــ ٢٣ سورة الأنبياء.
(٤) آية ٦٥ سورة غافر.
(٥) الآيتان : ١ ــ ٢ سورة الفرقان.
(٦) آية ١ سورة الملك.
(٧) الآيات : ١ ــ ١٠ سورة الصافات.

هُدى الله يهدي به مَنْ يشاء، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾[1]. وانظُرْ بعين عقلك، وراجِعْ جلية بصيرتك، اذا تفكرت في كلمة كلمة مما نقلناه اليك، وعرضناه عليك، ثم فيما ينتظم من الكلمات، ثم الى أن يتكامل فصلاً وقصة، أو يتم حديثاً وسورة ..

* * *

لا بل فكر في جميع القرآن على هذا الترتيب، وتدبره على نحو هذا التنزيل. فلم ندع ما ادعيناه لبعضه، ولم نصف ما وصفناه إلا في كله، وإنْ كانت الدلالة في البعض أَبْيَنَ وأَظْهَرَ، والآيةُ أَكْشَفَ وَأَبْهَرَ.

واذا تأملت على ما هديناك اليه، ووقفناك عليه، فانظر : هل ترى وَقْعَ هذا النور في قلبك، واشتماله على لبِّك، وسريانه في حسِّك، ونفوذه في عروقك، وامتلاءك به ايقاناً، واحاطةً، واهتداءك به ايماناً وبصيرةً ؟ أم هل تجد الرعب يأخذ منك مأخذه من وجه، والهزة تعمل في جوانبك من لون، والأريحية تستولي عليك من باب ؟ وهل تجد الطرب يستفزك للطيف ما فطنت له، والسرور يحركك من عجيب ما وقفت عليه ؟ وتجد في نفسك من المعرفة التي حدثت لك عزة، وفي أعطافك ارتياحاً وهزة، وترى لك في الفضل تقدُّماً وتبريزاً، وفي اليقين سبقاً وتحقيقاً، وترى مطارح الجهال تحت أقدام الغفلة، ومهاويهم في ظلال القلَّة والذلَّة، وأقدارهم بالعين التي يجب أن تلحظ بها مراتبهم، بحيث يجب أن ترتبها.

هذا كله في تأمل الكلام ونظامه، وعجيب معانيه وأحكامه، فإن جئت الى ما انبسط في العالم من بركته وأنواره، وتمكن من الآفاق من يمنه وأضوائه، وثبت في القلوب من إكباره وإعظامه، وتقرَّر في النفوس من حَتْمِ أمره ونَهْيِه، ومضى في الدماء من مفروض حكمه .. والى أنه جعل عماد

---

(١) آية ٢٣ سورة الزمر.

الصلاة التي هي تلو الايمان في التأكيد، وثانية التوحيد في الوجوب .. وفرض حفظه، ووكل الصغار والكبار بتلاوته، وأمر عند افتتاحه بما أمر به لتعظيمه، من قوله : ﴿ **فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾[1]، لم يؤمر بالتعوذ لافتتاح أمر كما أمر به لافتتاحه، فهل يدلك هذا على عظيم شأنه، وراجح ميزانه، وعالي مكانه ؟ وجملة الأمر أن نقد الكلام شديد، وتمييزه صعب.

* * *

ومما كتب اليَّ الحسن بن عبدالله العسكري[2] : أخبرني أبو بكر بن دريد[3] قال : سمعت أبا حاتم يقول : سمعت الاصمعي يقول : فرسان الشعراء أقل من فرسان الحرب .. وقال : سمعت أبا عمرو بن العلاء[4] يقول : العلماء بالشعر أعزُّ من الكبريت الاحمر.

وإذا كان الكلام المتعارف، المتداول بين الناس، يشق تمييزه، ويصعب نقده، يذهب عن محاسنه الكثير، وينظرون الى كثيرٍ من قبيحه بعين الحسن، وكثير من حسنه بعين القبح، ثم يختلفون في الأحسن منه اختلافاً كثيراً، وتتباين آراؤهم في تفضيل ما تفضل منه، فكيف لا يتحيرون فيما لا يحيط به علمهم، ولا يتأتّى في مقدورهم، ولا يمثل بخواطرهم ؟ وقد حير القوم الذين لم يكن أحد أفصح منهم، ولا أتمَّ بلاغةً، ولا أحسنَ براعةً، حتى دهشوا حين ورد عليهم، وولهت عقولهم، ولم يكن عندهم فيه جواب، غير ضرب الأمثال، والتحرض[5] عليه، والتوهم فيه، وتقسيمه أقساماً، وجعله

---

(١) آية ٩٨ سورة النحل

(٢) هو صاحب الصناعتين المتوفي نحو عام ٣٩٥ هـ

(٣) عالم لغوي أديب راوية مشهور (٢٢٣ — ٣٢١ هـ).

(٤) راوية اللغة والأدب المشهور المتوفى عام ١٥٤ هـ.

(٥) هكذا في جميع النسخ ولعلها : والتخرص.

عضين ... وكيف لا يكون أحسن الكلام، وقد قال الله تعالى : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به مَنْ يشاء من عباده، ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾[1]، استغنم فَهْمَ هذه الآية وكفاك، استفد عِلْمَ هذه الكلمات وقد أغناك، فليس يوقف على حسن الكلام بطوله، ولا تعرف براعته بكثرة فصوله، إن القليل يدل على الكثير، والقريب قد يهجم بك على البعيد ... ثم انه سبحانه وتعالى لما علم من عظم شأن هذه المعرفة، وكبر محلها وذهابها على أقوام، ذكر في آخر هذه الآية ما ذكر، وبيَّن ما بيَّن، فقال : ﴿ **ذلك هدى الله يهدي به مَنْ يشاء** ﴾[2]، فلا يعلم ما وصفنا لك إلا بهداية من العزيز الحميد. وقال : ﴿ **ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾[2]، وقال : ﴿ **يضلُّ به كثيراً ويهدي به كثيراً** ﴾[3].

وقد بسطنا لك القول رجاء إفهامك .. وهذا المنهاج الذي رأيته إن سلكته يأخذ بيدك، ويدلُّك على رشدك، ويُغْنيك عن ذكر براعته آية آية لك.

واعلم أنَّا لم نقصد فيما سطرناه من الآيات، وسميناه من السور والدلالات، ذكر الأحسن والأكشف والأظهر؛ لأنَّا نعتقد في كل سورة ذكرناها أو أضربنا عن ذكرها اعتقاداً واحداً، في الدلالة على الإعجاز، والكفاية في التمنُّع والبرهان، ولكن لم يكن بدٌّ من ذكر بعض، فذكرنا ما تيسَّر، وقلنا فيما اتجه في الحال وخطر، وان كنا نعتقد أن الإعجاز في بعض القرآن أظهر، وفي بعضٍ أدقُّ وأغمض، والكلام في هذا الفصل

(١) آية ٢٣ سورة الزمر.

(٢) من آية ٢٣ سورة الزمر.

(٣) من آية ٢٦ سورة البقرة.

يجيءُ بعد هذا .. فاحفظ عنا في الجملة ما كرَّرنا، والسير بعد ذلك في التفصيل اليك، وحصل ما أعطيناك من العلامة، ثم النظر عليك.

* * *

قد اعتمدنا على أن الآيات تنقسم الى قسمين :

أحدهما : ما يتم بنفسه، أو بنفسه وفاصلته، فينير في الكلام، إنارة النجم في الظلام.

والثاني : ما يشتمل على كلمتين أو كلمات، إذا تأملتها وجدت كل كلمة منها في نهاية البراعة، وغاية البلاغة، وإنما يبين ذلك بأن تتصور هذه الكلمة مضمَّنة بين أضعاف كلام كثير، أو خطاب طويل، فتراها ما بينها تدلُّ على نفسها، وتعلو على ما قد قرن منها لعلو جنسها، فاذا ضُمَّت الى أخواتها، وجاءت في ذواتها، أرتك القلائد منظومة، كما كانت تريك عند تأمل الأفراد منها اليواقيت منثورة، والجواهر مبثوثة.

ولولا ما أكره من تضمين القرآن في الشعر. لأنشدتك ألفاظاً وقعت مضمنة لتعلم كيف تلوح عليه، وكيف ترى بهجتها في أثنائه، وكيف تمتاز منه ؟ حتى أنه لو تأمله مَنْ لم يقرأ القرآن، لتبين أنه أجنبي من الكلام الذي تضمَّنه، والباب الذي توسطه، وأنكر مكانه، واستكبر موضعه، ثم تناسبها في البلاغة والابداع، وتماثلها في السلاسة والإغراب، ثم انفرادها بذلك الأسلوب، وتخصصها بذلك الترتيب، ثم سائر ما قدمنا ذكره مما نكره إعادته وأنت ترى غيره من الكلام يضطرب في مجاريه، ويختل تصرفه في معانيه، ويتفاوت التفاوت الكثير في طرقه، ويضيق به النطاق في مذاهبه، ويرتبك في أطرافه وجوانبه، ويسلمه للتكلُّف الوحشيِّ كثرة تصرفه، ويحيله على التصنع الظاهر موارد تنقله وتخلصه ...

ونظم القرآن في مؤتلفه ومختلفه، وفي فصله ووصله، وافتتاحه واختتامه،

وفي كل نهج يسلكه، وطريق يأخذ فيه، وباب يتهجم عليه، ووجه يؤمه ـــ على ما وصفه الله تعالى به ـــ لا يتفاوت كما قال : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾[1]، ولا يخرج عن تشابهه وتماثله، كما قال : ﴿ **قرآناً عربياً غير ذي عوج** ﴾[2]. وكما قال : ﴿ **كتاباً متشابهاً** ﴾[3]، ولا يخرج عن إبانته، كما قال : ﴿ **بلسان عربي مبين** ﴾[4] ... وغيره من الكلام كثير التلوُّن، دائم التغيُّر، يقف بك على بديع مستحسن، ويعقبه قبيح مستهجن، ويطلع عليك بوجه الحسناء، ثم يعرض للهجر بخد القبيحة الشوهاء، ويأتيك باللفظة المستنكرة بين الكلمات التي هي كاللآلئ الزهر. وقد يأتيك باللفظة الحسنة بين الكلمات البهم، قد يقع إليك منه الكلام المثبج[5]، والنظم المشوش، والحديث المشوه، وقد تجد منه ما لا يتناسب ولا يتشابه ولا يتآلف ولا يتماثل، وقد قيل في وصف ما جرى هذا المجرى :

وشعر كبعر الكبش فرق بينه ... لسان دَعيٍّ في القريض دخيل

وقال آخر :

وبعض قريضِ القوم أولاد علة ... يكدُّ لسان الناطق المتحفظِ[6]

فإنْ قال قائل : فقد نجد في آيات القرآت ما يكون نظمه بخلاف ما وصفت ولا تتميَّز الكلمات بوجه البراعة، وإنما تكون البراعة عندك منه في

---

(١) من آية ٨٢ سورة النساء.

(٢) من آية ٢٨ سورة الزمر.

(٣) من آية ٢٣ سورة الزمر.

(٤) آية ١٩٥ سورة الشعراء.

(٥) أي المضطرب.

(٦) رواه الجاحظ في البيان ص ٧٠ جـ ١ ـــ رواية عن خلف الأحمر وفسر أولاد علة بقوله : إذا كان الشعر مستكرها وكانت الفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات وهم الذين من أمهات شيء والأب واحد.

مقدارٍ يزيد على الكلمات المفردة، وحدٍّ يتجاوز حدَّ الألفاظ المستبدة، وان كان الأكثر على ما وصفته به.

قيل له : نحن نعلم أن قوله : ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم** ﴾ الى آخر الآية[1]، ليس من القبيل الذي يمكن إظهار البراعة فيه، وإبانة الفصاحة، ذاك يجري عندنا مجرى ما يحتاج إلى ذكره من الأسماء والألقاب، فلا يمكن إظهار البلاغة فيه، فطلبها في نحو هذا ضَرْبٌ من الجهالة، بل الذي يعتبر في نحو ذلك تنزيل الخطاب، وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى، وذلك حاصل في هذه الآية إن تأملت .. ألا ترى أنه بدأ بذكر الأم لعظم حرمتها، وإدلائها بنفسها، ومكان بعضيتها، فهي أصل لكل من يدلي بنفسه منهن، لأنه ليس في ذوات الإنسان أقرب منها، ولما جاء إلى ذوات الأسباب ألحق لها حكم الأم من الرضاع، لأن اللحم ينشره اللبن بما يغذوه، فيحصل بذلك أيضاً لها حكم البعضية، فنشر الحرمة بهذا المعنى وألحقها بالوالدة، وذكر الأخوات من الرضاعة فنبه بها على كل مَنْ يدلي بغيرها، وجعلها تلو الأم من الرضاع .. والكلام في إظهار حكم هذه الآية وفوائدها يطول، ولم نضع كتابنا لهذا، وسبيل هذا أن نذكره في كتاب « معاني القرآن »[2]، ان سهل الله لنا إملاءه وجمعه ... فلم تنفك هذه الآية من الحكم التي تخلف حكمة الإعجاز في النظم والتأليف، والفائدة التي تنوب مناب العدول عن البراعة في وجه الترصيف. فقد علم السائل أنه لم يأت بشيء، ولم يهتد للأغراض في دلالات الكلام وفوائده ومتصرفاته وفنونه ومتوجهاته .. وقد يتفق في الشعر ذكر الأسامي فيحسن موقعه، كقوله أبي دواد الأسدي :

ان يقتلوك فقد ثللت عروشهم ... بعتيبة بن الحارث بن شهاب
بأشدهم كلباً على أعدائه ... وأعزِّهم فقداً على الاصحاب

---

(١) آية ٢٣ سورة النساء.

(٢) هذا يشير الى أن الباقلاني كان على عزم إخراج كتابه « معاني القرآن » وهو يؤلف كتاب الاعجاز.

وقد يتفق ذكر الأسامي فيفسد النظم ويقبح الوزن.

والآيات الأحكاميات التي لا بد فيها من أمر البلاغة يعتبر فيها من الألفاظ ما يعتبر في غيرها، وقد يمكن فيها، وكل موضع أمكن ذلك فقد وجد في القرآن في بابه ما ليس عليه مزيد في البلاغة، وعجيب النظم .. ثم في جملة الآيات ما إن لم تُرَاعِ البديع البليغ في الكلمات الأفراد، والألفاظ الآحاد، فقد تجد ذلك مع تركب الكلمتين والثلاث، ويطرد ذلك في الابتداء، والخروج، والفواصل، وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة، أو باجتماع ذلك أو في بعض ذلك، ما يخلف الإبداع في أفراد الكلمات، وان كانت الجملة والمعظم على ما سبق الوصف فيه.

وإذا عرف ما يجري اليه الكلام، وينهي اليه الخطاب، ويقف عليه الاسلوب، ويختص به القبيل، بَانَ عند أهل الصنعة تميُّز بابه، وانفراد سبيله، ولم يشكَّ البليغُ في انتمائه الى الجهة التي ينتمي اليها، ولم يرتب الأديب البارع في انتسابه الى ما عرف من نهجه. وهذا كما يعرف طريقه مترسل في رسالته؛ فهو لا يخفَى عليه بناء قاعدته وأساسه، فكأنه يرى أنه يعدُّ عليه مجاري حركاته وأنفاسه. وكذلك في الشعر واختلاف ضروبه، يعرف المتحقق به طبع كل أحد، وسبيل كل شاعر.

* * *

وفي نظم القرآن أبواب كثيرة لم نستوفها، وتقصيها يطول، وعجائبها لا تنقضي. فمنها الكلام[1] والإشارات، واذا بلغ الكلام من هذا القبيل مبلغاً، ربما زاد الافهام به على الإيضاح، أو ساوى مواقع التفسير والشرح، مع استيفائه شروطه، كان النهاية في معناه، وذلك كقوله : ﴿ **سبحان الذي أسرَى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا**

(١) في النسخ كلها بعد هذه الكلمة بياض يتسع لكلمة.

حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾[1]، فصول هذه الآية. وكلماتها على ما شرحناه، من قبل البلاغة واللطف في التقدم، وفي تضمُّن هذا الأمر العظيم، والمقام الكريم، ويتلو هذه قوله ﴿ **وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدًى لبني اسرائيل** ﴾[2]. هذا خروج لو كان في غير هذا الكلام لتصور في صورة المنقطع، وقد تمثل في هذا النظم لبراعته وعجيب أمره، و (موقعه) موقع ما لا ينفك منه القول، وقد يتبرأ الكلام المتصل بعضه من بعض ويظهر عليه التثبيج[3] والتباين، للخلل الواقع في النظم، وقد تصور هذا الفصل للطفه وصلاً ولم يَبِنْ عليه تميز الخروج ..

ثم انظر كيف أجرى هذا الخطاب الى ذكر نوح، وكيف أثنى عليه ؟ وكيف يليق صفته بالفاصلة ويتم النظم بها. مع خروجها مخرج البروز من الكلام الأول، الى ذكره، وإجرائه الى مدحه بشكره، وكونهم من ذريته يوجب عليهم أن يسيروا بسيرته، وان يستنُّوا بسنَّتِهِ ، في أن يشكروا كشكره، ولا يتَّخذوا من دون الله وكيلاً، وأن يعتقدوا تعظيم تخليصه إياهم من الطوفان لما حملهم عليه، ونجاهم فيه، حين أهلك مَنْ عداهم به، وقد عرفهم أنه إنما يؤاخذهم بذنوبهم، وفسادهم، فيما سلط عليهم من قبلهم، وعاقبهم ثم عاد عليهم بالأفضال والإحسان، حتى يتذكروا، ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم، وعلى نوح الذي ولدهم، وهم من ذريته، فلما عادوا الى جهالتهم، وتمردوا في طغيانهم، عاد عليهم بالتعذيب.

ثم ذكر الله عز وجل في ثلاث آيات بعد ذلك، معنى هذه القصة التي كانت لهم، بكلمات قليلة في العدد، كثيرة الفوائد، لا يمكن شرحها إلا بالتفصيل الكثير، والكلام الطويل؛ ثم لم يخل تضاعيف الكلام مما ترى من الموعظة، على أعجب تدريج، وأبدع تاريخ، بقوله : ﴿ **إن أحسنتم أحسنتم**

---

(١) آية ١ سورة الاسراء.

(٢) من آية سورة الإسراء.

(٣) التثبيج، والثبج محركة : اضطراب الكلام وتفنينه وتعمية الخط وترك بيانه.

لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾[1]، ولم ينقطع بذلك الكلام، وأنت ترى الكلام يتبدَّد مع اتصاله وينتشر مع انتظامه، فكيف بالقاء ما ليس منه في أثنائه، وطرح ما بعده في أدراجه ؟ الى أن خرج إلى قوله ﴿ **عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا** ﴾[2]، يعنى ان عدتم الى الطاعة عدنا الى العفو .. ثم خرج خروجاً آخر الى ذكر القرآن.

* * *

وعلى هذا فقس بحثك عن شرف الكلام، وما له من علو الشان، لا يطلب مطلباً إلَّا انفتح، ولا يسلك قلباً إلَّا انشرح، ولا يذهب مذهباً إلَّا استنار وأضاء، ولا يضرب مضرباً إلا بلغ فيه السماء، لا تقع منه على فائدة فقدرت أنها أقصى فوائدها إلّا قصرت، ولا تظفر بحكمة فظننت أنها زبدة حكمها إلا وقد أخللت .. إن الذي عارض القرآن بشعر امرئ القيس لأضل من حمار أهله، وأحمق من هبنقة، لو كان شعره كله كالأبيات المختارة التي قدمناها لأوجب البراءة من قوله :

وسن كسنيق سناء وسنما ذعرت بمدلاج الهجير نهوض

قال الأصمعي : لا أدري ما السن ولا السنيق ولا السنم. وقال بعضهم : السنيق أكمة[3]. وقال فيها[4] :

له قصر باعير[5] وساقا نعامة كفحل الهجان القيصري العضوض

وقوله :

عصافير وذبان ودود وأجرأ من مجلجلة الذباب[6]

(١) من آية سورة الإسراء.

(٢) من آية ٨ سورة الإسراء.

(٣) وفي القاموس : هو البيت المجصص.

(٤) أي في هذه القصيدة.

(٥) يريد بعير، فمد الباء ــ والهجان الفحل الكريم.

(٦) هكذا في الطبعتين ــ وفي المخطوطة : الذئاب.

وزاد في تقبيح ذلك وقوعه في أبيات فيها[١] :

فقد طَوَّفْتُ في الآفاقِ حتى رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ
وكلُّ مكارم الاخلاق سارت اليه همتي ونما اكتسابي

وكقوله في قصيدة قالها في نهاية السقوط :

أزمان فوها كلما نبهتها كالمسك فاح وظل في الفدامِ[٢]
أفلا ترى أظعانهن بواكراً كالنخلِ من شوكان[٣] حين صِرامِ
وكأن شاربها أصاب لسانه موم يخالط جسمه بسقامِ

وكقوله :

لم يفعلوا فعل آل حنظلة انهم جير[٤] بئسما ائتمروا
لا حميري وفي ولا عدس ولا است عير[٥] يحكها الثفرُ[٦]
ان بني عوف ابتنوا حسباً ضيعه الداخلون إذ غدروا

وكقوله :

أبلغ شهاباً بل فأبلغ عاصماً هل قد أتاك الخبر مالِ[٧]
أنا تركنا منكم قتلى بخو عى[٨]، وسبايا[٩] كالسعالي[١٠]

---

(١) أي في القصيدة التي منها البيت السابق.
(٢) اسم موضع.
(٣) الفدام : ما يوضع في فم الابريق ليصفى به.
(٤) بمعنى نعم.
(٥) الحمار الوحشي والأهلي ايضا.
(٦) هو السير في مؤخر السرج.
(٧) الخبر بضمة فسكون : العلم بالشيء، ومال : مصغر مالك، وفي الطبعة الأولى والثانية الحيز مال وفي المخطوطة الخير مال والأبيات في الكتاب محرفة وقد صححناها من الديوان وهي محرفة الوزن.
(٨) اسم موضع.
(٩) أي أسرى. وسبيت العدو : أسرته.
(١٠) السعلاة والسعلاء. أخبث الغيلان : والجمع سعالى.

يمشين بين رحالنا معترفا ... ت ما بجوع وهزالِ

ولم يقع مثل ذلك له وحده، فقد قال الأعشى[1] :

فأدخلك الله برد الجنا ... ن جذلان في مدخل طيب[2]

وقال أيضاً :

فرميت غفلة عينه عن شاته ... فأصبت حبة قلبها وطحالها[3]

وقال في فرسه :

ويأمر لليحموم كل عشية ... بقت وتعليق فقد كاد يسنقُ[4]

وقال :

(وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني) ... شاو مشل شلول شلشل شول[5]

وهذه الألفاظ في معنى واحد، وقد وقع لزهير[6] نحوه كقوله :

فأقسمت جهداً بالمنازل من مِنَى ... وما سفحت فيه المقادم والقملُ

كيف يقال هذا في قصيدة يقول فيها :

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه[7] ... وتغرس إلا في منابتها النخلُ

---

(١) شاعر جاهلي مجيد مشهور.

(٢) الجنان : جمع جنة. الجذل : الفرح أو أشده.

(٣) أي في غفلة عينيه أي في وقت عدم انتباهه. الشاه : كناية عن المرأة.. الطحال معروف.

(٤) اليحموم : اسم فرسه. سنق الفصيل من اللبن كفرح : بشم وأتخم.

(٥) الحانوت : بيت الخمار. الشاوي الذي يشوي اللحم. المشل : السواق الخفيف . الشلول والشلل : الغلام الحاد الرأس الخفيف الروح النشط في عمله. الشول : من يشول بالشيء الذي يشتريه فيحمله له ويرفعه.

(٦) شاعر جاهلي نابغة ــ صاحب الحوليات وله المعلقة المشهورة « أمن أم أوفى »

(٧) الخطي : الرماح المنسوبة الى خط اسم بلدة باليمامة والوشيج شجر تصنع منه الرماح.

وكقول الطرماح[1] :

سوف تدنيك من لميس[2] سبنتا ة امارت بالبول ماء الكراض

السبنتاة : الناقة الصلبة، والكراض : ماء الفحل .. أسالت ماء الفحل مع البول فلم تعقد عليه ولم تحمل فتضعف، والمائر : السائل.

* * *

فان قال قائل : أجدك تحاملت على امرئ القيس، ورأيت أن شعره يتفاوت بين اللين والشراسة، وبين اللطف والشكاسة، وبين التوحش والاستئناس، والتقارب والتباعد، ورأيت الكلام الأعدل أفضل، والنظام المستوثق أكمل، وأنت تجد البحتري يسبق في هذا الميدان، ويفوت الغاية في هذا الشأن، وأنت ترى الكتّاب يفضلون كلامه على كل كلام، ويقدمون رأيه في البلاغة على كل رأي، وكذلك تجد لأبي نواس من بهجة اللفظ، ودقيق المعنى، ما يتحير فيه أهل اللفظ، ويقدمه الشطار والظراف على كل شاعر، ويرون لنظمه روعة لا يرون لنظم غيره، وزبرجاً[3] لا يتفق لسواه ... فكيف يعرف فضل ما سواه عليه ؟

فالجواب ان الكلام في أن الشعر لا يجوز أن يوازن به القرآن قد تقدَّم، وإذ كنا قد بيَّنا أن شعر امرئ القيس — وهو كبيرهم الذي يقرون بتقدمه، وشيخهم الذي يعترفون بفضله، وقائدهم الذي يأتمون به، وإمامهم الذي يرجعون اليه — كيف سبيله، وكيف طريق منزلته عن منزلة نظم القرآن، وانه لا يخلط بشعره غبار ذلك النظم، وهو إذا لحظ ذلك كان كما قال :

فأصبحت من ليلى الغداة كناظر مع الصبح في إعجاز نجم مغرب[4]

---

(١) شاعر أموي مشهور.

(٢) اسم محبوبته.

(٣) أي رونقا.

(٤) أعجاز الشيء : مآخيره. المغرب : المائل إلى الغروب.

وكما قال أيضاً :

راحت مشرِّقــة ورحت مغربــاً فمتـى التقـاءُ مشرقٍ ومغــــربِ

وإذا كنا قد أبنا في القاعدة ما علمت، وفصلنا لك في شعره ما عرفت، لم نحتج إلى أن نتكلم على شعر شاعر، وكلام كل بليغ، والقليل يدل على الكثير ... وقد بينا في الجملة مباينة أسلوب نظم القرآن جميع الأساليب، ومزيته عليها في النظم والترتيب، وتقدُّمه عليها في كل حكمة وبراعة. ثم تكلمنا على التفصيل[1] على ما شهدت، ولا يبقى علينا بعد ذلك سؤال.

* * *

ثم نقول : أنت تعلم أنَّ من يقول بتقدُّم البحتري في الصنعة، به من الشغل في تفضيله على ابن الرومي، أو تسوية ما بينهما، ما لا يطمع معه في تقديمه على امرئ القيس ومَنْ في طبقته ... وكذلك أبو نواس إنما يعدل شعره بشعر أشكاله، ويقابل كلامه بكلام أضرابه، من أهل عصره، وإنما يقع بينهم التباين اليسير، والتفاوت القليل، فأما أن يظنَّ ظانٌّ أو يتوهَّم متوهِّمٌ، أن جنس الشعر معارض لنظم القرآن، ﴿ **فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق** ﴾[2]؛ وإنما هي خواطر[3]، يغير بعضها على بعض، ويقتدي فيها بعض ببعض، والغرض الذي يُرمى اليه، ويصح التوافي عليه في الجملة، فهو قبيل، متداول، وجنس متنازع، وشريعة مورودة، وطريقة مسلوكة.

ألا ترى الى ما رُوي عن الحسين بن الضحاك[4]، قال : أنشدت أبا نواس قصيدتي التي فيها :

---

(١) في المطبوعتين : التفضيل.

(٢) آية ٣١ سورة الحج.

(٣) يريد : هو أي الشعر خواطر، وإنما أنث المبتدأ لتأنيث الخبر.

(٤) شاعر عباسي ماجن توفي عام ٢٥٠ هـ.

وشاطري اللسان مختلف التكريه زان المجـــون بالـــــنسك
كأنه[1] ــ نصب كأسه ــ قمر يكرع في بعض أنجم الفلكْ

قال : فأنشدني أبو نواس بعد أيام قصيدته التي يقول فيها :

أعـاذل أعتبت الإمـام واعتبـا وأعربت عما في الضمير وأعربا
وقلت لساقيها[2] : أجزها فلم أكن ليأبى أمير المؤمنين[3] وأشربـا
فجوزها عني عقاراً ترى لها الى الشرف الأعلى شعاعاً مطنبا
اذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا

قال : فقلت له : يا أبا علي هذه مصالتة، فقال : أتظن أنه يُروى لك معنى وأنا حي ؟

فتأمل هذا الأخذ، وهذا الوضع، وهذا الإتباع، أما الخليع فقد رأى الإبداع في المعنى، فأما العبارات فإنها ليست على ما ظنّه، لأن قوله « يكرع » ليس بصحيح وفيه ثِقْلٌ بيِّنٌ وتفاوت، وفيه إحالة، لأن القمر لا يصح تصور أن يكرع في نجم، وأما قول أبي نواس : « اذا عب فيها » فكلمة قد قصد فيها المتانة، وكان سبيله أن يختار سواها من ألفاظ الشراب، ولو فعل ذلك كان أملح، وقوله « شارب القوم » فيه ضرب من التكلف، الذي لا بد له منه، أو من مثله، لإقامة الوزن، ثم قوله : « خلته يقبل في داج من الليل كوكبا » تشبيه بحالة واحدة من أحواله، وهي أن يشرب حيث لا ضوء هناك، وإنما يتناوله ليلا، فليس بتشبيه مستوفى، على ما فيه من الوقوع والملاحة.

وقد قال ابن الرومي[4] ما هو أوقع منه وأملح وأبدع :

---

(١) ويروى : كأنما.

(٢) في المخطوطة : لساقينا.

(٣) يريد به الأمين م ١٩٨ هـ.

(٤) شاعر عباسي مجيد مشهور توفي عام ٢٨٢ هـ.

ومهفهفٍ تمت محاسنه ... حتى تجاوز منية النفسِ
تصبو الكئوس الى مراشفه ... وتحن في يده الى الحبسِ
أبصرته والكأس بين فمٍ ... منه وبين أناملٍ خمسِ
وكأنها وكأن شاربَها ... قمرٌ يقبِّل عارضَ الشمسِ

ولا شك في أن تشبيه ابن الرومي أحسن وأعجب، إلا أنه تمكن من إيراده في بيتين، وهما — مع سبقهما الى المعنى — أتَيَا بِهِ في بيت واحد.

* * *

وإنما أردت بهذا أن أعرفك أن هذه أمور متقاربة، يقع فيها التنافس والتعارض، والأطماع متعلقة بها، والهمم تسمو اليهما، وهي إلف طباعنا، وطوع مداركنا، ومجانس لكلامنا ... وإعجاب قوم بنحو هذا وما يجري مُجراه، وإيثار أقوام لشعر البحتري على أبي تمام[1] وعبد الصمد[2] وابن الرومي، وتقديم قوم كل هؤلاء أو بعضهم عليه، وذهاب قوم عن المعرفة، ليس بأمر يضربنا ولا سبب يعترض، على أفهامنا.

* * *

(١) من فحول الشعراء العباسيين توفي عام ٢٣١ هـ.
(٢) شاعر عباسي حكيم توفي عام ٢٠٦ هـ.

نقد لامية البحتري

ونحن نعمد الى بعض قصائد البحتري، فنتكلم عليها، كما تكلمنا على قصيدة امرئ القيس، ليزداد الناظر في كتابنا بصيرة، ويستخلص من سر المعرفة سريرة، ويعلم كيف تكون الموازنة، وكيف تقع المشابهة والمقاربة، ونجعل تلك القصيدة التي نذكرها أجود شعره.

سمعت الصاحب إسماعيل بن عباد[1] يقول : سمعت أبا الفضل بن العميد[2] يقول : سمعت أبا مسلم الرستمي يقول : سمعت البحتري[3] يذكر أن أجود شعر قاله :

أهلا بذلكم الخيال المقبل

قال : وسمعت أبا الفضل بن العميد يقول : أجود شعره هو قوله في الشيب :

زجر له لو كان ينزجر

قال : وسئلت عن ذلك فقلت : البحتري أعرف بشعر نفسه من غيره .

---

(١) كاتب ووزير مشهور توفي عام ٣٨٥ هـ.

(٢) زعيم الكتاب المصنعين في الدولة العباسية توفي عام ٣٦٠ هـ.

(٣) شاعر عباسي مطبوع مشهور توفي عام ٢٨٤ هـ.

فنحن الآن نقول في هذه القصيدة ما يصلح في مثل هذا ... قوله :

أهلاً بذلكم الخيال المقبل
فعل الذي نهواه أو لم يفعل

بَرْقٌ سَرَى في بطن وجرة[1] فاهتدَتْ
بسناه أعناقُ الركابِ الضلل

البيت الأول : في قوله « ذلكم الخيال » ثقل روح وتطويل وحشو، وغيره أصلح له. وأخف منه قول الصنوبري :

أهلا بذاك الزور من زور   شمس بدت في فلك الدور

وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف، فيصير الى الكزازة، وتعود ملاحته بذلك ملوحة، وفصاحته عيّاً، وبراعته تكلُّفاً، وسلاسته تعسُّفاً، وملاسته تلوِّياً وتعقُّداً، فهذا فصل .. وفيه شيء آخر، وهو أن هذا الخطاب إنما يستقيم مهما خوطب به الخيال حال اقباله، فأما أن يحكي الحال التي كانت وسلفت على هذه العيادة، ففيه عهدة[2]، وفي تركيب الكلام عن هذا المعنى عقدة، وهو ـــ لبراعته وحذقه في هذه الصنعة ـــ يعلق نحو هذا الكلام، ولا ينظر في عواقبه، لأن ملاحة قوله تغطي على عيون الناظرين فيه نحو هذه الأمور .. ثم قوله : « فعل الذي نهواه أو لم يفعل » ليست بكلمة رشيقة، ولا لفظة ظريفة، وان كانت كسائر الكلام.

فأما بيته الثاني : فهو عظيم الموقع في البهجة، وبديع المأخذ حسن الرواء، أنيق المنظر والمسمع، يملأ القلب والفهم، ويفرح الخاطر، وترى بشاشته في العروق. وكان البحتري يسمِّي نحو هذه الأبيات عروق الذهب، وفي نحوه ما يدل على براعته في الصناعة، وحذقه في البلاغة، ومع هذا كله فيه ما نشرحه من الخلل، مع الديباجة الحسنة، والرونق المليح ..

---

(١) اسم موضع والبطن المكان المطمئن.

(٢) أي ضعف.

وذلك أنه جعل الخيال كالبرق، لإشراقه في مسراه، كما يقال إنه يسري كنسيم الصبا فيطيب ما مر به، كذلك يضيء ما مرَّ حوله، وينور ما مرَّ به. وهذا غلو في الصنعة، إلا ان ذكره « بطن وجرة » حشو، وفي ذكره خلل، لأن النور القليل يؤثر في بطون الأرض وما اطمأن منها، بخلاف ما يؤثر في غيرها، فلم يكن من سبيله أن يربط ذلك ببطن وجرة. وتحديده المكان على الحشو أحمد من تحديد امرئ القيس من ذكر سقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة، لم يقنع بذكر حدٍّ حتى حده بأربعة حدود، كأنه يريد بيع المنزل، فيخشى ــ إن أخلَّ بحد ــ أن يكون بيعه فاسداً، أو شرطه باطلاً. فهذا باب ..

ثم إنما يذكر الخيال بخفاء الأثر، ودقة المطلب، ولطف المسلك، وهذا الذي ذكر يضاد هذا الوجه، ويخالف ما يوضع عليه أصل الباب. ولا يجوز أن يقدر مقدر أن البحتري قطع الكلام الأول، وابتدأ بذكر برق لمع من ناحية حبيبه من جهة بطن وجرة، لأن هذا القطع إن كان فعله كان خارجاً به عن النظم المحمود ولم يكن مبدعاً، ثم كان لا تكون فيه فائدة، لأن كل برق شعل وتكرر وقع الاهتداء به في الظلام، وكان لا يكون بما نظمه مفيداً ولا متقدِّماً، وهو على ما كان من مقصده، فهو ذو لفظ محمود، ومعنى مستحب غير مقصود، ويعلم بمثله أنه طلب العبارات، وتعليق القول بالإشارات، وهذا من الشعر : الجنس الذي يحلو لفظه، وتقل فوائده، كقول القائل [1] :

ولما قضينا من مِنَى كل حاجة
ومسح بالأركان مَنْ هو ماسحُ

(١) هو كثير الشاعر الأموي المشهور المتوفي عام ١٠٥ هـ.

وشدت على حدب[1] المهارى رحالنا
ولا[2] ينظر الغادي الذي هو رائحُ
أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا
وسالت بأعناق المطي الأباطح[3]

هذه ألفاظ بعيدة المطالع والمقاطع، حلوة المجاني والمواقع، قليلة المعاني والفوائد ..

فأما قول البحتري بعد ذلك :

من غادة منعت وتمنع نيلها فلو أنها بذلت لنا لم تبذلِ
كالبدرِ غير مخيل والغصنِ غير مميل والدعصِ غير مهيلِ[4]

فالبيت الأول : على ما تكلّف فيه من المطابقة، وتجشّم الصنعة، ألفاظه أوفر من معانيه، وكلماته أكثر من فوائده، وتعلم أن القصد وضع العبرات في مثله، ولو قال هي ممنوعة مانعة كان ينوب عن تطويله، وتكثيره الكلام وتهويله، ثم هو معنى متداول مكرر على كل لسان.

وأما البيت الثاني : فأنت تعلم أن التشبيه بالبدر والغصن والدعص أمر منقول متداول، ولا فضيلة في التشبيه بنحو ذلك، وإنما يبقى تشبيهه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء في البيت، وهذا ايضاً قريب، لأن المعنى مكرر، ويبقى له بعد ذلك شيء آخر، وهو تعمُّله للترصيع في البيت كله، الا أن هذه الاستثناآت فيها ضَرْبٌ من التكلُّف، لأن التشبيه بالغصن كافٍ، فإذا زاد فقال : كالغصن غير معوج، كان ذلك من باب التكلف خللا، وكان ذلك

(١) حدب ظهره : اعوج فهو أحدب والجمع : حدب ــ ويروى : دهم.
(٢) ويروى : ولم.
(٣) راجع تحليل عبد القاهر للابيات وإعجابه بنظمها وبلاغتها في كتابه .. الاسرار ص ١٤ ــ ١٦.
(٤) رجل مخيل أي مقطوع الأطراف. مميل : ممال ــ الدعص : كثيب الرمل. مهيل : مهال ــ البذل والنيل : العطاء.

زيادة يستغنى عنها، وكذلك قوله « كالدعص غير مهيل »، لأنه اذا انهال خرج عن ان يكون مطلق التشبيه مصروفاً اليه، فلا يكون لتقييده معنى.

وأما قوله :

ما الحسنُ عندك يا سعاد بمحسن ... فيما أتاه ولا الجمالُ بمجمـلِ
عذل المشوق، وإن من سيما الهوى ... في حيث تجهلـه لجـاج العـذلِ [1]

قوله في البيت الأول : « عندك »، حشو، وليس بواقع ولا بديع، وفيه كلفة والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء، وفيه شيء آخر لأنه يذكر أن حسنها لم يحسن في تهييج وجده وتهييم قلبه، وضد هذا المعنى هو الذي يميل اليه أهل الهوى والحب .. وبيت كشاجم[2] أسلم من هذا وأبعد من الخلل، وهو قوله :

بحياة حسنك أحسني، وبحق مَنْ ... جعل الجمال عليك وقفاً أجملي

وأما البيت الثاني فإن قوله « في حيث » حشا بقوله في كلامه، ووقع ذلك مستنكراً وحشيّاً، نافراً عن طبعه، جافياً في وضعه، فهو كرقعة من جلد في ديباج حسن، فهو يمحو حسنه، ويأتي على جماله .. ثم في المعنى شيء، لأن لجاج العذل لا يدلُّ على هوى مجهول، ولو كان مجهولاً لم يهتدوا للعذل عليه، فعلم أن المقصد استجلاب العبارات دون المعاني، ثم لو سلم من هذا الخلل لم يكن في البيت معنى بديع، ولا شيء يفوت قول الشعراء في العذل، فإن ذلك جملهم الذلول، وقولهم المكرر.

وأما قوله :

ماذا عليك من انتظـارِ متيـمٍ ... بل ما يضرك وقفـةٌ في منـزلِ
إن سيل عيَّ عن الجواب فلم يَطِقْ ... رجعاً فكيف يكون إن لم يسأل [3]

---

(١) سيما : علامة : العذل : جمع عاذل.

(٢) شاعر عباسي مشهور من شعراء القرن الرابع.

(٣) سيل : مخفف سئل .. عي : من العي وهو ضد البيان.

لست أنكر حسن البيتين، وظرفهما، ورشاقتهما ولطفهما، وماءَهما وبهجتهما، إلا أن البيت الأوّل منقطع عن الكلام المتقدم ضرباً من الانقطاع، لأنه لم يجر لمشافهة العاذل ذكر، وإنما جرى ذكر العذال على وجه لا يتصل هذا البيت به ولا يلائم .. ثم الذي ذكره من الانتظار، وان كان مليحاً في اللفظ، فهو في المعنى متكلف، لأن الواقف في الدار لا ينتظر أمراً، وإنما يقف تحسراً وتذللاً وتحيُّراً .. والشطر الأخير من البيت واقع، والأوّل مستجلب، وفيه تعليق على أمر لم يجر له ذكر لأن وضع البيت يقتضي تقدُّم عَذْلٍ على الوقوف، ولم يحصل ذلك مذكوراً في شعره من قبل، وأما البيت الثاني فإنه معلَّق بالأوّل لا يستقل إلّا به، وهم يعيبون وقوف البيت على غيره، ويرون أن البيت التام هو المحمود، والمصراع التام بنفسه ــ بحيث لا يقف على المصراع الآخر ــ أفضل وأتم وأحسن ... وقوله : « فكيف يكون إن لم يسأل » مليح جداً، ولا تستمر ملاحة ما قبله عليه، ولا يطرد فيه الماء اطراده فيه، وفيه شيء آخر، لأنه لا يصلح أن يكون السؤال سبباً لأن يعيا عن الجواب، وظاهر القول يقتضيه.

فأما قوله :

لا تكلفن لي الدموع فإنَّ لي	دمعاً ينمُّ عليه ان لم يفضلِ
ولقد سكنت الى الصدود من النوى	والشرى أرى عند طعمِ الحنظلِ
وكذاك طرفة حين أُوْجَس ضربة	في الرأس هان عليه فَصْدُ الأكحلِ [1]

فالبيت الأوّل مخالف لما عليه مذهبهم، في طلب الإسعاد بالدموع، والإسعاف بالبكاء. ومخالف لأوّل كلامه، لأنه يفيد مخاطبة العذل وهذا يفيد مخاطبة الرفيق ... وقد بينت لك أن القوم يسلكون حفظ الألفاظ وتصنيعها، دون ضبط المعاني وترتيبها، ولذلك قال الله عز وجل :

(١) النوى: الفراق. الأرى : العسل. الشرى : الحنظل. طرفة : الشاعر الجاهلي المشهور صاحب المعلقة الدالية المعروفة ــ الأكحل عرق في اليد يفصد.

﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تَرَ أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾[1]، فأخبر انهم يتبعون القول حيث توجَّه بهم، واللفظ كيف أطاعهم، والمعاني كيف تتبع ألفاظهم، وذلك خلاف ما وضع عليه الإبانة عن المقاصد بالخطاب، ولذلك كان طلب الفصاحة فيه أسهل وأمكن، فصار بهذا أبلغ خطابهم ... ثم لو أن هذا البيت وما يتلوه من البيتين سلم من نحو هذا لم يكن في ذلك شيء يفوت شعر شاعرٍ، أو كلام متكلم ... وأما قوله : « والشرى أرى »، فانه وان كان قد تصنَّع له من جهة الطباق، ومن جهة التجنيس المقارب، فهي كلمة ثقيلة على اللسان، وهم يذمون نحو هذا، كما عابوا على أبي تمام قوله :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى   معي ومتى[2] ما لمته لمته وحدي

ذكر لي الصاحب بن عباد[3] أنه جارى أبا الفضل بن العميد في محاسن القصيدة، حتى انتهى الى هذا البيت، فذكر له أن قوله « أمدحه أمدحه » معيب، لثقله من جهة تدارك حروف الحلق، ثم رأيت بعد ذلك المتقدمين قد تكلموا في هذه النكتة، فعلمت أن ذلك شيء عند أهل الصنعة معروف ... ثم أن قوله « عند أكل الحنظل » ليس بحسن ولا واقع ... وأما البيت الثالث فهو أجنبي من كلامه غريب في طباعه، نافر من جملة شعره، وفيه كزازة وفجاجة وان كان المعنى صالحا ...

فأما قوله :

وأغر في الزمن البهيم محجل   قد رحت منه على أغر محجلِ
كالهيكل المبني الا أنه   في الحسن جاء كصورة في هيكلِ[4]

---

(١) آيات ٢٢٤ ــ ٢٢٦ من سورة الشعراء.

(٢) ويروى : وإذا.

(٣) الوزير الكاتب المشهور المتوفي عام ٣٨٥ هـ.

(٤) الغرة : بياض في جبهة الفرس فوق الدرهم يقال : فرس أغر ــ والبهيم. هو الذي لا يخلط لونه شيء سوى لونه والجمع بهم ــ والتحجيل : بياض في قوائم الفرس أو في ثلاثة منها أو في رجليه قل أو =

فالبيت الأوّل لم يتفق له فيه خروج حسن، بل هو مقطوع عما سلف من الكلام، وعامة خروجه نحو هذا، وهو غير بارع في هذا الباب وهذا مذموم معيب منه. لأن من كان صناعته الشعر، وهو يأكل به، وتغافل عما يرفع اليه في كل قصيدة، واستهان بأحكامه وتجويده، مع تتبُّعه لأن يكون عامة ما يصدر به أشعاره من النسيب عشرة أبيات، وتتبعه للصنعة الكثيرة وتركيب العبارات وتنقيح الألفاظ وتزويرها، كان ذلك أدخل في عيبه، وأدل على تقصيره أو قصوره، وأنه لا يقع له الخروج منه ..

وأما قوله : « وأغر في الزمن البهيم محجل »، فإن ذكر التحجيل في الممدوح قريب، وليس بالجيد، وقد يمكن أن يقال إنه اذا قرن بالأغر حسن، وجرى مجراه، وانخرط في سلكه، وأهوى الى مضماره، ولم ينكر لمكانه من جواره، فهذا عذر، والعدول عنه أحسن. وإنما أراد أن يرد العجز على الصدر، ويأتي بوجه التجنيس. وفيه شيء، لأن ظاهر كلامه يوهم أنه قد صار ممتطي الأغر الأوّل، ورائحاً عليه، ولو سلم من ذلك لم يكن فيه ما يفوت حدود الشعراء، وأقاويل الناس، فأما ذكر الهيكل في البيت الثاني، ورده عجز البيت عليه، وظنه أنه قد ظفر بهذه اللفظة، وعمل شيئاً حتى كررها، فهي كلمة فيها ثقل، ونحن نجدهم اذا أرادوا أن يصنعوا نحو هذا قالوا : ما هو إلّا صورة، وما هو إلّا تمثال، وما هو إلّا دمية، وما هو إلّا ظبية، ونحو ذلك، من الكلمات الخفيفة على القلب واللسان، وقد استدرك هو أيضاً على نفسه فذكر أنه كصورة في هيكل ولو اقتصر على ذكر الصورة وحذف الهيكل، كان أولى وأجمل .. ولو أن هذه الكلمة كررها أصحاب العزائم على الشياطين لراعوهم بها، وأفزعوهم بذكرها، وذلك من كلامهم وشبيه بصناعتهم.

= كثر يقال : فرس محجل وقد حجلت قوائمه على ما لم يسم فاعله مشددة والهيكل : الفرس القوي ومعبد النصارى.

وأما قوله :

وافَى الضلوعِ يشد عَقْدَ حزامه يوم اللقاء على معم مخولِ
أخواله للرستميـن بفـارسٍ وجدوده للتبعيـن بموكـلِ [1]

نبل المحزم[2] مما يمدح به الخيل فهو لم يأت فيه ببديع وقوله : « يشد عقد حزامه » داخل في التكلُّف والتعسُّف، لا يقبل من مثله، وان قبلناه من غيره، لأنه يتتبع الألفاظ، وينقدها نقداً شديداً. فهلا قال : « يشد حزامه »، أو يأتي بحشوٍ آخر سوى العقد، فقد عقَّد[3] هذا البيت بذكر العقد. ثم قوله : « يوم اللقاء » حَشْوٌ آخر لا يحتاج اليه ... وأما البيت الثاني فمعناه أصلح من ألفاظه، لأنها غير مجانسة لطباعه، وفيها غلط ونفار ...

وأما قوله :

يهوي كما تهوي العقاب وقد رأت صيداً، وينقضُّ انقضاضَ الأجدلِ
متـوجِّسٌ برقيقتيـن كأنمـا تريان من ورق عليـه موصلِ
ما إن يعافُ قذىً ولو أوردته يوماً خلائق حمدويه الأحولِ [4]

البيت الأول صالح، وقد قاله الناس ولم يسبق اليه ولم يقل ما لم يقولوه بل هو منقول، وفي سرعة عدو الفرس تشبيهات ليس هذا بأبدعها، وقد يقولون : يفوت الطرف، ويسبق الريح، ويجاري الوهم، ويكر النظر. ولولا أن الإتيان على محاسن ما قالوه في ذلك يخرج الكلام عن غرض الكتاب لنقلت لك جملة مما ذهبوا اليه في هذا المعنى، فتتبَّعْ تَعْلَمْ أنه لم يأت

(١) وافي الضلوع : كامل خلقها. معم مخول : كريم الأعمام والأخوال — الرستمين مثنى رستم وهو قائد الفرس المشهور. والتبعين مثنى تبع ملك حمير.

(٢) هو موضع شد الحزام.

(٣) من التعقيد.

(٤) يهوي : يسقط إلى أسفل — الأجدل : الصقر يتوجس خيفة : يضمرها. رقيقتين أي بأذنين رقيقتين. القذى : ما يسقط في العين والشراب.

فيها بما يجل عن الوصف، أو يفوت منتهى الحد .. على أن الهوى يذكر عند الانقضاض خاصة، وليس للفرس هذه الصفة في الحقيقة، إلا أن يشبه حده في العدو بحالة انقضاض البازي والعقاب، وليست تلك الحالة بأسرع أحوال طيرانها ... وأما البيت الثاني فقوله إن الأذنين كأنهما من ورق موصل، وإنما أراد بذلك حدتهما، وسرعة حركتهما، وإحساسهما بالصوت، كما يحس الورق بحفيف الريح، وظاهر التشبيه غير واقع، وإذا ضمن ما ذكرنا من المعنى كان المعنى حسناً، ولكن لا يدلُّ عليه اللفظ، وإنما يجري مُجرى المضمن، وليس هذا البيت برائق اللفظ، ولا مشاكل فيه لطبعه، غير قوله : « متوجس برقيقتين »، فإن هذا القدر هو حسن ... وأما البيت الثالث فقد ذكرنا فيما مضى من الكتاب أنه من باب الاستطراد[1]، ونقلنا نظائر ذلك من قول أبي تمام وغيره، وقطعة أبي تمام في نهاية الحسن في هذا المعنى. والذي وقع للبحتري في هذا البيت عندي ليس بجيِّدٍ في لفظٍ ولا معنى، وهو بيت وحش جداً قد صار قذًى في عين هذه القصيدة، بل وخزاً فيها، ووبالاً عليها، قد كدر صفاءها، وأذهب بهاءها وماءها، وطمس بظلمته سناها، وما وجه مدح الفرس بأنه لا يعاف قذًى من المياه إذا وردها ؟ كأنه أراد أن يسلك مسلك بشار في قوله :

ولا يشرب الماء إلا بدم

وإذا كان لهذا الباب مجانباً، وعن هذا السمت بعيداً، فهلا وصفها بعزة الشرب، كما وصفها المتنبي في قوله :

وصولٌ إلى المستصعبات بخيلهِ ... فلو كان قرنُ الشمسِ[2] ماءً لأوردا

وهلا سلك فيه مسلك القائل :

---

(١) راجع ص ١٥٥ وما بعدها من هذا الكتاب.

(٢) قرن الشمس : اعلاها وأول ما يبدو منها في الطلوع.

وإني للماء الذي شابه[1] القـذَى   اذا كثـــرت وراده لعَيُــــوفُ

ثم قوله « ولو أوردته يوما » حشو بارد، ثم قوله « حمدويه الأحول » وحش جداً، فما أمقت هذا البيت وأبغضه، وما أثقله وأسخفه، وإنما غطى على عينه عيبه، وزين له إيراده طمعه في الاستطراد، وهلا طمع فيه على وجه لا يغضُّ من بهجة كلامه، ولا معنى ألفاظه، فقد كان يمكن ذلك ولا يتعذَّر ...

فأما قوله :

ذنب كما سحب الرداء يذبُّ عن   عرف، وعرفٌ كالقناع المسبـلِ
تتوهـم الجـــوزاءَ في أرساغــــه   والبـدرَ فوق جبينـه المتهلـــــل[2]

فالبيت الأول : وحش الابتداء، منقطع عما سبق من الكلام، وقد ذكرنا أنه لا يهتدي لوصل الكلام ونظام بعضه إلى بعض، وإنما يتصنَّع لغير هذا الوجه، وكان يحتاج أن يقول ذنب كالرداء فقد حذف، (و) الوصل غير متسق ولا مليح، وكان من سبيله أن لا يخفَى عليه ولا يذهب عن مثله .. ثم قوله : « كما سحب الرداء » قبيح في تحقيق التشبيه، وليس بواقع ولا مستقيم في العبارة، إلا على إضمار أنه ذنب يسحبه كما يسحب الرداء .. وقوله : « يذب عن عرف » ليس بحسن ولا صادق، والمحمود ما ذكره امرؤ القيس، وهو قوله :

فويق الأرض ليس بأعزل[3]

---

(١) شابه : خالطه. القذى : ما يقع في العين والشراب. عاف الرجل الطعام والشراب كرهه، فهو عائف وعيوف.

(٢) الذنب والعرف للفرس معروفان. القناع : الخمار. المسبل: من أسبل الإزار أرخاه. الجوزاء نجم معروف. أرساغ جمع رسغ، والرسغ من الدواب الموضع المستدق الذي بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل.

(٣) الأعزل : الذي يميل عظم ذنبه إلى أحد الشقين.

وأما قوله : « تتوهم الجوزاء في أرساغه »، فهو تشبيه مليح، ولكنه لم يسبق اليه، ولا انفرد به، ولو نسخت لك ما قاله الشعراء في تشبيه الغرة بالهلال والبدر والنجم، وغير ذلك من الأمور، وتشبيه الحجول، لتعجبت من بدائع قد وقعوا عليها، وأمور مليحة قد ذهبوا اليها، وليس ذلك موضع كلامنا، فتتبع ذلك في أشعارهم تعلم ما وصفت لك.

* * *

واعلم أنا تركنا بقية كلامه في وصف الفرس، لأنه ذكر عشرين بيتاً في ذلك، والذي ذكرناه في هذا المعنى يدلُّ على ما بعده، ولا يعدو ما تركناه أن يكون متوسطاً الى حدٍّ لا يفوت طريقة الشعراء.

ولو تتبعت أقاويل الشعراء في وصف الخيل، علمت أنه وإن جمع فأوعى، وحشر فنادى، ففيهم مَنْ سبقه في ميدانه، ومنهم مَنْ ساواه في شأوه، ومنهم مَنْ داناه، فالقبيل واحد، والنسيج متشاكل، ولولا كراهة التطويل لنقلت جملة من أشعارهم في ذلك، لتقف على ما قلت ... فتجاوزنا الى الكلام على ما قاله في المدح في هذه القصيدة ... قال :

لمحمد بن علي الشرف الذي ... لا يلحظ الجوزاء إلا من علِ
وسحابة لولا تتابع مزنها ... فينا لراح المزن غير مبخلِ
والجودُ يعذله عليه حاتمٌ ... سرفاً ولا جود لمن لم يعذلِ [1]

البيت الأول منقطع عما قبله، على ما وصفنا به شعره من قطعه المعاني، وفصله بينها، وقلة تأتِّيه لتجويد الخروج والوصل. ذلك نقصان في الصناعة، وتخلُّف في البراعة، وهذا اذا وقع في مواضع قليلة عذر فيها، وأما اذا كان بناء الغالب من كلامه على هذا فلا عذر له ... وأما المعنى الذي ذكره

(١) الجوزاء نجم معروف. عل. فوق. المزن جمع مزنة وهي السحابة البيضاء. حاتم الشاعر الجاهلي المشهور بالكرم والسخاء.

فليس بشيء مما سبق اليه، وهو شيء مشترك فيه، وقد قالوا في نحوه : إن مجده سماء السماء، وقالوا في نحوه الكثير الذي يصعب نَقْلُ جميعه، وكما قال المتنبي :

وعزمة بعثتها همة زحل   من تحتها بمكان الترب من زحلِ [1]

وحدثني إسماعيل بن عباد أنه رأى أبا الفضل بن العميد قام لرجل، ثم قال لمن حضره : أتدري مَنْ هذا ؟ هو الذي قال في أبيه البحتري : « لمحمد بن القاسم الشرف الذي ». فذلك يدل على استعظامه للميت [2] بما مدح به من البيت ...

والبيت الثاني في تشبيه جوده بالسحاب قريب، وهو حديث مكرر، ليس ينفك مديح شاعر منه، وكان من سبيله أن يبدع فيه زيادة إبداع، كما قد يقع لهم في نحو هذا، ولكنه لم يتصنَّع له وأرسله إرسالا .. وقد وقع في المصراع الثاني ضَرْبٌ من الخلل، وذلك ان المزن إنما يبخل إذا منع نيله، فذلك موجود في كل نَيْل ممنوح، وكلاهما محمود مع الإسعاف فإن أسعف أحدهما ومنع الآخر لم يمكن التشبيه، وإن كان إنما شبه غالب أحدهما بالآخر، وذكر قصور أحدهما عن صاحبه، حتى إنه قد يبخل في وقت والآخر لا يبخل بحال، فهذا جيد، وليس في حمل الألفاظ على الإشارة الى هذا شيء.

والبيت الثالث : وان كان معناه مكرراً، فلفظه مضطرب بالتأخير والتقديم، يشبه ألفاظ المبتدئين، ...

وأما قوله :

فضل وإفضال وما أخذ المدى   بعدَ المدى [3] كالفاضلِ المتفضلِ

---

(١) زحل نجم معروف من الخنس.

(٢) في المطبوعتين : للميت وفي المخطوطة : بالبيت.

(٣) المدى : الغاية.

سار إذا أدلجَ[1] العفاةُ الى النَّدى   لا يصنعُ المعروفَ غير معجلِ

فالبيت الأول منقطع عما قبله، وليس فيه شيء غير التجنيس الذي ليس ببديع، لتكرره على كل لسان، وقوله : « ما أخذ المدى » فإنه لفظ مليح، وهو كقول القائل :

قد أركب الآلة بعد الآلة

ورُوي : الحالة بعد الحالة. وكقول امرئ القيس :

[سموتُ إليها بعد ما نَامَ أهلُها]   سموَّ حباب الماء حالاً على حالِ

ولكنها طريقة مذللة، فهو فيها تابع :

وأما البيت الثاني : فقريب في اللفظ والمعنى، وقوله : « لا يصنع المعروف » ليس بلفظ محمود ...

وأما قوله :

عالٍ على نظر الحسود كأنما   جذبته أفراد النجوم بأحبلِ[2]

أو ما رأيت المجد ألقى رحله   في آل طلحة ثم لم يتحوَّلِ

فالبيت الأول منكر جداً في جر النجوم بالأرسان موضعه الى العلو، والتكلُّف فيه واقع ... والبيت الثاني أجنبي عنه، بعيد منه، وافتتاحه رديء، وما وجه الاستفهام والتقرير والاستبانة والتوقيف ؟ والبيتان أجنبيان من كلامه، غريبان في قصيدته، ولم يقع له في المدح في هذه القصيدة شيء جيد، ألا ترى أنه قال بعد ذلك :

نفسي فداؤكَ يا محمد من فتىً   يوفي على ظلم[3] الخطوب فتنجلي

---

(١) ادلج : سار من آخر الليل. العفاة : جمع عاف وهو السائل.

(٢) جمع حبل.

(٣) جمع ظلمة.

إنـي أريـد أبـا سعيـدٍ، والعِدَى   بينـي وبيـن سحابـة المتهلـلِ

كأن هذا ليس من طبعه ولا من سبكه ...

وقوله :

مضر الجزيـرة كلهـا وربيعـة الـ   خابـور[1] توعدنـي وأزد المـوصلِ
قد جدت بالطرف[2] الجواد فثنه   لأخيك من أدد[3] أبيك بمـنصل

البيت الأول حسن المعنى، وإن كانت ألفاظه بذكر الأماكن لا يتأتى فيه التحسين، وهذا المعنى قد يمكن إيراده بأحسن من هذا اللفظ وأبدع منه وأرق منه، كقوله :

إذا غضبَتْ عليك بنـو تميـمٍ   رأيتَ النـاس كلهـم غضابـا[4]

والبيت الثاني قد تعذر عليه وصله بما سبق من الكلام على وجه يلطف، وهو قبيح اللفظ، حيث يقول فيه : « فثنه لأخيك من أدد أبيك »، ومن أخذه بهذا التعرض لهذا السجع، وذكر هذا النسب، حتى أفسد به شعره ...

وأما قوله بعد ذلك في وصف السيف، يقول :

يتنـاوُل الـروح البعيـد منالهـا   عفواً، ويفتح في القضاء المقفلِ
بإبانـةٍ في كل حتـفٍ مظلـمٍ   وهدايةٍ في كل نفسٍ مجهلِ
ماضٍ، وان لم يمضه يدُ فارس   بطل، ومصقول وان لم يصقلِ

ليس لفظ البيت الأول بِمُضَاهٍ لديباجة شعره، ولا له بهجة نظمه، لظهور أثر التكلُّف عليه، وتبيُّنِ ثِقلٍ فيه، وأما القضاء المقفل وفتحه فكلام غير

(١) اسم موضع ونهر بالجزيرة.
(٢) الطرف بكسر الطاء : الفرس الكريم.
(٣) اسم الجد الأعلى الذي تنتمي اليه هذه القبيلة التي منها الممدوح. المنصل : السيف.
(٤) البيت لجرير الشاعر المشهور المتوفي عام ١١٠ هـ.

محمود، ولا مرضي، واستعارة لو لم يستعرها كانت أولى به، وهلا عيب عليه، كما عيب على أبي تمام قوله :

فضربت الشتــاء في أخدعيــه ضربــة غادرتــه عوداً ركوبــاً[1]

وقالوا : يستحق بهذه الاستعارة أن يصفع في أخدعيه، وقد اتبعه البحتري في استعارة الأخدع، ولوعاً بإتباعه، فقال في الفتح :

وإني وقـد بلغتنـي شرف العـلا وأعتقت من ذل المطامع أخدعي

إن شيطانه، حيث زيَّن له هذه الكلمة، تابعه حين حسن عنده هذه اللفظة، لخبيث ما رديء معاند، أراد أن يطلق أعنة الذمِّ فيه، ويسرح جيوش العتب اليه، ولم يقنع بقفل القضاء، حتى جعل للحتف ظلمة تُجلَى بالسيف، وجعل السيف هادياً في النفس المجهل الذي لا يُهتدى اليه، وليس في هذا مع تحسين اللفظ وتنميقه شيء، لأن السلاح وان كان معيباً فإنه يهتدي الى النفس، وكان يجب أن يبدع في هذا ابداع المتنبي في قوله :

كأن الهـام في الهيجـا عيــون وقد طبـعت سيـوفك من رقـادِ[2]

وقـد صغت الاسنـة من همـوم فمـا يخطــرن إلا في الفــؤادِ

فالاهتداء على هذا الوجه في التشبيه بديع حسن ... وفي البيت الأول شيء آخر، وذلك أن قوله : « ويفتح في القضاء » في هذا الموضع حشو رديء، يلحق بصاحبه اللكنة، ويلزمه الهجنة ... وأما البيت الثالث فإنه أصلح هذه الأبيات، وإن كان ذكر الفارس حشواً وتكلُّفاً ولغواً لأن هذا لا يتغير بالفارس والراجل، على أنه ليس فيه بديع ...

وأما قوله :

يغشى الوغى والترس ليس بجنـة من حده والـدرع ليس بمعقـل

---

(١) الأخدعان. عرقان في جانبي العنق . والعود : الجمل المسن.

(٢) الهام : جمع هامة وهي الرأس : الهيجاء : الحرب. الرقاد : النوم.

مصغ الى حكم الردى، فاذا مضَى لم يلتفت، واذا قضَى لم يعدل
متوقـد يبـري بأول ضربـة ما أدركت ولو أنهـا في يذبـل[1]

البيتان الأولان من الجنس الذي يكثر كلامه عليه، وهي طريقه الذي يجتنيها، وذلك من السَّبْك الكتابي، والكلام المعتدل، الا أنه لم يبدع فيها بشيء، وقد زيد عليه فيها، ومَنْ قَصَدَ الى أن يكمل عشرة أبيات في وصف السيف فليس من حكمه أن يأتي بأشياء منقولة، وأمور مذكورة، وسبيله أن يغرب ويبدع، كما أبدع المتنبي في قوله :

سله الركض بعد وهـن بنجـدٍ فتصدَّى للغيث أهل الحجاز ِ[2]

هذا في باب صقاله وأضوائه وكثرة مائه، وكقوله[3] :

ريان، لو قذف الـذي أسقيتـه[4] لجرى من المهجات بحرٌ مزبدُ

وقوله : « مصغ الى حكم الردى » إن تأملته مقلوب، كان ينبغي أن يقول : يصغي الردى الى حكمه، كما قال الآخر :

فالسيف يأمر والأقدار تنتظر

وقوله : « واذا قضَى لم يعدل » متكرر على ألسنتهم في الشعر خاصة في نفس هذا المعنى ... والبيت الثالث سليم، وهو كالأولين في خلوه عن البديع ...

فأما قوله :

فاذا أصاب فكـل شيء مقتـل واذا أصيب فما له من مقتـل ِ

(١) الوغى : الحرب : الترس معروف. الجنة : الوقاية. المعقل : الملجأ. الردى : الموت. يذبل : اسم جبل.

(٢) سله : أخرجه من غمده : الركض : العدو الشديد يريد للحرب. الوهن نحو من نصف الليل. الغيث : المطر. تصدى : تعرض.

(٣) أي المتنبي.

(٤) أي من دم الأعداء.

وكأنما سودُ النمالِ وحمرُها دبَّتْ بأيدٍ في قراه[1] وأرجلِ

البيت الأوّل يقصد به صنيعة اللفظ، وهو في المعنى متفاوت، لأن المضرب قد لا يكون مقتلاً، وقد يطلق الشعراء ذلك، ويرون أن هذا أبدع من قول المتنبي وأنه بضده :

يقتل السيف في جسم القتيل[2] به وللسيوف كما للناس آجالُ

وهذه طريقة لهم يتمدحون بها في قصف الرمح طعنا، وتقطيع السيف ضربا .. وفي قوله : « واذا أصيب فما له من مقتل » تعسُّف، لأنه يريد بذلك أنه لا يتكسر، فالتعبير بما عبر به عن المعنى الذي ذكرناه، يتضمَّن التكلُّف وضرباً من المحال، وليس بالنادر، والذي عليه الجملة ما حكيناه عن غيره، ونحوه قال بعض أهل الزمان :

يقصف في الفارس السمهري[3] وصدر الحسام فريقاً فريقا

والبيت الثاني أيضاً هو معنى مكرر على ألسنة الشعراء، وأما تصنيعه بسود النمال وحمرها فليس بشيء، ولعله أراد بالحمر الذر[4]، والتفصيل بارد، والإعراب به منكر، وهو كما حُكي عن بعضهم أنه قال : كان كذا حين كانت الثريا بحذاء رأسي على سواء، أو منحرفاً قدر شبر، أو نصف شبر، أو أصبع، وما يقارب ذلك. فقيل له : هذا من الورع الذي يبغضه الله، ويمقته الناس، ورُبَّ زيادة كانت نقصاناً، وصفة النمل بالسواد والحمرة في هذا من ذلك الجنس، وعليه خرج بقية البيت في قوله :

دبت بأيدٍ في قراه وأرجلِ

---

(١) القرا : الظهر بفتح القاف.

(٢) أي أن السيوف هي التي تقتل في جسم المقتول من كثرة الضرب والطعن. مبالغة في كثرة الطعان بها.

(٣) السمهري : الرمح منسوب الى رجل كان يقوم الرماح.

(٤) صغار النمل.

وكان يكفي ذكر الأرجل عن ذكر الأيدي. ووصف الفرند[1] بمدب النمل شيء لا يشذ عن أحد منهم ...

وأما قوله :

وكأن شاهره إذا استضوى به الز حفان يعصَى بالسماك الأعزلِ
حملت حمائله القديمة بقلة من عهد عادٍ غضة لم تذبل[2]

البيت الأول منهما فيه ضرب من التكلُّف، وهو منقول من أشعارهم وألفاظهم، وإنما يقول : « قمر يشد على الرجال بكوكب »، فجعل ذلك الكوكب السماك، واحتاج إلى أن يجعله أعزل للقافية، ولو لم يحتج إلى ذلك كان خيراً له، لأن هذه الصفة في هذا الوضع تفضه من الموضع، وموضع التكلُّف الذي ادعيناه الحشو الذي ذكره من قوله : « إذا استضوى به الزحفان » وكان يكفي أن يقول : كأن صاحبه يعصى بالسماك، وهذا وان كان قد تعمل فيه للفظ فهو لغو على ما بيَّناه.

وأما البيت الثاني ففيه لغو من جهة قوله : « حمائله قديمة »، ولا فضيلة له في ذلك، ثم تشبيه السيف بالبقلة من تشبيهات العامة، والكلام الرذل النذل، لأن العامة قد يتفق منها تشبيه واقع حسن ... ثم انظر إلى هذا المقطع الذي هو بالعي أشبه منه بالفصاحة، وإلى اللكنة أقرب منه إلى البراعة، وقد بيَّنا أن مراعاة الفواتح والخواتم والمطالع والمقاطع والفصل والوصل بعد صحة الكلام ووجود الفصاحة فيه مما لا بدَّ منه، وان الإخلال بذلك يخل بالنظم، ويذهب رونقه، ويحيل بهجته، ويأخذ ماءه وبهاءه.

* * *

(١) وشي السيف.

(٢) شهر السيف : سله. استضوى : استضاء. الزحفان : الجيشان. السماك نجم معروف. غض: طري. عصى سيفه : أخذه أخذ العصا أو ضربه به ضربه بالعصا.

وقد أطلت عليك فيما نقلت وتكلفت ما سطرت، لأن هذا القبيل قبيل موضوع متعمل مصنوع، وأصل الباب في الشعر على أن ينظر إلى جملة القصة ثم يتعمل الألفاظ، ولا ينظر بعد ذلك الى مواقعها، ولا يتأمل مطارحها ... وقد يقصد تارة الى تحقيق الأغراض، وتصوير المعاني التي في النفوس، ولكنه يلحق بأصل بابه، ويميل بك الى موضعه، وبحسب الاهتمام بالصنعة يقع فيها التفاضل.

وإن أردت أن تعرف أوصاف الفرس، فقد ذكرت لك أن الشعراء قد تصرفوا في ذلك بما يقع إليك، إن كنت من أهل الصنعة، مما يطول عليَّ نقله وكذلك في السيف. وذكر لي بعض أهل الأدب أن أحسن قطعة في السيف قول أبي الهول الحميري :

حاز صمصامة الزبيدي[1] من بين ... جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان ـــ فيما سمعنا ـــ ... خير ما أطبقت عليه الجفون
أخضر اللون بين برديه حد ... من ذعاف تميس فيه المنون[2]
أوقدت فوقه الصواعق نارا ... ثم ذابت له الذعاف القيون[3]
فاذا ما شهرته بهر الشمـ ... ـس ضياء فلم تكد تستبين
يستطير الأبصار كالقبس المشعل ... لا تستقيم فيه العيون
وكأن الفرند[4] والرونق الجا ... ري في صحفتيه ماء معين
نعم مخراق ذي الحفيظة في الهيـ ... ـجاء يعصى[5] به ونعم القرين
ما يبالي إذا انتحاه[6] بضرب ... أشمال سطت به أم يمين

* * *

(١) هو عمرو بن معد يكرب الزبيدي المتوفي عام ٢٤ هـ.
(٢) الذعاف : السم. تميس : تختال.
(٣) جمع قين وهو الحداد.
(٤) وشي السيف.
(٥) يضرب به ويطعن به في النزال.
(٦) أي قصده.

وإنما يوازن شعر البحتري بشعر شاعر من طبقته، ومن أهل عصره، ومَنْ هو في مضماره، أو في منزلته ... ومعرفة أجناس الكلام، والوقوف على أسراره، والوقوع على مقداره، شيء وإن كان عزيزاً، وأمر وان كان بعيداً، فهو سهل على أهله، مستجيب لأصحابه، مطيع لأربابه، ينقدون الحروف ويعرفون الصروف.

وإنما تبقى الشبهة في ترتيب الحال بين البحتري وأبي تمام وابن الرومي وغيره ... ونحن وان كنا نفضل البحتري بدبياجة شعره على ابن الرومي، وغيره من أهل زمانه، وتقدمه، بحسن عبارته، وسلاسة كلامه، وعذوبة ألفاظه، وقلة تعقد قوله ... والشعر قبيل ملتمس مستدرك، وأمر ممكن منطبع، ونظم القرآن عال عن أن يعلق به الوهم، أو يسمو اليه الفكر، أو يطمع فيه طامع، أو يطلبه طالب : ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[1].

وكنتُ قد ذكرت لك قبل هذا أنك ان كنت بصنعة علم اللسان متدربا، وفيه متوجها متقدما أمكنك الوقوف على ما ذكرنا، والنفوذ فيما وصفنا، وإلا فاجلس في مجلس المقلدين، وارض بمواقف المتحيرين. ونصحتُ لك حيث قلت : انظر هل تعرف عروق الذهب، ومحاسن الجوهر، وبدائع الياقوت، ودقاق السحر، من غير معرفة بأسباب هذه الأمور، ومقدماتها ؟ وهل يقطع سمت البلاد من غير اهتداء فيها ؟ ولكل شيء طريق يتوصَّل اليه به، وباب يؤخذ نحوه فيه، ووجه يؤتى منه، ومعرفة الكلام أشد من المعرفة بجميع ما وصفت لك. وأغمض وأدق وألطف، وتصوير ما في النفس، وتشكيل ما في القلب، حتى تعلمه وكأنك مشاهده . وإن كان قد يقع بالإشارة، ويحصل بالدلالة والإمارة، كما يحصل بالنطق الصريح، والقول الفصيح، فللإشارات أيضاً مراتب، وللسان منازل، ورُبَّ وصفٍ يصور لك

(١) آية ٤٢ سورة فصلت.

الموصوف كما هو على جهته لا خلف فيه، ورب وصف يربو عليه ويتعداه، ورب وصف يقصر عنه ...

ثم اذا صدق الوصف انقسم الى صحة واتقان، وحسن وإحسان، وإلى إجمال وشرح، والى استيفاء وتقريب، والى غير ذلك من الوجوه. وكل مذهب وطريق له باب وسبيل : فوصف الجملة الواقعة كقوله تعالى : ﴿ **لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعبا** ﴾[1]، والتفسير كقوله : ﴿ **ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً** ﴾[2] الى آخر الآيات في هذا المعنى، وكنحو قوله : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد** ﴾[3]، هذا مما يصور الشيء على جهته، ويمثل أهوال ذلك اليوم. ومما يصور لك الكلام الواقع في الصفة كقوله حكاية عن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حين آمنوا : ﴿ **قالوا لا ضير إنَّا الى ربنا منقلبون * إنَّا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين** ﴾[4]. وقال في موضع آخر : ﴿ **إنَّا الى ربنا منقلبون * وما تنقم منا الا ان آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين** ﴾[5]، وهذا ينبئ عن كلام الحزين لما ناله، الجازع لما مسه. ومن باب التسخير والتكوين قوله تعالى : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقوله كن فيكون** ﴾[6]، وقوله : ﴿ **فقلنا لهم كونوا قردة**

---

(١) آية ١٨ سورة الكهف.

(٢) آية ٤٧ سورة الكهف.

(٣) الآيتان ١ و ٢ سورة الحج.

(٤) الآيتان ٥١ و ٥٢ سورة الشعراء.

(٥) الآيتان ١٢٥ و ١٢٦ سورة الأعراف.

(٦) آية ٨٢ سورة يس.

خاسئين ﴾[1]، وكقوله : ﴿ **فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك الحجر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم** ﴾[2] ... وتقصّي أقسام ذلك مما يطول، ولم اقصد استيفاء ذلك، وانما ضربت لك المثل بما ذكرت، لتستدلَّ، وأشرت اليك بما اشرت لتتأمَّلَ.

* * *

وإنما اقتصرنا على ذكر قصيدة البحتري لأن الكتاب يفضلونه على أهل دهره، ويقدمونه على مَنْ في عصره، ومنهم مَنْ يدَّعي له الإعجاز غلواً. ويزعم أنه يناغي النجم في قوله علوا. والملحدة تستظهر بشعره، وتتكثر بقوله، وتدَّعي كلامه من شبهاتهم، وعباراته مضافا الى ما عندهم من ترهاتهم[3]، فبينا قدر درجته، وموضع رتبته، وحد كلامه، وهيهات أن يكون المطموع فيه كالمأيوس منه، وان يكون الليل كالنهار، والباطل كالحق، وكلام رب العالمين ككلام البشر.

* * *

فان قال قائل : فقد قدح الملحد في نظم القرآن، وادعى عليه الخلل في البيان، وأضاف اليه الخطأ في المعنى واللفظ، وقال ما قال، فهل من فصل ؟ قيل : الكلام على مطاعن الملحدة في القرآن مما قد سبقنا اليه، وصنف أهل الأدب في بعضه فكفوا، وأتى المتكلمون على ما وقع اليهم فشفوا، ولولا ذلك لاستقْصَيْنَا القول فيه في كتابنا. وأما الغرض الذي صنفنا فيه، في التفصيل والكشف عن اعجاز القرآن، فلم نجده على التقريب الذي قصدنا، وقد رجونا أن يكون ذلك مغنياً ووافياً. وان سهل الله لنا ما نويناه من إملاء « معاني القرآن[4] » ذكرنا في ذلك ما يشتبه من الجنس

---

(١) من آية ٦٥ سورة البقرة.

(٢) آية ٦٣ سورة الشعراء.

(٣) أي أباطيلهم.

(٤) اسم كتاب كان المؤلف على نية تأليفه وقت تأليف هذا الكتاب.

الذي ذكروه، لأن أكثر ما يقع من الطعن عليه، فإنما يقع على جهل القوم بالمعاني، أو بطريقة كلام العرب. وليس ذلك من مقصود كتابنا هذا، وقد قال النبي ﷺ : « فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » ... وقد قصدنا فيما أمليناه الاختصار، ومهدنا الطريق، فمن كمل طبعه للوقوف على فضل أجناس الكلام استدرك ما بيَّنا، ومن تعذر عليه الحكم بين شعر جرير والفرزدق والأخطل[1]، والحكم بين فضل زهير والنابغة[2]، أو الفصل بين البحتري وأصحابه، ولم يعرف سخف مسيلمة[3] في نظمه، ولم يعلم أنه من الباب الذي يهزأ به ويسخر منه، كشعر « أبي العيس » في جملة الشعر، وشعر « علي بن صلاة »، فكيف يمكنه النظر فيما وصفنا، والحكم على ما بيَّنا ؟

* * *

فإن قال قائل : فاذكُرْ لنا من هؤلاء الشعراء الذين سميتهم الأشعر والأبلغ، قيل له : هذا أيضاً خارج عن غرض هذا الكتاب، وقد تكلم فيه الأدباء. ويحتاج أن يجدد لنحو هذا كتاب، ويفرد له باب، وليس من قبيل ما نحن فيه بسبيل.

وليس لقائل أن يقول : قد يسلم بعض الكلام من العوارض والعيوب، ويبلغ أمده في الفصاحة والنظم العجيب، ولا يبلغ عندكم حد المعجز، فلم قضيتم بما قضيتم به في القرآن دون غيره من الكلام ؟ وإنما لم يصح هذا السؤال، وما تذكر فيه، من أشعار في نهاية الحسن، وخطب ورسائل في غاية الفضل. لأنا قد بينا أن هذه الأجناس قد وقع النزاع فيها، والمساماة عليها، والتنافس في طرقها، والتنافر في بابها، وكان البون بين البعض والبعض

(١) زعماء الشعر في عصر بني أمية. توفي الأخطل عام ٩٥ وتوفي الآخران عام ١١٠ هـ.
(٢) من فحول الشعراء الجاهليين المشهورين.
(٣) مدع للنبوة في عصر الرسول وأبي بكر.

في الطبقة الواحدة قريباً، والتفاوت خفيفاً، وذلك القدر من السبق إن ذهب عن الواحد لم ييأس منه الباقون، ولم ينقطع الطمع في مثله، وليس كذلك سمت القرآن لأنه قد عرف أن الوهم ينقطع دون مجاراته، والطمع يرتفع عن مباراته ومساماته، وأن الكل في العجز عنه على حد واحد ..

وكذلك قد يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمت الذي لا يؤخذ فيه، والباب الذي لا يذهب عنه. وأنت تجد قوماً يرون كلامه قريباً، ومنهاجه معيباً، ونطاق قوله ضيِّقاً، حتى يستعين بكلام غيره، ويفزع الى ما يوشح به كلامه، من بيت سائر ومتصل نادر، وحكمة ممهدة منقولة، وقصة عجيبة مأثورة ... وأما كلامه في أثناء ذلك فسطور قليلة وألفاظه يسيرة، فإذا أحوج الى تطويل الكلام خالياً عن شيء يستعين به، فيخلط بقوله من قول غيره، كان كلاماً ككلام غيره[1]. فإن أردت أن تحقق هذا فانظر في كتبه في « نظم القرآن » وفي الرد على النصارى، وفي خبر الواحد، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى، هل تجد في ذلك كله ورقة تشتمل على نظم بديع، أو كلام مليح ؟

على أن متأخري الكتّاب قد نازعوه في طريقته وجاذبوه على منهجه، فمنهم من ساواه حين ساماه، ومنهم من أبر عليه اذا باراه، هذا أبو الفضل ابن العميد قد سلك مسلكه، وأخذ طريقه، فلم يقصر عنه، ولعله قد بان تقدمه عليه، لأنه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه، ويكملها على شروط صنعته، ولا يقتصر على أن يأتي بالأسطر من نحو كلامه، كما ترى الجاحظ يفعله في كتبه، متى ذكر من كلامه سطراً أتبعه من كلام الناس أوراقاً، واذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتاباً ... وهذا يدلك على أن الشيء اذا استحسن اتبع، واذا استملح قصد له وتعمد. وهذا الشيء يرجع الى الأخذ بالفضل والتنافس في التقدم. فلو

(١) هذا هو رأي لبديع الزمان الهمذاني فيه في المقامة الجاحظية إحدى مقاماته.

كان في مقدور البشر معارضة القرآن لهذا الغرض وحده، لكثرت المعارضات، ودامت المنافسات، فكيف وهناك دواعٍ لا انتهاء لها، وجوالب لا حدَّ لكثرتها ؟ لأنهم لو كانوا عارضوه لتوصلوا الى تكذيبه، ثم الى قطع المحامين دونه عنه، أو تنفيرهم عليه، وإدخال الشبهات على قلوبهم، وكان القوم يكتفون بذلك عن بذل النفوس، ونصب الأرواح، والأخطار بالأموال والذراري، في وجه عداوته، ويستغنون بكلام هو طبعهم وعادتهم وصناعتهم عن محاربته، وطول منافسته ومجاذبته.

وهذا الذي عرضناه على قلبك، يكفي إن هديت لرشدك، ويشفي ان دللت على قصدك ... ونسأل الله حسن التوفيق والعصمة والتسديد، إنه لا معرفة الا بهدايته، ولا عصمة الا بكفايته، وهو على ما يشاء قدير، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فصل

فإن قال قائل : قد يجوز أن يكون أهل عصر النبي ﷺ قد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن وان كان من بعدهم من أهل الاعصار لم يعجزوا.

قيل : هذا سؤال معروف، وقد أجيب عنه بوجوه : منها ما هو صواب ومنها ما فيه خلل، لأن مَنْ كان يجيب عنه بأنهم لا يقدرون على معارضته في الأخبار عن الغيوب ان قدروا على مثل نظمه فقد سلم المسألة، لأنّا ذكرنا أن نظمه معجز لا يقدر عليه فاذا أجاب بما قدمناه فقد وافق السائل على مراده.

والوجه أن يقال فيه طرق :

منها : أنّا اذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الإتيان بمثله، فمن بعدهم أعجز، لأن فصاحة أولئك في وجوه ما كانوا يتفننون فيه من القول، مما لا يزيد عليه فصاحة من بعدهم، وأحسن أحوالهم يقاربوهم، أو يساووهم فأما أن يتقدموهم أو يسبقوهم فلا.

ومنها : أنّا قد علمنا عجز سائر أهل الاعصار كعلمنا بعجز أهل العصر الأول والطريق في العلم بكل واحد من الأمرين طريق واحد، لأن التحدي في الكل على جهة واحدة، والتنافر في الطباع على حد، والتكلف على منهاج لا يختلف، ولذلك قال الله تبارك وتعالى ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾[1].

---

(١) آية ٨٨ سورة الإسراء.

فصل

في التحدي

يجب أن تعلم أن من حكم المعجزات اذا ظهرت على الأنبياء أن يدعوا فيها أنها من دلالتهم وآيتهم، لأنه لا يصحُّ بعثة النبي من غير أن يؤتى دلالة ويؤيد بآية، لأن النبي لا يتميز من الكاذب بصورته ولا بقول نفسه، ولا بشيء آخر سوى البرهان الذي يظهر عليه، فيستدل به على صدقه .. فاذا ذكر لهم أن هذه آيتي، وكانوا عاجزين عنها، صحَّ له ما ادعاه، ولو كانوا غير عاجزين عنها لم يصح أن يكون برهاناً له، وليس يكون ذلك معجزاً إلّا الى أن يأتوا بمثله؛ فاذا تحدَّاهم وبَانَ عجزهم صار ذلك معجزاً.

وإنما احتيج في باب القرآن الى التحدي، لأن من الناس مَنْ لا يعرف كونه معجزاً، فإنما يعرف أولا إعجازه بطريقه، لأن الكلام المعجز لا يتميز من غيره بحروفه وصورته، وإنما يحتاج الى علم وطريق يتوصل به الى معرفة كونه معجزاً فإن كان لا يعرف بعضهم إعجازه فيجب أن يعرف هذا، حتى يمكنه أن يستدل به، ومتى رأى أهل ذلك اللسان قد عجزوا عنه بأجمعهم مع التحدي اليه، والتقريع به، والتمكين منه، صار حينئذ بمنزلة مَنْ رأى اليد البيضاء وانقلاب العصي ثعباناً تتلقف ما يأفكون.

وأما مَنْ كان من أهل صنعة العربية، والتقدم في البلاغة ومعرفة فنون القول ووجوه المنطق، فإنه يعرف حين يسمعه عجزه عن الإتيان بمثله، ويعرف

أيضاً أهل عصره ممن هو في طبقته، أو يدانيه في صناعته، عجزهم عنه، فلا يحتاج الى التحدي حتى يعلم به كونه معجزاً، ولو كان أهل الصنعة الذي صفتهم ما بيَّنا لا يعرفون كونه معجزاً حتى يعرفوا عجز غيرهم عنه، لم يَجُزْ أن يعرف النبي ﷺ أن القرآن معجز حتى يرى عجز قريش عنه بعد التحدي اليه، واذا عرف عجز قريش لم يعرف عَجْزَ سائر العرب عنه حتى ينتهي الى التحدي الى أقصاهم، وحتى يعرف عجز مسيلمة الكذاب عنه، ثم يعرف حينئذ كونه معجزاً.

وهذا القول ــ إن قيل ــ أفحش ما يكون من الخطأ، فيجب أن تكون منزلة أهل الصنعة، في معرفة إعجاز القرآن بأنفسهم، منزلة مَنْ [إذا] رأى اليد البيضاء، وفلق البحر [عرف] بأن ذلك معجز .. وأما مَنْ لم يكن من أهل الصنعة، فلا بدَّ له من مرتبة قبل هذه المرتبة، يعرف بها كونه معجزاً، فيساوي حينئذ أهل الصنعة، فيكون استدلالهما في تلك الحالة به على صدق من ظهر ذلك عليه، على سواه إذا ادعاه، دلالة على نبوته وبرهانا على صدقه، فأما مَنْ قدر أن القرآن لا يصير معجزاً إلا بالتحدي اليه، فهو كتقدير مَنْ ظن أن جميع آيات موسى وعيسى عليهما السلام ليست بآيات، حتى يقع التحدي اليها، والحض عليها، ثم يقع العجز عنها، فيعلم حينئذ أنها معجزات، وقد سلف من كلامنا في هذا المعنى ما يغني عن الإعادة.

ويبين ما ذكرناه في غير البليغ، أن الأعجمي الآن لا يعرف إعجاز القرآن إلا بأمور زائدة على الأعجمي الذي كان في ذلك الزمان مشاهداً له، لأن مَنْ هو من أهل العصر يحتاج أن يعرف أولا أن العرب عجزوا عنه، وإنما يعلم عجزهم عنه بنقل الناقلة اليه أن النبي ﷺ قد تحدى العرب اليه فعجزوا عنه، ويحتاج في النقل إلى شروط، وليس يصير القرآن بهذا النقل معجزاً، كذلك لا يصير معجزاً بأن يعلم العربي الذي ليس ببليغ أنهم قد عجزوا عنه بأبلغهم، بل هو معجز في نفسه، وإنما طريق معرفة هذا وقوفهم على العلم بعجزهم عنه.

فصل

في قدر المعجز من القرآن

الذي ذهب اليه عامة أصحابنا، وهو قول أبي الحسن الأشعري[1] في كتبه، أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة : قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان بقدرها ... قال : فإذا كانت الآية بقدر حروف السورة، وان كانت سورة الكوثر، فذلك معجز، قال : ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة في أقل من هذا القدر.

وذهب المعتزلة إلى أن كل سورة برأسها فهي معجزة .. وقد حكى عنهم نحو قولنا، إلا أن منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة، بل شرط الآيات الكثيرة، وقد علمنا أنه تحداهم تحدياً الى السور كلها ولم يخص، ولم يأتوا لشيء منها بمثل، فعلم أن جميع ذلك معجز. وأما قوله عز وجل : ﴿ **فليأتوا بحديث مثله** ﴾[2]، فليس بمخالف لهذا، لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة، وهذا يؤكد ما ذهب اليه أصحابنا ويؤيده، وان كان قد يتأول قوله : « فليأتوا بحديث مثله » على أن يكون راجعاً الى القبيل دون التفصيل، وكذلك يحمل قوله

---

(١) شيخ من شيوخ علم الكلام المشهورين (٢٧٠ — ٣٣٠ هـ).

(٢) آية ٣٤ سورة الطور.

تعالى : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله** ﴾[1] على القبيل، لأنه لم يجعل الحجة عليهم عجزهم عن الإتيان بجميعه من أوله الى آخره.

فان قيل : هل تعرفون إعجاز السور القصار بما تعرفون به إعجاز السور الطوال ؟ وهل تعرفون إعجاز كل قدر من القرآن بلغ الحد الذي قدرتموه بمثل ما تعرفون به إعجاز سورة البقرة ونحوها ؟

فالجواب أن أبا الحسن الأشعري رحمه الله أجاب عن ذلك بأن كل سورة قد علم كونها معجزة بعجز العرب عنها ... وسمعت بعض الكبراء من أهل هذا الشأن يقول : ان ذلك يصحُّ أن يكون علم ذلك توقيفاً.

والطريقة الأولى[2] أسدُّ، وليس هذا الذي ذكرناه أخيراً بمناف له، لأنه لا يمتنع أن يعلم إعجازه بطرق مختلفة، تتوافى عليه، وتجتمع فيه.

* * *

واعلم أن تحت اختلاف هذه الأجوبة ضرباً من الفائدة، لأن الطريقة الأولى تبين أن ما علم به كون جميع القرآن معجزاً موجود في كل سورة صغرت أو كبرت، فيجب أن يكون الحكم في الكل واحداً. والطريقة الأخيرة تتضمن تعذر معرفة إعجاز القرآن بالطريقة التي سلكناها، في بناء من التفصيل الذي بيَّنا، فيما تعرف به في الكلام الفصاحة، وتتبين فيه البلاغة، حتى يعلم ذلك بوجه آخر، فيستوي في هذا القدر البليغ وغيره في أن لا يعلمه معجزاً حتى يستدل به من وجهٍ آخرَ سوى ما يعلمه البلغاء، من التقدُّم في الصنعة، وهذا غير ممتنع، ألا ترى أن الإعجاز في بعض السور والآيات أظهر، وفي بعضها أغمض، وقد لا يحتاج في النظر في حال

(١) آية ٨٨ سورة الإسراء.

(٢) وهي أن كل القرآن معجز فالإعجاز موجود في كل سورة صغرت أم كبرت.

بعضها الى تأمُّلٍ كثير، ولا بحثٍ شديد، حتى يتبيَّن له الإعجاز، ويفتقر في بعضها الى نظر دقيق، وبحث لطيف، حتى يقعَ على الجليَّة، ويصل الى المطلب، ولا يمتنع أن يذهب عليه الوجه في بعض السور، فيحتاج أن يفرع فيه إلى إجماع أو توقيف، أو ما علمه من عجز العرب قاطبة عنه.

فإن ادعى ملحدٌ، أو زعم زنديق، أنه لا يقع العجز عن الإتيان بمثل السور القصار، أو الآياتِ بهذا المقدار، قلنا له : إن الإعجاز قد حصل بما بيَّناه، وعرف بما وقفنا عليه، من عجز العرب عنه. ثم فيه شيء آخر، وهو أن هذا سؤال لا يستقيم للملحد، لأنه يزعم أنه ليس في القرآن كله اعجاز، فكيف يجوز أن يناظره على تفصيله، واذا ثبت لنا معه إعجازه في السور الطوال قامت الحجة عليه، وثبتت المعجزة، ولا معنى لطلبه لكثرة الأدلة والمعجزات .. ونحن نعلم أن إعجاز البعض بما بيَّناه، والبعض الآخر بأنه إذا ثبت الأصل لم يبق بعد ذلك إلَّا قولنا، لأنَّا عرفنا في البعض الإعجاز بما بينا ثم عرفنا في الباقي بالتوقيف ونحو ذلك، وليس بممتنع اختلاف حال الكلام، حتى يكون الإعجاز على بعضه أظهر، وفي بعضه أغمض. ومَنْ آمن ببعض دون بعض كان مذموماً، على ما قال الله تعالى : ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** ﴾[1]، وقال : ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾[2]، فظاهره عند بعض أهل التأويل كالدليل على أن الشفاء ببعضه أوقع، وان كنا نقول إنه يدل على أن الشفاء في جميعه.

* * *

واعلم أن الكلام يقع فيه الأبلغ والبليغ، ولذلك كانوا يسمون الكلمة « يتيمة »، ويسمون البيت الواحد « يتيماً ». سمعت إسماعيل بن عبادة

---

(١) آية ٨٥ سورة البقرة.

(٢) آية ٨٢ سورة الإسراء.

يقول سمعت أبا بكر بن مقسم يقول سمعت ثعلبا[1] يقول سمعت الفراء[2] يقول : العرب تسمى البيت الواحد يتيما، وكذلك يقال الدرة اليتيمة، لانفرادها، فاذا بلغ البيتين والثلاثة فهي نتفة، والى العشرة تسمى قطعة، واذا بلغ العشرين استحق أن يسمى قصيداً، وذلك مأخوذ من المخ القصيد، وهو المتراكم بعضه على بعض، وهو ضد الرأد ومثله الرئيد. انتهت الحكاية، ثم استشهد بقول لبيد :

فتذاكرا ثقلا رئيـــداً بعــــد ما   القت ذكـاء يمينهـا في كافـر[3]

يريد بيض النعام، لأنه ينضد بعضه على بعض :

وكذلك يقع في الكلام البيت الوحشي والنادر، والمثل السائر، والمعنى الغريب، والشيء الذي لو اجتهد له لم يقع عليه، فيتفق له ويصادفه، قال لي بعض علماء هذه الصنعة وجاريته في ذلك : إن هذا مما لا سبب له يخصه، وإنما سببه القرارة في أصل الصنعة، والتقدم في عيون المعرفة، فاذا وجد ذلك وقع له من الباب ما يطرد عن حساب، وما يشذ عن تفصيل الحساب، فأما ما قلنا من أن ما بلغ قدر السورة معجز، فان ذلك صحيح.

---

(١) من أئمة النحو واللغة والأدب توفي عام ٢٩١ هـ.

(٢) إمام من أئمة النحو توفي عام ٢٤٧ هـ.

(٣) ذكاء : الشمس. الكافر : الليل أو ظلام الليل. تذاكرا : أي الظلام والنعامة الرئيد أي بيضهما المنضود من رئد المناع : نضده فهو رئيد وينسب البيت لثعلبة بن صعير المازني كما في المفضليات والشعر والشعراء (ص ٩٤).

فصل

في أنه هل يعلم إعجاز القرآن ضرورة ؟

ذهب أبو الحسن الأشعري الى أن ظهور ذلك على النبي ﷺ يعلم ضرورة، وكونه معجزاً يعلم باستدلال، وهذا المذهب محكيٌّ عن المخالفين.

والذي نقوله في هذا إن الأعجمي لا يمكنه أن يعلم إعجازه إلا استدلالاً، وكذلك مَنْ لم يكن بليغاً ... فأما البليغ الذي قد أحاط بمذاهب العربية، وغرائب الصنعة، فإنه يعلم من نفسه ضرورة عَجْزه عن الإتيان بمثله، ويعلم عجز غيره بمثل ما يعرف عجز نفسه، كما أنه اذا علم الواحد منا أنه لا يقدر على ذلك فهو يعلم عَجْزَ غيره استدلالاً.

فصل

فيما يتعلق به الاعجاز

إن قال قائل : بيِّنوا لنا ما الذي وقع التحدي اليه، أهو الحروف المنظومة، أو الكلام القائم بالذات، أو غير ذلك ؟

قيل : الذي تحداهم به أن يأتوا بمثل الحروف التي هي نظم القرآن، منظومة كنظمها، متتابعة، مطردة كاطرادها، ولم يتحدهم الى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذي لا مثل له، وان كان كذلك فالتحدي واقع الى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة، التي هي عبارة عن كلام الله تعالى في نظمها وتأليفها، وهي حكاية لكلامه، ودلالات عليه، وأمارات له، على أن يكونوا مستأنفين لذلك، لا حاكين بما أتى به النبي ﷺ ... ولا يجب أن يقدر مقدر، أو يظنَّ ظانٌّ، أنَّا حين قلنا : إن القرآن معجز فإنه تحداهم الى أن يأتوا بمثله أردنا غير ما فسرناه من العبارات عن الكلام القديم القائم بالذات. وقد بينا قبل هذا أنه لم يكن ذلك معجزاً لكونه عبارة عن الكلام القديم، لأن التوراة والإنجيل عبارة عن الكلام القديم. وليس ذلك بمعجز في النظم والتأليف، وكذلك ما دون الآية ــ كاللفظة ــ عبارة عن كلامه، وليست بمنفردها بمعجزة.

وقد جوز بعض أصحابنا أن يتحداهم الى مثل كلامه القديم القائم

بنفسه، والذي عول عليه مشايخنا ما قدمنا ذكره، وعلى ذلك اكثر مذاهب الناس ... ولم يجب أن نفسر ونذكر موجب هذا المذهب الذي حكيناه، وما يتصل به، لأنه خارج عن غرض كتابنا، لأن الإعجاز وقع في نظم الحروف، التي هي دلالات وعبارات عن كلامه، والى مثل هذا النظم وقع التحدي، فبيَّنا وجه ذلك، وكيفية ما يتصور القول فيه، وأزلنا توهُّمَ مَنْ يتوهَّمُ أن الكلام القديم حروف منظومة، أو حروف غير منظومة، أو شيء مؤلف، أو غير ذلك، مما يصحُّ أن يُتَوَهَّمَ، على ما سبق من إطلاق القول فيما مضى.

* * *

فصل

في وصف وجوه من البلاغة

ذكر بعض أهل الأدب والكلام أن البلاغة على عشرة أقسام : الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان.

* * *

فأما الإيجاز : فإنما يحسن مع ترك الإخلال باللفظ والمعنى، فيأتي باللفظ القليل الشامل لأمور كثيرة، وذلك ينقسم الى حَذْفٍ وقَصْرٍ :

فالحذف الإسقاط : للتخفيف، كقوله : ﴿ **وأسأل القرية** ﴾[1]، وقوله : ﴿ **طاعة وقول معروف** ﴾[2]. وحذف الجواب كقوله : ﴿ **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى** ﴾[3]، كأنه قيل لكان هذا القرآن. والحذف أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب كلَّ مذهبٍ في القصد من الجواب.

---

(١) آية ٨٢ سورة يوسف.

(٢) آية ٢١ سورة محمد.

(٣) آية ٣١ سورة الرعد.

والايجاز **بالقَصْرِ** كقوله : ﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾[1]، وقوله : ﴿ **يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو** ﴾[2]، وقوله : ﴿ **إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾[3]، ﴿ **ولا يحيق المكر السيِّئ إلا بأهله** ﴾[4] ... وإطناب فيه بلاغة، فأما التطويل ففيه عيٌّ ..

وأما التشبيه بالعقد على أن أحد الشيئين يسدُّ مسدَّ الآخر في حسٍّ أو عقل، كقوله : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً** ﴾[5]، وقوله: ﴿**مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف** ﴾[6]، وقوله : ﴿ **وإذ نَتَقْنا الجبل فوقهم كأنه ظلة** ﴾[7]، وقوله : ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وَازَّيَّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس** ﴾[8]، وقوله : ﴿ **إنَّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل مُنْقَعِر** ﴾[9]، وقوله : ﴿ **فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان** ﴾[10] وقوله : ﴿ **(اعلموا) أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب**

---

(١) آية ١٧٩ سورة البقرة.
(٢) من آية ٤ سورة المنافقون.
(٣) من آية ٢٣ سورة يونس.
(٤) من آية ٤٣ سورة فاطر.
(٥) آية ٣٩ سورة النور.
(٦) من آية ١٨ سورة ابراهيم.
(٧) آية ١٧١ سورة الأعراف.
(٨) آية ٢٤ سورة يونس.
(٩) الآيتان ١٩ و ٢٠ سورة القمر.
(١٠) آية ٣٧ سورة الرحمن.

الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً ﴾ [1]، وقوله : ﴿ وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ [2]، وقوله : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث ﴾ [4]، وقوله : ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ [5]، وقوله : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت ﴾ [6]، وقوله : ﴿ وله الجوار المنشآت في البحر كالاعلام ﴾ [7]، وقوله : ﴿ خلق الانسان من صلصال كالفخار ﴾ [8] .. ونحو ذلك.

* * *

ومن ذلك باب الاستعارة : وهو بيان التشبيه، كقوله تعالى : ﴿ وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ [9]، وكقوله : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ [10]، وكقوله : ﴿ إنّا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ﴾ [11]، وقوله : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾ [12]،

---

(١) من آية ٢٠ سورة الحديد.
(٢) آية ٢١ سورة الحديد.
(٣) آية ٥ سورة الجمعة.
(٤) آية ١٧٦ سورة الأعراف.
(٥) آية ٧ سورة الحاقة.
(٦) آية ٤١ سورة العنكبوت.
(٧) آية ٢٤ سورة الرحمن.
(٨) آية ١٤ سورة الرحمن.
(٩) آية ٢٣ سورة الفرقان.
(١٠) آية ٩٤ سورة الحجر.
(١١) آية ١١ سورة الحاقة.
(١٢) من آية ١٥٤ سورة الأعراف.

وكقوله : ﴿ **فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة** ﴾ [1]، وقوله : ﴿ **بل تقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق** ﴾ [2]، فالدمغ والقذف مستعار. وقوله : ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار** ﴾ [3]. وقوله : ﴿ **وتودُّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم** ﴾ [4]، وقوله : ﴿ **فذو دعاء عريض** ﴾ [5]، وقوله : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾[6]، وقوله : ﴿ **والصبح اذا تنفس** ﴾[7]، وقوله : ﴿ **مستهم البأساء والضراء** ﴾[8]، وقوله : ﴿ **فنبذوه وراء ظهورهم** ﴾[9]، وقوله : ﴿ **أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلنا حصيدا** ﴾[10]، وقوله : ﴿ **حصيدا**[11] **خامدين** ﴾؛ وقوله : ﴿ **ألم تر أنهم في كل واد يهيمون** ﴾[12]، وقوله : ﴿ **وداعياً الى الله بإذنه وسراجا منيرا** ﴾[13]، وقوله : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك** ﴾[14]، وقوله : ﴿ **ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر** ﴾[15]، وقوله : ﴿ **فضربنا على آذانهم** ﴾[16]، يريد ان لا إحساس بآذانهم من غير صمم.

---

(١) آية ١١ سورة الإسراء.
(٢) آية ١٨ سورة الأنبياء.
(٣) آية ٢٧ سورة يس.
(٤) آية ٧ سورة الأنفال.
(٥) قبل هذا : ﴿ وإذا مسّه الشر ﴾ ــ من آية ٥١ سورة فصلت.
(٦) آية ٤ سورة محمد.
(٧) آية ١٨ سورة التكوير.
(٨) آية ٢١٤ سورة البقرة.
(٩) آية ١٨٧ سورة آل عمران.
(١٠) آية ٢٤ سورة يونس.
(١١) آية ١٥ سورة الأنبياء.
(١٢) آية ٢٢٥ سورة الشعراء.
(١٣) آية ٤٦ سورة الأحزاب.
(١٤) آية ٢٩ سورة الإسراء.
(١٥) آية ٢١ سورة السجدة.
(١٦) آية ١١ سورة الكهف.

وقوله : ﴿ **ولما سقط في ايديهم** ﴾ [1]، وهذا أوقع من اللفظ الظاهر، وأبلغ من الكلام الموضوع.

* * *

وأما التلاؤم : فهو تعديل الحروف في التأليف. وهو نقيض التنافر، كقول الشاعر :

وقبـــر حربٍ بمكـــان قفـــرٍ   وليس قرب قبرِ حربٍ قبرُ [2]

قالوا : هو من شعر الجن، حروفه متنافرة، لا يمكن إنشاده الا بتتعتع فيه. والتلاؤم على ضربين : أحدهما في الطبقة الوسطى كقوله :

رمتنـي وستـر الله بينـي وبينهـــا   عشيـة آرام الكنـاس « رميـمُ » [3]
رميم التي قالت لجـاراتِ بيتهـا   ضمنت لكم أن لا يزال يهيـمُ
ألا ربَّ يومٍ لو رمتنـي رميتهـا   ولكـنَّ عهـدي بالـنضال قديـمُ

قالوا والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله، وإن كان بعض الناس أحسن احساسا من بعض، كما أن بعضهم يفطن للموزون بخلاف بعض.

والتلاؤم : حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، ووقع المعنى في القلب، وذلك كالخط الحسن، والبيان الشافي .. والمتنافر كالخط القبيح، فاذا انضاف الى التلاؤم حسن البيان، وصحة البرهان، في أعلى الطبقات، ظهر الإعجاز لمن كان جيِّد الطبع، وبصيراً بجودة الكلام، كما يظهر له أعلى طبقة الشعر .. والمتنافر ذهب الخليل الى أنه من بُعْدٍ شديد، أو

---

(١) آية ١٤٩ سورة الأعراف.

(٢) رواه الجاحظ في البيان والتبيين (٧٤ جـ ١).

(٣) آرام جمع رئم وهو الظبي والكناس مأوى الظبي في الشجر. ورميم : اسم محبوبته ويروى : « ونحن بأكناف الحجاز رميم » والأبيات لأبي حية النميري الشاعر الأموي المشهور — وهي في الحماسة.

قُرْبٍ شديد، فاذا بعد فهو كالطفرة[1]، واذا قَرُبَ جداً كان بمنزلة مشي المقيد، ويبيِّن ذلك بقرب مخارج الحروف وتباعدها.

* * *

وأما الفواصل : **فهي** حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني. وفيها بلاغة. والأسجاع عيب، لأن السجع يتبع المعنى، والفواصل تابعة للمعاني .. والسجع كقول مسيلمة .. ثم الفواصل قد تقع على حروف متجانسة كما قد تقع على حروف متقاربة، ولا تحتمل القوافي ما تحتمل الفواصل، لأنها ليست في الطبقة العليا في البلاغة، لأن الكلام يحسن فيها بمجانسة القوافي، وإقامة الوزن، وأما التجانس فإنه بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصلٌ واحد، وهو على وجهين : **مزاوجة ومناسبة**.

فالمزاوجة كقوله تعالى : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾[2]، وقوله : ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾[3]، وكقول عمرو بن كلثوم[4] :

ألا لا يجهلـن أحـــد علينـــا فنجهـل فوق جهـل الجاهلينـــا

وأما **المناسبة** فهي كقوله تعالى : ﴿ **ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم** ﴾[5]، وقوله : ﴿ **يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾[6].

* * *

---

(١) في المطبوعتين : كالظفر.

(٢) آية ١٤٩ سورة البقرة.

(٣) آية ٥٤ سورة آل عمران.

(٤) شاعر جاهلي مشهور والبيت من معلقته المشهورة : ألا هبِّي بصحنك.

(٥) آية ١٢٧ سورة البقرة.

(٦) آية ٣٧ سورة النور.

أما التصريف : فهو تصريف الكلام في المعاني، كتصريفه في الدلالات المختلفة : كتصريف الملك في معاني الصفات، فصرف في معنى مالك وملك وذي الملكوت والمليك وفي معنى التمليك والتملك والأملاك .. وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة، كما كرَّر من قصة موسى في مواضع.

* * *

وأما التضمين : فهو حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم أو صفة هي عبارة عنه، وذلك على وجهين : **تضمين توجبه** البنية كقولنا : معلوم يوجب أنه لا بد من عالم. **وتضمين يوجبه معنى العبارة**، من حيث لا يصحُ إلَّا بهِ ، كالصفة بضارب يدل على مضروب .. والتضمين كله إيجاز، والتضمين الذي تدل عليه دلالات القياس أيضا إيجاز، وذكر أن « بسم الله الرحمن الرحيم » من باب التضمين، لأنه تضمن تعليم الاستفتاح في الامور باسمه، على جهة التعظيم لله تبارك وتعالى، أو التبرك باسمه.

* * *

وأما **المبالغة** : فهي الدلالة على كثرة المعنى، وذلك على وجوه : منها مبالغة في الصفة المبينة لذلك، كقولك رحمن، عدل عن ذلك للمبالغة، وكقوله غفَّار، وكذلك فعَّال وفعول كقوله شكُور وغفُور، وفعيل كقوله رحيم وقدير، ومن ذلك أن يبالغ باللفظة التي هي صفة عامة، كقوله : ﴿ **خالق كل شيء** ﴾[1]، وكقوله : ﴿ **فأتى الله بنيانهم من القواعد** ﴾[2]، وكقوله : ﴿ **ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط** ﴾[3]، وكقوله :

---

(١) من آية ٦٢ سورة الزمر.

(٢) آية ٢٦ سورة النحل.

(٣) آية ٤٠ سورة الأعراف.

﴿ **وإنّا أو إياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين** ﴾[1]. وقد يدخل فيه الحذف الذي تقدم ذكره للمبالغة.

* * *

وأما **حسن البيان** فالبيان على أربعة أقسام : **كلام، وحال، وإشارة، وعلامة**. ويقع التفاضل في البيان، ولذلك قال عز من قائل : ﴿ **الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان** ﴾[2]، وقيل : أَعْيَا من باقل، سئل عن ظبية في يده بكم اشتراها ؟ فأراد أن يقول بأحد عشر، فأشار بيديه مادّاً أصابعه العشرة ثم أدلع لسانه، وأفلت الظبي من يده ... ثم البيان على مراتب.

* * *

قلنا : قد كنا حكينا أن من الناس مَنْ يريد أن يأخذ اعجاز القرآن من وجوه البلاغة، التي ذكرنا أنها تسمَّى البديع في أول الكتاب مما مضت أمثلته في الشعر .. ومن الناس مَنْ زعم أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه التي عددناها في هذا الفصل.

واعلم أن الذي بيناه قبل هذا، وذهبنا اليه، هو سديد، وهو أن هذه الأمور تنقسم، فمنها : ما يمكن الوقوع عليه، والتعمُّل له، ويدرك بالتعلُّم، فما كان كذلك فلا سبيل الى معرفة إعجاز القرآن به، وأما ما لا سبيل اليه بالتعلم والتعمُّل من البلاغات، فذلك هو الذي يدل على إعجازه، ونحن نضرب لذلك أمثلة، لتقف على ما ذهبنا إليه، وذكرنا في هذا الفصل عن هذا القائل أن التشبيه تعرف به البلاغة، وذلك مسلم، ولكن إن قلنا : ما وقع من التشبيه في القرآن معجز، عرض علينا من التشبيهات الجارية في

---

(١) آية ٢٤ سورة سبأ.

(٢) الآيات ١ ــ ٤ سورة الرحمن.

الأشعار ما لا يخفَى عليك. وأنت تجد في شعر ابن المعتز[1] من التشبيه البديع الذي يشبه السحر، وقد تتبع في هذا ما لم يتتبع غيره، واتفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء.

وكذلك كثير من وجوه البلاغة، قد بيَّنا أن تعلّمها يمكن، وليس تقع البلاغة بوجهٍ واحد منها دون غيره. فإن كان إنما يعني هذا القائل أنه اذا أتى في كل معنى يتفق في كلامه بالطبقة العالية، ثم كان ما يصل به كلامه بعضه ببعض وينتهي منه إلى متصرِّفاته على أتمِّ البلاغة، وأبدع البراعة، فهذا مما لا نأباه، بل نقول به. وإنما ننكر أن يقول قائل : إن بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الإعجاز، من غير أن يقارنه ما يتصل به الكلام، ويفضي اليه، مثل ما يقول : إن ما أقسم به وحده بنفسه معجز، وإن التشبيه معجز، وإن التجنيس معجز، والمطابقة بنفسها معجزة. فأما الآية التي فيها ذكر التشبيه : فإن ادّعى إعجازها لألفاظها ونظمها وتأليفها فاني لا أدفع ذلك، وأصححه، ولكن لا أدَّعي إعجازها لموضع التشبيه، وصاحب المقالة التي حكيناها أضاف ذلك الى موضع التشبيه، وما قرن به من الوجوه، ومن تلك الوجوه ما قد بيَّنا أن الإعجاز يتعلق به كالبيان، وذلك لا يختص بجنس من المبين دون جنس، ولذلك قال : ﴿ **هذا بيان للناس** ﴾[2]، وقال : ﴿ **تبياناً لكل شيء** ﴾[3]، وقال : ﴿ **بلسانٍ عربي مبين** ﴾[4]. فكرر في مواضع ذكره أنه مبين.

فالقرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه، من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول، وتصوُّره تصوُّر

---

(١) شاعر عباسي مشهور من بيت الخلافة (٢٤٧ — ٢٩٦ هـ).

(٢) آية ١٢٨ سورة آل عمران.

(٣) آية ٨٩ سورة النحل.

(٤) آية ١٩٥ سورة الشعراء.

المشاهد، وتشكله على جهته، حتى يحل محل البرهان، ودلالة التأليف مما لا ينحصر حسناً وبهجة وسناء ورفعة ... واذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب، والتمكُّن في النفوس، ما يذهب ويبهج، ويقلق ويؤنس، ويطمع ويؤيس، ويُضحك ويُبكي، ويُحزن ويفرح، ويسكن ويزعج، ويُشجي ويُطرب، ويهز الأعطاف، ويستميل نحوه الأسماع، ويورث الأريحية والعزة، وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجوداً، ويرمي السامع من وراء رأيه مرمًى بعيداً، وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل الى القلوب دقيقة، وبحسب ما يترتب في نظمه، ويتنزَّل في موقعه، ويجري على سمت مطلعه ومقطعه، يكون عجيب تأثيراته، وبديع مقتضياته، وكذلك على حسب مصادره، يتصور وجوه موارده.

وقد ينبئ الكلام عن محل صاحبه، ويدل على مكان متكلمه، وينبه على عظيم شأن أهله، وعلى علو محله .. ألا ترى أن الشعر في الغزل إذا صدر عن محب كان أرقَّ وأحسن. وإذا صدر عن متغزِّل، وحصل من متصنِّعٍ، نادى على نفسه بالمداجاة، وأخبر عن خيبته في المراءاة. وكذلك قد يصدر الشعر في وصف الحرب عن الشجاع، فيعلم وجه صدوره، ويدل على كنهه وحقيقته. وقد يصدر عن المتشبه، ويخرج عن المتصنع، فيعرف من حاله ما ظن أنه يخفيه، ويظهر من أمره خلاف ما يبديه، وأنت تجد لقول المتنبي :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني   والحرب والطعن والقرطاس والقلم

من الواقع في القلب ــ لما تعلم أنه من اهل الشجاعة ــ ما لا تجده للبحتري في قوله :

وأنا الشجاع وقد بدا لك موقفي   بعقرقس[1] والمشرفية شهدي

---

(١) اسم موضع ــ المشرفية : سيوف منسوبة الى مشارف وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف.

وتجد لابن المعتز في موقع شعره من القلب، في الفخر وغيره، ما لا تجده لغيره، لأنه اذا قال :

إذا شئت أَوْقَرْتُ البلاد حوافراً … وسارت ورائي هاشم ونزارُ
وعم السماءَ النقعُ حتى كأنه … دخانٌ وأطرافُ الرماح شرارُ [1]

وقال :

قد تردَّيتُ بالمكارمِ دهراً … وكفتني نفسي من الافتخارِ
أنا جيشٌ إذا غزوتُ وحيداً … ووحيدٌ في الجحفل الجرارِ [2]

وقال :

أيها السائلي عن الحسبِ الأطـ … ـيب ما فوقه لخلق مزيدُ
نحن آل الرسولِ والعترة[3] الحق … وأهلُ القرى[4] فماذا تريد ؟
ولنا ما أضاء صبحٌ عليه … وأتته رايات ليل سود

وكما أنشدنا الحسن بن عبدالله[5] قال : أنشدنا محمد بن يحيى لابن المعتز قصيدته التي يقول فيها :

أنا ابن الذي سادهم في الحيا … ة وسادهم بي تحت الثرى
وما لي في أحد مرغب … بلى فيَّ يرغب كل الورى
وأسهر للمجد والمكرما … ت إذا كحلت أعين بالكرى

فانظر في القصيدة كلها، ثم في جميع شعره، تعلم أنه ملك الشعر، وأنه يليق به من الفخر خاصة، ثم مما تبعه مما يتعاطاه، ما لا يليق بغيره بل ينفر عن سواه، ولم أحب أن أكثر عليك، فأطول الكتاب، بما يخرج

---

(١) أوقرت : ملأت. حوافر : خيول ــ النقع : الغبار.

(٢) الجحفل : الجيش الكبير.

(٣) عترة الرجل : نسله ورهطه الادنون.

(٤) الجود والضيافة.

(٥) هو العسكري م ٣٩٥ هـ.

عن غرضه ... وكما ترى من قول أبي فراس الحمداني[1]، في نفسك إذا قال :

ولا أصبح الحيَّ الخلوفَ بغارة   ولا الجيش ما لم يَأْتِهِ قبلي النذرُ
ويا ربَّ دار لم تخفني منيعة   طلعتُ عليها بالردى أنا والفجرُ
وساحبةِ الاذيالِ نحوي لقيتُها   فلم يلقها جافي اللقاء ولا وعرُ
وهبتُ لها ما حازه الجيشُ كله   وَآبَتْ ولم يكشف لأبياتها ستر
وما راح يطغيني بأثوابه الغنى   ولا بات يثنيني عن الكرم الفقرُ
وما حاجتي في المال أبغي وفوره   اذا لم أفر عرضي فلا وَفَرَ الوفرُ

والشيء اذا صدر من أهله، وبدا من أصله، وانتسب الى ذويه، سلم في نفسه، وبانت فخامته وشواهد أثر الاستحقاق فيه .. واذا صدر من متكلف، وبدا من متصنع، بان أثر الغرابة عليه، وظهرت مخايل الاستيحاش فيه، وعرف شمائل التخير منه.

إنا نعرف في شعر أبي نواس أثر الشطارة، وتمكُّن البطالة، وموقع كلامه في وصف ما هو بسبيله، من أمر المغازلة، ووصف الخمر، والخمار. كما نعرف موقع كلام ذي الرمة[2]، في وصف المهامِهِ والبوادي، والجمال والأنساع والأزمة. وعيب أبي نواس التصرف في وصف الطلول والرباع والوحش، ففكر في قوله :

دع الأطلال تسفيها[3] الجنوبُ   وتبلي عهد جدتها الخطوبُ
وخلِّ لراكبِ الوجناء[4] أرضاً   تخبُّ بها النجيبةُ والنجيبُ[5]

(١) هو الشاعر المشهور م ٣٥٧ هـ وابن عم سيف الدولة.
(٢) شاعر اموي مجيد توفي عام ١١٧ هـ.
(٣) سفت الريح التراب : اذرته.
(٤) هي الناقة القوية.
(٥) النجيب من الابل : عتاقها التي يسابق عليها.

بلاد نبتُهـــا عشرٌ وطلـــــح[1]	وأكثر صَيْدِهَا ضبـــعٌ وذيبُ[2]
ولا تأخـذْ عن الأعـراب لهــواً	ولا عيشا فعيشهـــــم جديبُ
دعِ الألبـــان يشربهـــا رجـــالٌ	رقيـقُ العيشِ عندهـــم غريبُ
اذا رابَ الحليبُ فَبُلْ عليـــه	ولا تحرجْ، فما في ذاك حوبُ[3]
فأطيـبُ منه صافيـــةٌ شمـــولٌ	يطـوف بكأسهـــا ساقٍ أديبُ
كأن هديرَهَا في الـدنِّ يحكـي	قراة[4] القس قابلـــه الصلـــيبُ
أعـاذل أقصري عن طول لومـي	فراجـي توبتـي عنـدي يخـــيبُ
تعيبيـــن الذنـــــوب، وأي حر	من الفتيـان ليس له ذنـــوب ؟

وقوله :

صفـة الطـول بلاغـــة القـــدمِ	فاجعـل صفـاتك لابنـة الكـرمِ

وسمعت الصاحب إسماعيل بن عباد يقول : سمعت برلكويه الزنجاني يقول : أنشد بعض الشعراء هلال بن يزيد قصيدة على وزن قصيدة الأعشى :

ودع هريـرةَ إن الـركبَ مرتحـــلُ	وهل تطيـقُ وداعـاً أيهـا الرجـل

وكان وصف فيها الطلل، قال برلكويه : فقال لي هلال، فقلت بديها :

اذا سمعت فتىً يبكي على طلل	من أهل زبحان فاعلم له طلل

* * *

وانما ذكرت لك هذه الامور لتعلم أن الشيء في معدنه أعز، وفي مظانه أحسن، والى أصله أنزع، وبأسبابه أليق، وهو يدلُّ على ما صدر منه، وينبه

(١) من أنواع النبات الذي ينمو في البادية.
(٢) يكثر وجود هذين الحيوانين في الصحراء.
(٣) راب : صار رائبا. الحوب : الاثم.
(٤) أي قراءة.

ما أنتج عنه، ويكون قراره على موجب صورته، وأنواره على حسب محله، ولكلٍّ شيء حدٌّ ومذهب، ولكلِّ كلام سبيلٌ ومنهج .. وقد ذكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه في كلام مسيلمة ما أخبرتك به فقال : إن هذا كلام لم يخرج من آل[1]. فدلَّ على أن الكلام الصادر عن عزة الربوبية، ورفعة الإلهية، يتميز عما لم يكن كذلك ...

ثم رجع الكلام بنا الى ما ابتدأنا به، من عظيم شأن البيان، ولو لم يكن فيه إلا ما مَنَّ به الله على خلقه بقوله : ﴿ **خلق الإنسان علمه البيان** ﴾[2]. فأما بيان القرآن فهو أشرف بيان وأهداه، وأكمله وأعلاه، وأبلغه وأسناه. تأمل قوله تعالى : ﴿ **أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ان كنتم قوماً مسرفين** ﴾[3]، في شدة التنبيه على تركهم الحق، والإعراض عنه، وموضع امتنانه بالذكر والتحذير. وقوله : ﴿ **ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون** ﴾[4]، وهذا بليغ في التحسير. وقوله : ﴿ **ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه** ﴾[5]، وهذا يدلُّ على كونهم مجبولين على الشر، معودين لمخالفة النهي والأمر. وقوله : ﴿ **الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين** ﴾[6]، هو في نهاية الوضع من الخلة الأعلى التقوى. وقوله : ﴿ **أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله** ﴾[7]، وهذا نهاية في التحذير من التفريط. وقوله : ﴿ **أفَمنْ يلقى في النار خيرٌ أم مَنْ يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير** ﴾[8]، هو النهاية في

---

(١) أي عن ربوبية.
(٢) الآيتان ٣ و ٤ سورة الرحمن.
(٣) آية ٥ سورة الزخرف.
(٤) آية ٣٩ سورة الزخرف.
(٥) آية ٢٨ سورة الأنعام.
(٦) آية ٦٧ سورة الزخرف.
(٧) آية ٥٦ سورة الزمر.
(٨) آية ٤٠ سورة فصلت.

الوعيد والتهديد. وقوله : ﴿ **وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي** ﴾[1]، نهاية في الوعيد. وقوله : ﴿ **وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون** ﴾[2] نهاية في الترغيب. وقوله : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضم على بعض** ﴾[3]. وكذلك قوله : ﴿ **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** ﴾[4] نهاية في الحجاج. وقوله : ﴿ **وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور، ألا يعلم مَنْ خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾[5]، نهاية في الدلالة على علمه بالخفيات.

* * *

ولا وجه للتطويل، فإن بيان الجميع في الرفعة، وكبر المنزل على سواء .. وقد ذكرنا من قبل أن البيان يصح أن يتعلق به الإعجاز، وهو معجز من القرآن، وما حكينا عن صاحب الكلام من المبالغة في اللفظ فليس ذلك بطريق الإعجاز، لأن الوجوه التي ذكرها قد تتفق في كلام غيره، وليس ذلك بمعجز، بل قد يصح أن يقع في المبالغة في المعنى والصفة وجوه من اللفظ يثمر الاعجاز.

وتضمين المعاني أيضاً قد يتعاق به الإعجاز، اذا حصلت للعبارة طريق البلاغة في أعلى درجاتها ... وأما الفواصل فقد بيَّنا أنه يصحُّ أن يتعلق بها الإعجاز .. وكذلك قد بيَّنا في المقاطع والمطالع نحو هذا .. وبيَّنا في

(١) ٤٤ و ٤٥ سورة الشورى.

(٢) آية ٧١ سورة الزخرف.

(٣) آية ٩١ سورة المؤمنون.

(٤) آية ٢١ سورة الأنبياء.

(٥) الآيتان ١٣ و ١٤ سورة الملك.

تلاؤم الكلام ما سبق من صحة تعلُّق الإعجاز به .. والتصرُّف في الاستعارة البديعة يصح أن يتعلق به الإعجاز. كما يصحُّ مثل ذلك في حقائق الكلام، لأن البلاغة في كل واحد من البابين، تجري مُجرى واحداً، وتأخذ مأخذاً مفرداً.

وأما الإيجاز والبسط فيصح أن يتعلق بهما إعجاز، كما يتعلق بالحقائق. والاستعارة والبيان في كل واحد منهما ما لا يضبط حدّه، ولا يقدر قدره، ولا يمكن التوصُّل الى ساحل بحره بالتعلُّم، ولا يتطرق الى غوره بالتسبب، وكل ما يمكن تعلمه، ويتهيأ تلقنه، ويمكن تخليصه، ويستدرك أخذه فلا يجب أن يطلب وقوع الإعجاز به، ولذلك قلنا إن السجع مما ليس يلتمس فيه الإعجاز، لأن ذلك أمر محدود، وسبيل مورود، ومتى تدرَّب الإنسان به واعتاده، لم يستصعب عليه أن يجعل جميع كلامه منه ... وكذلك التجنيس والتطبيق متى أخذ حدهما، وطلب وجههما، استوفى ما شاء، ولم يتعذر عليه أن يملأ خطابه منه، كما أولع بذلك أبو تمام والبحتري، وان كان البحتري أشغف بالمطابق، وأقل طلباً للمجانس.

فان قال قائل : هلا قلت إن هذه البابين يقع فيهما مرتبة عالية لا يوصل اليها بالتعلُّم، ولا تملك بالتعمل، كما ذكرتم في البيان وغير ذلك ؟

قلنا : لو عمد الى كتاب الأجناس[1]، ونظر في كتاب العين[2]، لم يتعذر عليه التجنيس الكثير. فأما الإطباق فهو أقرب منه، وليس كذلك البيان، والوجوه التي رأينا الإعجاز فيها، لأنها لا تستوفَى بالتعلُّم.

* * *

فان قيل : فالبيان قد يتعلم .. قيل : إن الذي يمكن أن يتوصل اليه

---

(١) هو للاصمعي م ٢١٦ هـ.

(٢) للخليل بن أحمد م ١٧٤ هـ.

بالتعلُّم يتفاوت فيه الناس، وتتناهى فيه العادات، وهو كما يعلم من مقادير القوى في حمل الثقيل وان الناس يتقاربون في ذلك، فيرمون فيه إلى حد، فاذا تجاوزوه وقفوا بعده، ولم يمكنهم التخطي، ولم يقدروا على التعدّي، إلا أن يحصل ما يخرق العادة، وينقض العرف، ولن يكون ذلك الا للدلالة على النبوات، على شروط في ذلك القدر الذي يفوت الحد في البيان، ويتجاوز الوهم، ويشذ عن الصنعة، ويقذفه الطبع في النادر القليل، كالبيت البديع، والقطعة الشريفة، التي تتفق في ديوان شاعر، والفقرة تتفق في لسان كاتب، حتى يكون الشاعر ابن بيت أو بيتين، أو قطعة أو قطعتين، والأديب شهيد كلمة أو كلمتين، وذلك أمر قليل، ولو كان كلامه كله يطرد على ذلك المسلك، ويستمر على ذلك المنهج، أمكن أن يدَّعي فيه الإعجاز، ولكنك إن كنتَ من أهل الصنعة، تعلم قلة الأبيات الشوارد، والكلمات الفرائد، وأمهات القلائد، فإن أردت أن تجد قصيدة كلها وحشية، وأردت أن تراها مثل بيت من أبياتها مرضية، لم تجد ذلك في الدواوين، ولم تظفر بذلك الى يوم الدين.

ونحن لم ننكر أن يستدرك البشر كلمة شريفة، ولفظة بديعة، وإنما أنكرنا أن يقدروا على مثل نظم سورة أو نحوها، وأحلنا أن يتمكنوا من حدٍّ في البلاغة، ومقدار في الخطابة، وهذا كما قلناه من أن صورة الشعر قد تتفق في القرآن، وان لم يكن له حكم الشعر.

* * *

فأما قدر المعجز فقد بيَّنا أنها السورة طالت أو قصرت، وبعد ذلك خلاف : من الناس مَنْ قال مقدار كل سورة أو أطول آية فهو معجزة، وعندنا كل واحد من الأمرين معجز، والدلالة عليه ما تقدم، والبلاغة لا تتبين بأقل من ذلك. فلذلك لم نحكم بإعجازه. وما صح أن تتبين فيه البلاغة، ومحصولها الإبانة في الإبلاغ عن ذات النفس، على أحسن معنى، وأجزل

لفظ، وبلوغ الغاية في المقصود بالكلام، فإذا بلغ الكلام غايته في هذا المعنى كان بالغاً وبليغاً، فإذا تجاوز حد البلاغة، الى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة، وانتهى الى أمر يعجز عنه الكامل في البراعة، صح أن يكون له حكم المعجزات، وجاز أن يقع موقع الدلالات، وقد ذكرنا أنه بجنسه وأسلوبه مباين لسائر كلامهم، ثم بما يتضمن من تجاوزه في البلاغة الحد الذي يقدر عليه البشر.

* * *

فإن قيل : فإذا كان يجوز عندكم أن يتفق في شعر الشاعر قطعة عجيبة شاردة، تباين جميع ديوانه في البلاغة، ويقع في ديوانه بيت واحد يخالف مألوف طبعه، ولا يعرف سبب ذلك البيت، ولا تلك القطعة، في التفصيل، ولو أراد أن يأتي بمثل ذلك، ويجعل جميع كلامه من ذلك النمط، لم يجد الى ذلك سبيلاً، وله سبب في الجملة وهو التقدُّم في الصنعة، لأنه يتفق المتأخر فيها .. فهلا قلتم: إنه اذا بلغ في العلم بالصناعة مبالغة قصوى كان جميع كلامه من نمط ذلك البيت، وسمت تلك القطعة، وهلا قلتم إن القرآن من هذا الباب ؟

فالجواب أنَّا لم نجد أحداً بلغ الحدَّ الذي وصفتم في العادة، وهؤلاء[1] الناس وأهل البلاغة : أشعارهم عندنا محفوظة، وخطبهم منقولة، ورسائلهم مأثورة، وبلاغاتهم مروية، وحكمهم مشهورة ... وكذلك أهل الكهانة والبلاغة، مثل قس بن ساعدة[2]، وسحبان وائل[3]، ومثل شق وسطيح[4] وغيرهم، كلامهم معروف عندنا، وموضوع بين أيدينا، لا يخفى علينا في

(١) في النسخ كلها : وهذا
(٢) خطيب جاهلي حكيم مشهور.
(٣) خطيب مشهور أدرك عهد معاوية بن أبي سفيان.
(٤) كاهنان من كهان الجاهلية.

الجملة بلاغة بليغ، ولا خطابة خطيب، ولا براعة شاعر مفلق، ولا كتابة كاتب مدقق. فلما لم نجد في شيء من ذلك ما يداني القرآن في البلاغة، أو يشاكله في الإعجاز، مع ما وقع من التحدي اليه المدة الطويلة، وتقدَّم من التقريع والمجازاة الأمد المديد، وثبت له وحده خاصة قصب السبق والاستيلاء على الأمر، وعجز الكل عنه، ووقفوا دونه حيارى، يعرفون عجزهم وان جهل قوم سببه، ويعلمون نقصهم وان أغفل قوم وجهه، رأينا أنه ناقض للعادة، ورأينا أنه خارق للمعروف، في الحيلة، وخرق العادة إنما يقع بالمعجزات على وجه إقامة البرهان على النبوات، وعلى أنَّ من ظهرت عليه، ووقعت موقع الهداية اليه، صادق فيما يدَّعيه من نبوته، ومحقٌّ في قوله، ومصيبٌ في هَدْيِه، قد سادت له الحجة البالغة، والكلمة التامة، والبرهان النيِّر، والدليل البيِّن.

فصل

في حقيقة المعجز

معنى قولنا إن القرآن معجز على أصولنا أنه لا يقدر العباد عليه، وقد ثبت أن المعجز الدالَّ على صدق النبي ﷺ لا يصحُّ دخوله تحت قدرة العباد، وإنما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه، ولا يجوز أن يعجز العباد عما تستحيل قدرتهم عليه، كما يستحيل عجزهم عن فعل الأجسام. فنحن لا نقدر على ذلك، وان لم يصح وصفنا بأنَّا عاجزون عن ذلك حقيقة، وكذلك معجزات سائر الأنبياء على هذا. فلما لم يقدر عليه أحد، شبه بما يعجز عنه العاجز، وإنما لا يقدر العباد على الإتيان بمثله، لأنه لو صح أن يقدروا عليه بطلت دلالة المعجز، وقد أجرى العادة أن يتعذر فعل ذلك منهم وان لا يقدروا عليه، ولو كان غير خارج عن العادة لأتوا بمثله، وعرضوا عليه من كلام فصحائهم وبلغائهم ما يعارضه. فلما لم يشتغلوا بذلك، علم أنهم فطنوا لخروج ذلك عن أوزان كلامهم، وأساليب نظامهم، وزالت أطماعهم عنه.

وقد كنا بيَّنا ان التواضع ليس يجب أن يقع على قول الشعر، ووجوه النظم المستحسنة في الأوزان المطربة للسمع، ولا يحتاج في مثله الى توقيف : وانه يتبين أن مثل ذلك يجري في الخطاب، فلما جرى فيه فطنوا

له، واختاروه؛ وطلبوا أنواع الأوزان والقوافي، ثم وقفوا على حسن ذلك، وقدروا عليه بتوفيق الله عز وجل، وهو الذي جمع خواطرهم عليه، وهداهم له، وهيأ دواعيهم اليه، ولكنه أقدرهم على حد محدود، وغاية في العرف مضروبة، لعلمه بأن سيجعل القرآن معجزاً، ودلَّ على عظم شأنه، بأنهم قدروا على ما بيَّنا من التأليف، وعلى ما وصفنا من النظم، من غير توقيف، ولا اقتضاء أثر، ولا تحدٍّ إليه، ولا تقريع، فلو كان هذا من ذلك القبيل، أو من الجنس الذي عرفوه وألفوه، لم تزل أطماعهم عنه، ولم يدهشوا عند وروده عليهم، فكيف وقد أمهلهم، وفسح لهم في الوقت، وكان يدعو اليه سنين كثيرة ؟ وقال عزَّ من قائل : ﴿ **أَوَلَمْ نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير** ﴾[1]. وبظهور العجز عنه بعد طول التقريع، والتحدي، بَانَ أنه خارج عن عاداتهم، وأنهم لا يقدرون عليه.

وقد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ، لأن ذلك طبعهم ولغتهم، فلم يحتاجوا الى تجربة عند سماع القرآن، وهذا في البلغاء منهم دون المتأخرين في الصنعة، والذي ذكرناه يدلُّك على أنه لا كلام أزيد في قدر البلاغة من القرآن، وكل مَنْ جوز أن يكون للبشر قدرة على أن يأتوا بمثله في البلاغة، لم يمكنه أن يعرف أن القرآن معجز بحال، ولو لم يكن جرى في العلوم أنه سيجعل القرآن معجزاً، لكان يجوز أن تجري عادات الأولين، وأخبار المرسلين، وكذلك لا يوجد خلف فيما يتضمَّنه من الأخبار عن الغيوب، وعن الحوادث التي أنبأ أنها تقع في الآتي، فلا يخرج من أن يكون متأوّلا على ما يقتضيه نظام الخطاب، من أنه لا يأتيه ما يبطله من شبهة سابقة، تقدح في معجزته، أو تعارضه في طريقه، وكذلك لا يأتيه من بعد قط أمر يشكك في وجه دلالته وإعجازه، وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه. ثم قال : ﴿ **ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا**

---

(١) آية ٤٥ سورة فاطر.

فصلت آياته أأعجميّ وعربي ﴾[1]، فأخبر أنه لو كان أعجمياً لكانوا يحتجون في ردِّه، إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم، أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه، بأنهم لا يتبيَّن لهم وجه الإعجاز فيه، لأنه ليس من شأنهم، ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الأمور، وأنه إذا تحدَّاهم الى ما هو من لسانهم وشأنهم، فعجزوا عنه، وَجَبَتِ الحجة عليهم به، على ما نبيِّنُهُ في وجه هذا الفصل. الى أن قال : ﴿ **قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به مَنْ أضل ممن هو في شقاق بعيد** ﴾[2] .. والذي ذكرنا من نَظْمِ هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور، فكرهنا سرد القول فيها، فليتأمل المتأمل ما دللناه عليه، يجده كذلك.

ثم مما يدل على هذا قوله عز وجل : ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين. أولم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم** ﴾[3]، فأخبر أن الكتاب آية من آياته، وعلم من أعلامه، وان ذلك يكفي في الدلالة، ويقوم مقام معجزات غيره، وآيات سواه من الأنبياء صلوات الله عليهم.

ويدل عليه قوله عز وجل : ﴿ **تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً** ﴾[4]، وقوله : ﴿ **أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحقُّ الحق بكلماته** ﴾[5]، فدلَّ على أنه جعل قلبه مستودعاً لوحيه، ومستنزلاً لكتابه، وأنه لو شاء صرف ذلك الى غيره، وكان له حكم دلالته على تحقيق الحق، وإبطال الباطل، مع صرفه عنه ... ولذلك أشباه كثيرة تدل نحو الدلالة التي وصفناها، فبان

---

(١) آية ٤٤ سورة فصلت.

(٢) آية ٥٢ سورة فصلت.

(٣) الآيتان ٥٠ و ٥١ سورة العنكبوت.

(٤) آية ١ سورة الفرقان.

(٥) آية ٢٤ سورة الشورى.

بهذا، وبنظائر ما قلنا، أن بناء نبوته ﷺ على دلالة القرآن ومعجزته، وصار له من الحكم في دلالته على نفسه وصدقه أنه يمكن أن يعلم أنه كلام الله تعالى، وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأنها لا تدل على أنفسها إلّا بأمر زائد عليها، ووصف منضاف إليها، لأن نظمها ليس معجزاً، وإن كان ما تضمنه من الأخبار عن الغائبات والغيوب معجزا. وليس كذلك القرآن لأنه يشاركها في هذه الدلالة، ويزيد عليها في أن نظمه معجز، فيمكن أن يستدل به عليه. وحلَّ في هذا من وجه محل سماع الكلام من القديم سبحانه، لأن موسى عليه السلام لما سمع كلامه، علم أنه في الحقيقة كلامه، وكذلك مَنْ يسمع القرآن، يعلم أنه كلام الله، وإن اختلف الحال في ذلك عند البشر، بقدر زائد على ما ألفوه من البلاغة، وأمر يفوق ما عرفوه من الفصاحة.

وأما نظم القرآن : فقد قال أصحابنا إن الله تعالى يقدر على نظم القرآن في الرتبة التي لا مزيد عليها ... وقال مخالفونا : إن هذا غير ممتنع، لأن فيه من الكلمات الشريفة، الجامعة للمعاني البديعة، وانضاف الى ذلك حسن الموقع، فيجب أن يكون قد بلغ النهاية، لأنه عندهم وإن زاد على ما في العادة، فإن الزائد عليها وإن تفاوت فلا بدَّ من أن ينتهي الى حد لا مزيد عليه .. والذي نقول : إنه لا يمتنع أن يقال : إنه يقدر الله تعالى على أن يأتي بنظم أبلغ وأبدع من القرآن كله، وأما قدرة العباد فهي متناهية في كل ما يقدرون عليه، مما تصحُّ قدرتهم عليه.

فصل
في كلام النبي ﷺ وأمور تتصل بالإعجاز

إن قال قائل : اذا كان النبي ﷺ أفصح العرب، وقد قال هذا في حديث مشهور، وهو صادق في قوله، فهلا قلتم إن القرآن من نظمه لقدرته في الفصاحة على مقدار لا يبلغه غيره.

قيل : قد علمنا أنه لم يتحدهم الى مثل قوله وفصاحته، والقدر الذي بينه وبين كلام غيره من الفصحاء كقدر ما بين شعر الشاعريين وكلام الخطيبين في الفصاحة وذلك مما لا يقع به الإعجاز، وقد بيَّنا قبل هذا أنَّا اذا وازَنّا بين خطبه ورسائله وكلامه المنثور، وبين نَظْم القرآن، تبيَّن من البون بينهما مثل ما بين كلام الله عز وجل وكلام الناس.. ولا معنى لقول مَن ادَّعى أن كلام النبي ﷺ معجز وان كان دون القرآن في الإعجاز.

فإن قيل لولا أن كلامه معجز لم يشتبه على ابن مسعود[1] الفصل بين المعوذتين وبين غيرهما من القرآن، وكذلك لم يشتبه دعاء القنوت في أنه هل هو من القرآن أم لا، ولا يجوز أن يخفَى عليهم القرآن من غيره، وعدد السور عندهم محفوظ مضبوط. وقد يجوز أن يكون شذَّ عن مصحفه لا

(١) صحابي جليل مشهور ومن حفاظ القرآن وكتاب الوحي.

لأنه نفاه من القرآن، بل عوَّل على حفظ الكل إيَّاه. على أن الذي يروونه خبرٌ واحد لا يسكن اليه في مثل هذا ولا يعمل عليه، ويجوز أن يكتب على ظهر مصحفه دعاء القنوت لئلا ينساه كما يكتب الواحد منا بعض الادعية على ظهر مصحفه.

وهذا نحو ما يذكر الجهال من اختلاف كثير بين مصحف ابن مسعود وبين مصحف عثمان رحمة الله عليهما، ونحن لا ننكر أن يغلط في حروف معدودة، كما يغلط الحافظ في حروف وينسى. وما لا نجيزه على الحفاظ، مما لم نجزه عليه، ولو كان قد أنكر السورتين على ما ادعوا لكانت الصحابة تناظره على ذلك، وكان يظهر وينتشر، فقد تناظروا في أقل من هذا، أمر يوجب التفكير والتضليل، فكيف يجوز أن يقع التخفيف فيه ؟ وقد علمنا إجماعهم على ما جمعوه في المصحف، فكيف يقدح بمثل هذه الحكايات الشاذة المولدة بالإجماع المتقرر، والاتفاق المعروف ؟ ويجوز أن يكون الناقل أشبه عليه، لأنه خالف في النظم والترتيب، فلم يثبتهما في آخر القرآن، والاختلاف بينهم في موضع الإثبات غير الكلام في الاصل، ألا ترى أنهم قد اختلفوا في أول ما نزل من القرآن، فمنهم مَنْ قال قوله : ﴿ **اقرأ باسم ربك** ﴾[1]، ومنهم مَنْ قال : ﴿ **يا أيها المدثر** ﴾، ومنهم مَنْ قال فاتحة الكتاب. واختلفوا أيضاً في آخر ما أنزل، فقال ابن عباس : ﴿ **إذا جاء نصر الله** ﴾، وقالت عائشة : سورة المائدة، وقال البراء ابن عازب : آخر ما أنزل : سورة براءة، وقال سعيد بن جبير : آخر ما أنزل قوله تعالى : ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله** ﴾[2]. وقال السدِّي آخر ما أنزل ﴿ **فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه**

---

(١) آية ١ سورة : اقرأ.

(٢) آية ٢٨١ سورة البقرة.

توكلت ﴾[1] ويجوز أن يكون في مثل هذا خلاف، وأن يكون كل واحد ذكر آخر ما سمع.

ولو كان القرآن من كلامه، لكان البون بين كلامه وبينه، مثل ما بين خطبة وخطبة ينشئها رجل واحد، وكانوا يعارضونه، لأنَّا قد علمنا أن القدر الذي بين كلامهم وبين كلام النبي ﷺ لا يخرج الى حد الإعجاز، ولا يتفاوت التفاوت الكثير. ولا يخفى كلام من جنس أوزان كلامهم، وليس كذلك نظم القرآن، لأنه خارج من جميع ذلك.

* * *

فإن قيل : لو كان على ما ادَّعيتم، لعرفنا بالضرورة أنه معجز دون غيره ... قيل : معرفة الفصل بين وزن الشعر ووزنه، والفرق بينه وبين غيره من الأوزان، تحتاج الى نظر وتأمل، وفكر وروية واكتساب، وان كان النظم المختلف الشديد التباين، إذا وجد أدرك اختلافه بالحاسة، الا أن كل وزن وقبيل اذا أردنا تمييزه من غيره احتجنا فيه الى الفكرة والتأمل.

فإن قيل : لو كان معجزاً لم يختلف أهل الملة في وجه إعجازه .. قيل : قد يثبت الشيء دليلا، وان اختلفوا في وجه دلالة البرهان، كما قد يختلفون في الاستدلال على حدوث العالم من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق ... فأما المخالفون فإنه يتعذر عليهم أن يعرفوا أن القرآن كلام الله، لأن مذهبهم أنه لا فرق بين أن يكون القرآن من قبل الرسول، أو من قبل الله عز وجل في كونه معجزاً، لأنه إن خصه بقدر من العلم لم تجر العادة بمثله، أمكنه أن يأتي بما له هذه الرتبة، وكان متعذراً على غيره، لفقد علمه بكيفية النظم. وليس القوم بعاجزين عن الكلام، ولا عن النظم والتأليف. والمعنى المؤثر عندهم في تعذُّر مثل نظم القرآن علينا فقد العلم بكيفية

(١) آية ١٢٩ سورة التوبة.

النظم، وقد بيَّنا قبل هذا أن المانع هو أنهم لا يقدرون عليه. والمفحم قد يعلم كيفية الأوزان واختلافها، وكيفية التركيب وهو لا يقدر على نظم الشعر، وقد يعلم الشاعر وجوه الفصاحة واذا قالا الشعراء جاء شعر أحدهما في الطبقة العالية وشعر الآخر في الطبقة الوضيعة، وقد ترد في شعر المبتدي والمتأخر في الحذق القطعة الشريفة، والبيت النادر، مما لا يتفق للشاعر المتقدم ... والعلم بهذا الشأن في التفصيل لا يغني، ويحتاج معه الى مادة من الطبع، وتوفيق من الأصل، وقد يتساوى العالمان بكيفية الصناعة والنساجة، ثم يتفق لأحدهما من اللطف في الصنعة ما لا يتفق في الآخر ... وكذلك أهل نظم الكلام يتفاضلون، مع العلم بكيفية النظم، وكذلك أهل الرمي يتفاضلون في الإصابة، مع العلم بكيفية الاصابة.

واذا وجدت للشاعر بيتاً، أو قطعة أحسن من شعر امرئ القيس، لا يدلُّ ذلك على أنه أعلم بالنظم منه، لأنه لو كان كذلك كان يجب أن يكون جميع شعره على ذلك الحد، وبحسب ذلك البيت في الشرف والحسن والبراعة، ولا يجوز أن يعلم نظم قطعة ويجهل نظم مثلها، وان كان كذلك علم أن هذا لا يرجع إلى قدرة من العلم، ولسنا نقول : انه يستغني عن العلم في النظم، بل يكفي علم به في الجملة، ثم يقف الأمر على القدرة. وهذا يبين لك بأنه قد يعلم الخط فيكتب سطراً، فلو أراد أن يأتي بمثله بحيث لا يغادر منه شيئاً لتعذر والعلم حاصل، وكذلك قد يحسن كيفية الخط، ويميز الجيد منه من الرديء ولا يمكنه أن يأتي بأرفع درجات الجيد. وقد يعلم قوم كيفية إدارة الأقلام، وكيفية تصوير الخط، ثم يتفاوتون في التفصيل، ويختلفون في التصوير، وألزمهم أصحابنا أن يقولوا بقدرتنا على إحداث الأجسام، وإنما يتعذر وقوع ذلك منا، لأنَّا لا نعلم الأسباب التي اذا عرفنا ايقاعها على وجوه اتفق لنا فعل الأجسام.

وقد ذهب بعض المخالفين إلى أن العادة انتقضت بأن أنزله جبريل، فصار القرآن معجزاً لنزوله على هذا الوجه، ومن قبله لم يكن معجزاً .. وهذا

قول ابي هاشم وهو ظاهر الخطأ، لأنه يلزم أن يكونوا قادرين على مثل القرآن، وان لم يتعذر عليهم فعل مثله، وإنما تعذر بإنزاله، ولو كانوا قادرين على مثل ذلك كان قد اتفق من بعضهم مثله، وان كانوا في الحقيقة غير قادرين قبل نزوله ولا بعده على مثله، فهو قولنا.

وأما قول كثير من المخالفين فهو على ما بيَّنا، لأن معنى المعجز عندهم تعذر فعل مثله، وكان ذلك متعذراً قبل نزوله وبعده.

فأما الكلام في أن التأليف هل له نهاية، فقد اختلف المخالفون من المتكلمين فيه، فمنهم مَنْ قال ليس لذلك نهاية كالعدد، فلا يمكن أن يقال إنه لا يتأتّى قول قصيدة إلا وقد قيلت من قبل، ومنهم مَنْ قال إنّ ما جرت به العادة فله نهاية، وما لم تجر به العادة فلا يمكن أن نعلم نهاية الرتبة فيه، وقد بينا أن على أصولنا قد تقدر لكلامنا حد في العادة، ولا سبيل الى تجاوزه ولا يقدر، فإن القرآن خرق العادة فزاد عليها.

* * *

فصل

إن قيل : هل من شروط المعجز أن يعلم أنه أتى به مَنْ ظهر عليه ؟
قيل لا بدَّ من ذلك، لأنَّا لو لم نعلم أن النبي ﷺ هو الذي أتى بالقرآن، وظهر ذلك من جهته، لم يكن أن يستدلَّ به على نبوته ... وعلى هذا لو تلقى رجل منه سورة، فأتى بها بلداً، وادَّعى ظهورها عليه، وأنها معجزة له، لم تقم الحجة عليهم، حتى يبحثوا أو يتبينوا أنها ظهرت عليه. وقد حققنا أن القرآن اتى به النبي ﷺ وظهر من جهته، وجعله علماً على نبوته، وعلمنا ذلك ضرورة فصار حجة علينا.

فصل

قد ذكرنا في الإبانة عن معجزة القرآن وجيزاً من القول، رجونا أن يكفي، وأملنا أن يقنع، والكلام في أوصافه ان استقصى بعيد الأطراف، واسع الأكناف، لعلو شأنه وشريف مكانه. والذي سطرناه في الكتاب وان كان موجزاً، وما أمليناه فيه وان كان خفيفاً، فإنه ينبه على الطريقة، ويدل على الوجه، ويهدي الى الحجة، ومتى عظم محل الشيء فقد يكون الإسهاب فيه عيّاً، والإكثار في وصفه تقصيراً، وقد قال الحكيم ـــ وسئل عن البليغ متى يكون عييا ـــ فقال : متى وصف هوىً أو حبيباً. وضل أعرابي في سفر له ليلاً وطلع القمر فاهتدى به، فقال : ما أقول لك ؟ أقول رفعك الله وقد رفعك ؟ أم أقول نورك الله وقد نورك ؟ أم أقول جملك الله وقد جملك ؟

ولولا أن العقول تختلف، والأفهام تتباين، والمعارف تتفاضل، لم نحتج الى ما تكلّفنا، ولكن الناس يتفاوتون في المعرفة، ولو اتفقوا فيها لم يجز أن يتفقوا في معرفة هذا الفن أو يجتمعوا في الهداية الى هذا العلم، لاتصاله بأسباب، وتعلُّقه بعلوم غامضة الغور، عميقة القعر، كثيرة المذاهب، قليلة الطلاب، ضعيفة الأصحاب، وبحسب تأتيِّ مواقعه يقعُ الأفهام دونه، وعلى قدر لطف مسالكه يكون القصور عنه.

أنشدني أبو القاسم الزعفراني قال : أنشدني المتنبي لنفسه القطعة التي يقول فيها :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيمِ
ولكن تأخذ الآذانُ منه على قدرِ القرائحِ والعلومِ

وأنشدني الحسنُ بن عبدالله[1] قال : أنشدنا بعض مشايخنا للبحتري :

أهزُّ بالشعر أقواماً ذوي سنة لو أنهم ضربوا بالسيفِ ما شعرُوا
عليَّ نحت القوافي من مقاطِعِها وما عليَّ لهم أن تفهم البقرُ

فاذا كان نقد الكلام كله صعبا، وتمييزه شديداً، والوقوف على اختلاف فنونه متعذراً، وهذا في كلام الآدمي، فما ظنك بكلام ربِّ العالمين ؟

* * *

قد أبنا لك أن مَنْ قَدَّر أن البلاغة في عشرة أوجه من الكلام، لا يعرف من البلاغة إلا القليل، ولا يفطن منها الا لليسير.

ومن زعم ان البديع يقتصر على ما ذكرناه من قبل عنهم في الشعر، فهو متطرِّف ... بلى ان كانوا يقولونَ إن هذه من وجوه البلاغة، وغرر البديع، وأصول اللطيف، وان ما يجري مُجرى ذلك ويشاكله ملحق بالأصل، ومردود على القاعدة، فهذا قريب.

وقد بيَّنا في نظم القرآن ان الجملة تشتمل على بلاغة منفردة، والأسلوب يختص بمعنى آخر من الشرف، ثم الفواتح والخواتم، والمبادئ والمثاني، والطوالع والمقاطع، والوسائط والفواصل، ثم الكلام في نَظْم السور والآيات في تفاصيل التفاصيل، ثم في الكثير والقليل، ثم الكلام الموشح والمرصع، والمفصل والمصرع، والمجنس والموشَّى، والمحلَّى والمكلل، والمطوق والمتوج، والموزون والخارج عن الوزن، والمعتدل في النظم والمتشابه فيه، ثم الخروج من فصل إلى فصل، ووصل الى وصل ومعنى إلى معنى، ومعنى

(١) هو العسكري المتوفي ٣٩٥ هـ.

في معنى، والجمع بين المؤتلف والمختلف، والمتَّفق والمتَّسق، وكثرة التصرُّف، وسلامة القول في ذلك كله من التعسُّف، وخروجه عن التعمُّق والتشدُّق، وبعده عن التعمُّل والتكلُّف، والألفاظ المفردة، والإبداع في الحروف والأدوات، كالإبداع في المعاني والكلمات، والبسط والقبض، والبناء والنقض، والاختصار والشرح، والتشبيه والوصف، وتميُّز الإبداع من الإتباع، كتميُّز المطبوع عن المصنوع، والقول الواقع عن غير تكلُّف ولا تعمُّل.

وأنت تتبيَّن في كل ما تصرَّف فيه من الأنواع، أنه على سمت شريف، ومرقب منيف، يبهر اذا أخذ في النوع الربِّي والأمر الشرعي، والكلام الإلهي؛ الدال على أنه يصدر عن عزة الملكوت، وشرف الجبروت، وما لا يبلغ الوهم مواقعه، من حكمة وأحكام، واحتجاج وتقرير، واستشهاد وتقريع، وإعذار وإنذار، وتبشير وتحذير، وتنبيه وتلويح، وإشباع وتصريح، وإشارة ودلالة، وتعليم أخلاق زكية، وأسباب رضية، وسياسات جامعة، ومواعظ نافعة، وأوامر صادعة، وقصص مفيدة، وثناء على الله عز وجل بما هو أهله، وأوصاف كما يستحقه وتحميد كما يستوجبه، وأخبار عن كائنات في التأتِّي صدقت، وأحاديث عن المؤتلف تحققت، ونواه زاجرة عن القبائح والفواحش، وإباحة الطيبات، وتحريم المضار والخبائث، وحثٍّ على الجميل والإحسان.

تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك، في منظر بهيج، ونظم أنيق، ومعرض رشيق، غير متعاصٍ على الأسماع، ولا مغلق على الأفهام، ولا مستكره في اللفظ، ولا متوحِّش في المنظر، غريب في الجنس، غير غريب في القبيل، ممتلئ ماء ونضارة، ولطفاً وغضارة، يسري في القلب كما يسري السرور، ويمر الى مواقعه كما يمر السهم، ويضيء كما يضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، طموح العباب جموح على المتناول المنتاب، كالروح في البدن، والنور المستطير في الأفق، والغيث الشامل، والضياء

الباهر، ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[1].

من توهم أن الشعر يلحق شأوه بَانَ ضلاله، وصحَّ جَهْله، إذ الشعر سمت قد تناولته الألسن، وتداولته القلوب، وانثالت عليه الهواجس، وضرب الشيطان فيه بسهمه، وأخذ منه بحظه. وما دونه من كلامهم فهو أدنى محلاً، وأقرب مأخذاً، وأسهل مطلباً، ولذلك قالوا : فلان مفحم، فأخرجوه مخرج العيب، كما قالوا : فلان عيّي، فأوردوه مورد النقص.

والقرآن كتاب دل على صدق متحمله، ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها، وبرهان شهد له براهين الأولياء المتقدمين، وبيِّنة على طريقة ما سلف الأولون .. تحداهم[2] به إذ كان من جنس القول الذين زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية، وبلغوا فيه الغاية، فعرفوا عجزهم، كما عرف قوم عيسى نقصانهم، فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن في العلاج، والوصول إلى أعلى مراتب الطب، فجاءهم بما بهرهم : من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وكما أتى موسى بالعصا التي تلقفت ما برعوا فيه من سحرهم، وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم، وكما سخَّر لسليمان من الرياح والطير والجن، حين كانوا يولعون بدقائق الحكمة، وبدائع من اللطف .. ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليه الأول والآخر وقوفاً واحداً، ويبقى حكمها إلى يوم القيامة.

* * *

أنظر وفقك الله لما هديناك اليه، وفكر في الذي دللناك عليه. فالحق منهج واضح، والدين ميزان راجح، والجهل لا يزيد إلا غمّاً، ولا يورث إلا

---

(١) آية ٤٩ سورة فصلت.

(٢) في المطبوعة ١٣١٥ : حيرهم.

نَدَماً. قال الله عز وجل: ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب** ﴾[1]، وقال: ﴿ **وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به مَنْ نشاء من عبادنا** ﴾[2] وقال: ﴿ **يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً** ﴾[3]، وعلى حسب ما أتى من الفضل، وأعطى من الكمال والعقل، تقع الهداية والتبيين، فان الأمور تتم بأسبابها، وتحصل بآلتها. ومن سلبه التوفيق، وحرم الرشاد والتسديد، فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا.

فاحمد الله على ما رزقك من الفهم ان فهمت، وقل ربي زدني علما، وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ... وإن ارتبت فيما بيَّناه فازدد في تعلُّم الصنعة، وتقدَّم في المعرفة، فسيقع بك على الطريق الأرشد، ويقف بك على الوجه الأحمد، فانك إذا فعلت ذلك أحطت علماً، وتيقَّنت فهما.

ولا يوسوس اليك الشيطان، بأنه قد كان ممن هو أعلم منك بالعربية، وأرجح منك في الفصاحة، أقوام وأقوام، ورجال ورجال، فكذبوا وارتابوا لأن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز، ولكن اختلفت أحوالهم: فكانوا بين جاهل وجاحد، وبين كافر نعمة وحاسد، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات وحائر عن النظر في الدلالات، وناقص في باب البحث ومختل الآلة في وجه الفحص، ومستهين بأمر الأديان، وغاوٍ تحت حبالة الشيطان، ومقذوف بخذلان الرحمن ... وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة، ودرجات الحرمان مختلفة.

---

(١) آية ٩ سورة الزمر.

(٢) آية ٥٢ سورة الشورى.

(٣) آية ٢٦ سورة البقرة.

وهلا جعلت بازاء الكفرة مثل لبيد بن ربيعة العامري[1] في حسن إسلامه، وكعب بن زهير[2] في صدق إيمانه، وحسان بن ثابت[3]، وغيرهم من الشعراء والخطباء الذين أسلموا .. على أن الصدر الأوّل ما فيهم إلا نجمٌ زاهر، أو بحرٌ زاخر.

وقد بيّنا أن لا اعتصام إلا بهداية الله، ولا توفيق إلا بنعمة الله، وذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء.

فتأمل ما عرفناك في كتابنا، وفرغ له قلبك، واجمع له لبك، ثم اعتصم بالله يهدك، وتوكل عليه يغنك ويجزك، واسترشده يرشدك. وهو حسبي وحسبك ونعم الوكيل.

---

(١) شاعر جاهلي مشهور أدرك الاسلام واسلم وتوفي عام ٤١هـ

(٢) شاعر مخضرم مجيد توفي عام ٢٤هـ.

(٣) شاعر الرسول والانصار توفي عام ٦٠ .

خاتمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم، به أستفتح، وبه أختم، وإليه أضرع راجيا التوفيق والسداد وصالح القول والعمل.

وبعد فهذا آخر كتاب إعجاز القرآن للامام الكبير الباقلاني رحمه الله .. مع الشروح والتعليقات التي كتبتها عليه، ومع الجهد الكبير الذي بذلته في إخراجه على هذا الوجه، ونشره على تلك الطريقة.

وميزات هذه الطبعة التي أخرجناها للكتاب :

١ ــ المقدمة الأولى التي نشرناها في أول الكتاب شرحاً له ولحياة مؤلفه.

٢ ــ الشروح والتعليقات الكثيرة التي جلت مبهمه، ووضحت غامضه وفصلت مجمله.

٣ ــ رد الكتاب إلى صورة هي أقرب ما يكون إلى الصواب، بعد أن نفينا ما اشتمل عليه من تحريف وتصحيف وأخطاء هي من عمل الناسخين والناشرين.

٤ ــ هذه الطبعة الجيدة التي خرج بها الكتاب على هذه الصورة الطيبة.

ولا أجد ما أقوله بعد ذلك إلا أن أحمد الله على توفيقه وكريم فضله، مع ضرورة التنبيه على ما يأتي :

١ ــ زدنا في صلب الكتاب بعض زيادات طلبها المقام أو استدعاها تصحيح التحريف الذي كان الكتاب مشتملا عليه .. وهي ــ رغم أنها طفيفة ــ كبيرة الأهمية في إخراج الكتاب على صورة قريبة من الصواب ... كما زدنا بعض عناوين وضعناها في ثنايا الكتاب.

٢ ــ وجميع الزيادات التي زيدت على الكتاب قد وضعت داخل أقواس.

والله نسأل أن يعصمنا من الخطأ، ويجنبنا مساوئ الزلل، ويرشدنا إلى أقوم طريق. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

محمد عبد المنعم خفاجي

فهرس الكتاب

تصدير ٥

تمهيد : دراسة للمحقق حول كتاب الباقلاني ٧

ترجمة المؤلف ٩

صور من تاريخ الباقلاني ١١

مؤلفات الباقلاني ١٦

القرآن الكريم وإعجازه ١٧

آراء في إعجاز القرآن الكريم ١٩

أشهر مَن كتبوا في الإعجاز ٢٥

قضية الإعجاز في رأينا ٢٦

خلاصة لبحوث الكتاب ٤٣

دراسات للكتاب وآرائه في الإعجاز ٤٤

أثر الكتاب في النقد الأدبي ٤٧

كتاب إعجاز القرآن للباقلاني

مقدمة المؤلف ٥١

فصل : في ان نبوة النبي معجزتها القرآن ٥٥

فصل : في الدلالة على أن القرآن معجزة ٦٤

فصل : في جملة وجوه إعجاز القرآن ٨٣

فصل : في شرح ما بيَّنا من وجوه إعجاز القرآن ١٠٠
فصل : في نفي الشعر من القرآن ١٠٣
فصل : في نفي السجع من القرآن ١١٠
فصل : في ذكر البديع من الكلام ١٢٠
الاستعارة ١٢٠
التشبيه ١٢٥
الغلو ١٣٠
المماثلة ١٣٢
المطابقة ١٣٣
التجنيس ١٣٦
المقابلة ١٤٠
الموازنة ١٤١
المساواة ١٤١
الإشارة ١٤٢
المبالغة والغلو ١٤٢
الإيغال ١٤٤
التوشيح ١٤٤
رد العجز على الصدر ١٤٥
صحة التقسيم ١٤٦
صحة التفسير ١٤٦
التكميل والتتميم ١٤٧
الترصيع ١٤٧
الترصيع مع التجنيس ١٤٨
المضارعة ١٤٩
التكافؤ ١٤٩
باب التعطف ١٤٩

السلب والإيجاب ١٥٠
الكناية والتعريض ١٥٠
العكس والتبديل ١٥٠
الالتفات ١٥١
التذييل ١٥٤
الاستطراد ١٥٥
التكرار ١٥٧
الاستثناء ١٥٨
هل لأبواب البديع فائدة في معرفة الإعجاز ١٥٩
لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع ١٦٢
فصل : في كيفية الوقوف على إعجاز القرآن ١٦٥
خطب وكتب للنبي ﷺ .... ١٧٩ — ١٨٣
الفرق ظاهر بين بلاغة القرآن وبلاغة الرسول .... ١٨٣ — ١٩٧
الفرق ظاهر بين كلام البشر وكلام الله ١٩٧
امرؤ القيس ومعلقته ٢٠١
عود إلى إعجاز القرآن ٢٢٥
نقد لامية البحتري ٢٥٨
فصل ٢٨٤
فصل : في التحدي ٢٨٥
فصل : في قدر المعجز من القرآن ٢٨٧
فصل : في أنه هل يعلم إعجاز القرآن ضرورة ٢٩١
فصل : فيما يتعلق به الإعجاز ٢٩٢
فصل : في وصف وجوه من البلاغة ٢٩٤
فصل : في حقيقة المعجز ٣١٣
فصل : في كلام النبي ﷺ وأمور تتصل بالإعجاز ٣١٧
فصل ٣٢٢

فصل ٣٢٣
خاتمة التحقيق ٣٢٩
فهرس الكتاب ٣٢٩